

في
أصول السياسة
المصرية
سعد زهران
فكر
المحروسة

فى أصول السياسة المصرية

سعد زهران

عنوان الكتاب: فى أصول السياسة المصرية
المؤلف: سعد زهران



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف : 28432157 02 002

www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
facebook/almahrosacenter
twiter: @almahrosacenter
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
مدير النشر : عبدالله صقر

رقم الإيداع : ١٧٧٥٩ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى: 978-977-313-735-9

فى أصول السياسة المصرية

سعد زهران

طبعة المحروسة الأولى 2018



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

زهران، سعد

في أصول السياسة المصرية/ سعد زهران.-

القاهرة : المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2018

ص203؛ سم17×24

تدمك 9-735-313-977-978

-1 مصر- الاحوال السياسية

أ- العنوان

320.962

رقم الايداع: 17759 / 2018

المحتويات

مــدخــل

كان دائما هناك، يحذر منه الراعي، ويجمع حوله الرعية لمواجهة خطره.

ونحن نذكر أيام كان الذئب هو "الاستعمار والإقطاع والاحتكار".

والذئـب وحـده لا يكفـى لتجميـع الرعيـة، وإنمـا يكـون هنـاك أيضـا الوعـد بالمرعـى الأفضـل..

ووقـت أن كان الذئـب هـو الاسـتعمار والإقطـاع والاحتـكار كان المرعـى الأفضل هو الاسـتقلال الحقيقـى والعدالـة الاجتماعية والديمقراطيـة الصحيحة والعـزة والكرامة.

واتخـذ ذلـك الذئـب القديـم أسـماء وأشـكالا : فـكان هـو النظـام الملـكي وجيـش الاحتـلال البريطـاني، ثـم كان العـدوان الثـلاثي الإنجليـزي الفرنـسي الإسرائيـلي، ثـم كان مـشروع ايزنهـاور...

وبـر الراعـي بمعظـم وعـده، فـكان جـلاء جيـش الاحتـلال البريطـاني، واخفـاق العـدوان الثـلاثي، وفشـل مـشروع ايزنهـاور. وجـرى تنفيـذ المرحلـة الأولى للإصـلاح الزراعـي، وأممـت قنـاة السـويس وشركات بريطانيـا وفرنسـا وبنوكهـما.. وتفتحـت آفـاق الوحـدة العربيـة والتصنيـع الثقيـل، وشرعنـا في بنـاء السـد العـالي.

أما عن الديموقراطية الصحيحة والعزة والكرامة فان لها معايير يطول حولها الحديث ويتشعب.

ثم تغير الذئب :

خلال فترة حوالي ثلاث سنوات، بين سقوط النظام الملكي في العراق (يوليو 1958) وسقوط الوحدة المصرية السورية (سبتمبر 1961)، قال الراعي إن الذئب هو الشيوعية الدولية، فهي التي تقف عائقاً في سبيل إنجاز الوحدة العربية الشاملة، وتحاول إلحاق العالم العربي بالتبعية السوفييتية.

ولكن، بعد الانقلاب الذي فصل سوريا عن مصر، عاد الحديث مرة أخرى عن الذئب الاستعماري، الذي سمي حينذاك الإمبريالية وأحيانا الاستعمار الجديد. وكان المعنى بذلك الولايات المتحدة الأميركية. وان كان ذكر أمريكا لم يرد (غالبا) إلا تلميحا لا تصريحا.

وفي حرب اليمن، التي بدأت في خريف 1962، أضيفت "الرجعية العربية إلى قائمة الذئب العربي. وكان المعنى هو العربية السعودية أساساً. وتعسكر العالم العربي إلى دول تقدمية وأخرى رجعية... كذلك أضيفت الرأسمالية "المستغلة" إلى قائمة الذئب الداخلي. أما المرعى الموعود فأصبح "الحرية والاشتراكية والوحدة". الحرية هي التحرر من كل أشكال الاستعمار القديم والجديد، والاشتراكية هي الاشتراكية العلمية التي لا توجد اشتراكية سواها، وهما الشرطان للوحدة، المأمول أن تكون وحدة عربية شاملة تتم بإنجاز تحرير كل قطر عربي ووضعه على خط التحول الاشتراكي.

ثم جاءت حرب 1967، والهزيمة، فقفزت الدولة الصهيونية لتحتل مركز الصدارة في قائمة الذئب، وإنكمش الوعد إلى "إزالة آثار العدوان"، وإن استمرت الاشتراكية كتعبير عن إرادة تعبئة قوى الأمة من أجل الحرب واسترداد الأرض المحتلة، أكثر مما هى اختيار من اجل الكفاية والعدل.

ثم مات جمال عبد الناصر :

وقبل مرور ثمانية شهور على وفاته كان قد برز ذئب داخلى سُمِي "مراكز القوى" شملت أكثر من مائة من الشخصيات القيادية فى الدولة من معارضى السادات ومنافسيه، ونسبت إليهم تهمة اهدار الديمقراطية والعزة والكرامة... وشمل المرعى الموعود الديمقراطية الصحيحة، التى فسرت هذه المرة بأنها ديمقراطية قائمة على تعدد المنابر والأحزاب، مستندة إلى "سيادة القانون".

اختفت الصهيونية والامبرالية والرأسمالية من قائمة الذئب، واختفت الاشتراكية والوحدة من قائمة المرعى الموعود، وعادت الشيوعية والخطر السوفيتى ليحتلا مركز الصدارة فى قائمة الذئب، وأصبح المرعى الموعود هو "السلام والرخاء"، السلام مع إسرائيل التى أصبحت - بين يوم وليلة - دولة مجاورة صديقة، والرخاء يعنى الانفتاح، أى الباب المفتوح أمام سلع الاستهلاك القادمة من البلاد الرأسمالية.

وقبل موت السادات بشهر واحد، اتسعت دائرة الذئب فجأة لتشمل كل معارض للسلطة القائمة، بدعوى مقاومة الفتنة الطائفية.

ثم كان 6 أكتوبر 1981 :

وفى ديسمبر بدأ الموقف فى الإنفراج :

ولعلها أن تكون فرصة، ليس فقط لالتقاط الأنفاس، وانما لإمعان الفكر فيمن عساه يكون الذئب وما هو المرعى الموعود فى هذه الأيام.

لن ننهى هذا المقال قبل أن نعود إلى حديث الذئب والمرعى الموعود. ولكن، وصولاً إلى ذلك، لابد من توضيح بعض المفاهيم لكى يتعرف من يعنيهم الأمر على طريقتنا فى النظر إلى الأمور وتحليل الأحداث واستخلاص الدروس والعبره.

الباب الأول

مثلث السلطة
الراعى والأعيان والإمبراطورية

على الرغم من أن هذا مقال فى السياسة العملية، إلا أنه يصعب فهم الراعى إلا بالاستعانة بشئ من التاريخ فى مصر.أتخذ الراعى أسماء عديدة : هو الملك أحيانا ثم هو الرئيس وكان فى أيام خلت هو السلطان أو الوالى وفى الزمان السحيق كان هو الفرعون، والرعيه فى مصر دائما تصدق الراعى وعندها ميل طبيعى دائم لطاعته وذلك فى مقابل الآمن والقوت الضرورى الستر. بأختصار تلك مقايضه دائمة عبر التاريخ المصرى: ضمان الآمن والقوت الضروري من جانب الراعى، والتصديق والطاعة.. وأحيانا التالية، من جانب الرعية.

وفى الزمان السحيق، وقت أن كان الكون هو الوادى، ومن حول الوادى صحاري ومستنقعات وبحار، من ورائها فراغ حضارى، لم تكن الرعية ترى قوة بشرية فوق الراعى. لذلك كان الراعى، الفرعون، هو سليل الآلهة. إله من صلب الآلهة، الكونية.

يقول علماء الجغرافيا: أن النيل هو السر الكامن - بقدر ما هو واضح - وراء هذا الولاء المطلق للراعى للفرعون، فالنيل هو مصدر الخيرات المادية، هو المحور

الذى تدور حوله عجلة الحياة ومؤسسات المجتمع وعلاقاته، يقولون: أن هذا هو الشر الكامن وراء ذلك التركيب النفسي المميز للرعية في مصر.

وهذا صحيح.

ولكن تلك الحال، وإن استمرت آلاف الأعوام لم يكتب لها الدوام، وتلك سنة الحياة وشريعة الخالق.

منذ أفول نجم الدولة الفرعونية.. منذ دارا الفارسي والاسكندر المقدوني، منذ تعاقب على أرض الكنانة الغزاة والفاتحون : قياصرة الروم، وكسراوات الفرس، وخلفاء العرب المسلمون، وجيوش الأتراك، وأساطيل الاستعمار الأوروبى الحديث... منذ أكثر من ألفين من السنين، أصبحت مصر قطراً من أقطار الإمبراطورية التى تحكم المنطقة، وأصبح الراعى مرتبطا بخيوط بشرية تشده إلى الإمبراطورية وتؤثر فى حركته، وكثيرا ما تملك مصيره.

لم تعد مصر هى الكون ومن حولها فراغ، ولم يعد الكون هو مصر، راعيها هو راعى الكون وإلهه، وإنما أصبح بشراً فوقه بشر أقوى. وفوق الجميع إله واحد هو إله الكون الكبير، إله كل الأقطار والأمصار.

وطالما توفر الأمن والقوت، فان الرعية فى مصر لم تشغل نفسها كثيراً بطبيعة العلاقات التى تربط راعى الكنانة بالإمبراطورية التى تحكم المنطقة، كل ما كان يعنى الرعية، وما كانت تدركه أدراكاً شبه غريزى، هو أن الأمن والقوت، أن الستر، أصبح مرتبطاً - على نحو ما - بأحوال الإمبراطورية، وتوازن علاقات الإمبراطورية بالراعى، وعلاقاته بها.

طبيعة تلك العلاقات، فى وعى الرعيه ووجدانها، ظل عبر القرون أقرب إلى قوى الكون المجهولة : قوة قدرية يصعب على البشر إدراك كنهها أو الاحاطة بشئ من أسرارها.

وحين تضطرب شئون الإمبراطورية، أو تضطرب العلاقات بين الإمبراطورية والراعى... كانت الرعية تشعر وكأن الأقدار تريد بها شراً.. ويسود الوادى جو من القلق والترقب.. إلى أن يأمر الله بالجديد.

وقد يكون الجديد هو إحلال إمبراطورية جديدة مكان القديمة.. أو قد يكون تعديلاً محسوساً فى علاقات القوى بين الراعى والإمبراطورية.

على كل حال، لم تكن فى الرعية قدرة على تبين أسرار لعبة التوازنات أو تعمق أسباب الاضطراب، وان كانت دائماً هى الأكثر معاناة من النتائج.

ولكن، ليس معنى ذلك أن مصر خلت، على مر العصور، من مصريين كانوا يعون أسباب الاضطراب، ويحاولون المشاركة فى لعبة علاقات القوى بين راعى القطر المصرى، والإمبراطورية الحاكمة.. وهؤلاء هم الأعيان.

وطبقة الأعيان فى مصر قديمة قدم التاريخ. فى تعريف أولى : هم الذين ساعدوا الراعى على توفير القوت للعباد والأمن للبلاد، هم رجال الجيش، والإدارة، ورجال الدين وأصحاب المهن، هم، باختصار، الطبقة المسيرة لشئون الحكم، بمختلف تخصصاتها وحواشيها.

ولنبدأ برجال الجيش - العسكر.

لقد وجدت مصر، كدولة مركزية موحدة، بفضل القوة العسكرية التى أنشأها وقادها الملك مينا، مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

وظل الجيش هو القوة الساهرة على الوحدة الوطنية المصرية، طالما ظلت مصر هى الكون المتكامل المغلق على نفسه... إلى أن بدأت الدولة المصرية الفرعونية تتعرض للهجمات العسكرية للشعوب الرعوية المجاورة (الهكسوس) حينذاك، أصبحت المهمة الأولى للعسكرية المصرية هى الدفاع عن مصر ضد العدوان الخارجى.

هكذا قاد أحمس، مؤسس الأسرة الثامنة عشر، الحركة التحريرية العسكرية التى أجلت الهكسوس عن البلاد، وقام ورثته بمطاردة الخطر الخارجى إلى أرض فلسطين والشام شمالاً، وجزء كبير من النوبة جنوباً، وجزء كبير من مياه البحر الأحمر... وهكذا كان ملوك الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر، التحامسة والرعامسة، ملوكا محاربين، ذوى نزعات توسعية، يحكمون إمبراطورية متعددة القوميات والأجناس.

وقد حاول أحد هؤلاء الفراعين، أختاتون، أن يقوم بثورة (أو إصلاح ؟) دينى، يبشر فيه لإله عالمى واحد، هو إله الشمس (آتون) يطوى تحت نفوذه الربانى الآلهة المحليين للشعوب والقوميات التى امتد إليها النفوذ الامبراطورى المصرى، بل إن اخناتون كان يحلم بأن يعوض النفوذ الروحى للإله الواحد عن القوة

القاهرة للعسكرية المصرية الفرعونية... ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح، كانت سابقة لأوانها، أولاً، كما كانت أكثر مثالية من أن تثبت للمقاومة الخارجية والقوى المحافظة المحلية.

وعموما، بمقياس التاريخ المصرى الطويل، كانت العسكرية المصرية فى الدولة الفرعونية الحديثة، كانت قصيرة العمر، لم تستطع أن تصمد أمام التحديات العسكرية للشعوب الرعوية المجاورة إلا بضع مئات من السنين، وذودت قدراتها العسكرية أثناء حكم الأسرات الفرعونية الأخيرة.... إلى أن جاء وقت لم تثبت فيه حتى لهجمات الكوشيين (النوبيين) من الجنوب، والليبيين من الشمال الغربى، ثم جاءت جيوش دارا الفارسى، فالاسكندر المقدونى، لتكون نهاية العسكرية المصرية القديمة..

ولم يكتب للعسكرية المصرية بعث جديد إلا حديثاً جداً، فى القرن الماضى فحسب.

أثبت التاريخ أن الشعوب الرعوية، القادرة على حسن استخدام الفرس أو الناقة، أو كليهما، أثبت إنها أقدر على إتقان الفنون العسكرية من الشعوب الزراعية المستقرة. وهكذا، منذ الطفرة التى أحدثها فى الفنون العسكرية الاسكندر المقدونى، ونجاحه فى إنشاء اكبر إمبراطوريه متعددة الأجناس والقوميات فى التاريخ القديم... منذئذ، حدث نوع من تقسيم العمل : شئون الحرب والتجارة (الخارجية) بيد طبقية أجنبية، فاتحة حاكمة، من التجار المقاتلين يقودهم حاكم تعينه الإمبراطورية، أما الزراعة والإدارة والمهن والزعامة الروحية للرعية فقد ظلت بيد الأعيان المصريين، بيد رجال الإدارة وأصحاب المهن ورجال الدين المصريين. هؤلاء الأعيان قبلوا بهيمنة التجار المقاتلين الذين يمثلون الإمبراطورية التى تحكم المنطقة، واحتفظوا - فى نفس الوقت - بقدر عالٍ من الاستقلال الذاتى الداخلى.

وإذا كانت العسكرية المصرية الأولى هى التى وحدت الوادى، وسهرت على سلامة هذه الوحدة وصيانتها - ما أمكن - ضد العدوان الخارجى، فإن الإدارة المصرية هى التى قامت على تسيير عجلة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

سهرت الإدارة المصرية، بمختلف تخصصاتها الفنية، على تهذيب النهر، وتنظيم دورة الزراعة، وتوزيع مياه الرى، ورعايه شئون الأمن المحلى، وتأمين سبل الاتصال

النهـرى والـبرى والإشراف عـلى الأسـواق، وجبايـة الضرائـب والمكـوس، وإمـداد الدولـة بعنـاصر قوتهـا الماديـة والبشريـة.

هـذه الإدارة المصريـة، بـدءا مـن شـيخ خفـراء القريـة وصـولاً إلى مـن أعتـلى أعـلى المناصـب، مـروراً بشـيخ البلـد فالعمـدة، فموظفـى الـرى والصيارفـة، فالمديـر، فالمحافظ فالوزيـر... ظـل لهـا - عـلى مـر التاريـخ - ميـزة عـلى كل الغـزاة والفاتحـين، ظلـت هـى الحفيظـة عـلى أسرار دورة الـرى والزراعـة، القـادرة عـلى التعامـل مـع الرعيـة وتشـغيلها، واسـلاس قيادهـا، وامتصـاص أعـلى مـردود مـادى منهـا.

هذا المردود المادى (الإنتاج الزراعى أساسا) يوزع على مختلف القوى المعنية:

الإمبراطوريـة التـى تحكـم المنطقـة تحصـل عـلى نصيبهـا نظـير حـق الفتـح والسـيطرة، جـزء يذهـب إلى العاصمـة الإمبراطوريـة، وجـزء ينفـق عـلى الحاميـات العسـكرية التابعـة للقيـادة الإمبراطوريـة أو الملحقـة بهـا.

والراعـى والحاشـية مـن حولـه (ويمكـن أن نسـميهما معـا "القـصر")، يحصلـون على انصبتهـم طبعـا، عـلى نحـو يتفـق ومهابـة الحكـم ويضمـن أبهـة السـلطة ورفاهيتهـا ومركزيتها.

والأعيـان، يحصـل كل واحـد عـلى نصيـب حسـب معيـار يـراه الراعـى، هـو - فى التحليـل النهـائى - مـرادف للـدور الـذى يقـوم بـه فى البنـاء السـلطوى... والرعيـة تحصـل عـلى قـوت اليـوم، والسـتر، والعاقبـة فى الحيـاة الآخـرة.

وعـبر التاريـخ المـصرى كانـت المصـادر الطبيعيـة للخـيرات الماديـة، الأرض والمـاء والشـمس والهـواء.. كانـت ملـكاً للخالـق. لم تكـن ملـكاً شـخصياً لواحـدٍ مـن النـاس، كان ثمـة حـق انتفـاع لاحـق ملكيـة. وكانـت الدولـة، عـلى رأسـها الراعـى يسـاعده الأعيـان ومـن ورائهـما الإمبراطوريـة، كانـت هـى الحارسـة عـلى هـذه الملكيـه الربانيـه، ينـال كل مـن ثمارهـا بالقـدر الـذى تحـدده شرائـع الدولـة وأعرافهـا وزعامتهـا.

وجديـر بالملاحظـة أن حـق ملكيـة الأرض، حـق شراء الأرض أو بيعهـا بالمـال الخـاص - هـذا الحـق حديـث جـدا، وطـارئ، فى تاريـخ مـصر، هـذا الحـق يعـود فقـط إلى وقـت مـا مـن خمسـينيات أو سـتينيات القـرن المـاضى، هـذا الحـق عـرض مـن أعـراض السـيطرة الاسـتعمارية الأوربيـة الحديثـة، هـذا حـق "بورجـوازى أوروبى"، جـاء عـدوى مـن أوروبـا البورجوازيـة (الرأسـمالية)، جـاء بـه قصـدا وتدبـيرا المسـتعمرون

الأوروبيون فى القرن التاسع عشر تسهيلا لسيطرة البنوك العقارية الأوربية على الريف، وتسهيلا لمهمة راس المال الأوروبى الموظف لتوجيه الزراعة المصرية لإمداد السوق العالمى بالسلع الزراعية القابلة للتسويق فى السوق الراسمالى، ولتزويد الصناعة الأوربية بما يلزمها من بعض الخامات الرخيصة.

من هنا الأهمية الأزلية للجناح الادارى لطبقة الأعيان المصريين، وثبات أسسه وأقدامه، ورسوخ تقاليده ونفوذه فى هرم التراتب الاجتماعى، وليس عبثا ذلك المثل الشعبى الشهير : "إن فاتك الميرى تمرغ فى ترابه".

هذا البناء الادارى المصرى يكمله، ويكاد أن يكون جزءا عضويا منه، بناء دينى لا يقل ترابطا وأحكاما، وله هيبته ونفوذه الروحى الخاص.

وتكتمل طبقة الأعيان بهالة واسعة من أصحاب المهن والحرف والفنون والصناعات، وفئة تجارية كان وزنها فى الغالب، ضعيفا، حيث إن التجارة الخارجية كانت بعيدة عن أيديها، كما كانت الدولة غالباً ما تحتكر التعامل فى عدد من السلع الأساسية.

من مجموع رجال الإدارة وشيوخ أصحاب المهن والحرف والصناعات والتجار ورجال الدين يتشكل الجناح المدنى (أى غير العسكرى) للأعيان المصريين على مر التاريخ، وهم القوة الأساسية التى ضمنت استمرار الخصائص الحضارية والتكوين المميز للشخصية المصرية، حتى فى فترات ضعف العسكرية للشعوب الرعاة، منذ اضمحلال الدولة الفرعونية حتى القرن التاسع عشر، فان هذه الطبقة استمرت تشارك فى لعبة صراع القوى بين الأمة المصرية من جانب، والإمبراطورية المسيطرة على المنطقة من جانب آخر، وقد قامت هذه الطبقة بدورها فى اللعبة بحاسة عملية نادرة، وقدرة فائقة على المواءمة واكتشاف الحلول، والوصول إلى مخارج من مآزق التاريخ.

ولنضرب مثالا ربما لا نجد له مثالا فى أى بلد وأى عصر.

لقد ظلت هذه الطبقة، بضع مئات من السنين، تشترى عبيدا بالمال، لتنصب منهم حكاما على البلاد : سلاطين وملوكا وقادة، سادة لجهاز السلطة والحرب.

نعم.

ألم يحدث هذا طيلة فترة حكم المماليك ؟

إذا أردنـا أن نحلـل رمـوز تلـك الفـترة قلنـا : إن الأعيـان المصريـين أدركـوا بحاسـتهم العمليـة النـادرة، أن إتقـان الفنـون العسـكرية لتلـك الفـترة فى تلـك الحقبة مـن التاريخ، أصبـح حكـراً عـلى السـلالات البشريـة الآسـيوية الرعويـة، سـكان السـهوب الجبليـة.. تلـك التـى تفطـم أطفالهـا عـلى حليـب المهـرة، ويتعلـم صبيتهـا الفروسـية قبـل تعلـم المـشى، ولا يجـدون الراحـة إلا فى القتـال والترحـال، ويبيتـون ليلهـم تحـت شـعر الخيـام ونجـوم السـماء... تلـك التـى مـن بينهـا التـتر والمغـول والترك...وأنجبـت مقاتلـين مـن مرتبـة هولاكـو وتيمـور لنـك وصـلاح الديـن وتـوران شـاه.

وإذا كان لابـد مـما ليـس منـه بـد، فليكـن ذلـك بيـدى لا بيد عمـرو... لتسـلم طبقة الأعيـان المصريـين جهـاز الحـرب فى مـصر لهـؤلاء المقاتلـين، وان كان الـوادى لا ينجـب هـذه السـلالة مـن البـشر فـلا بـأس مـن اسـتيرادها مـن الخـارج، مـن حـر أمـوال المصريـين !!... ولتجـر مراسـم الاحتفـال بعتـق هـؤلاء العبيـد هنـا فى القاهـرة، ليصعـدوا إلى سـدة الحكـم ومراتـب السـلطة. فـان كان القتـال هـو أهـم مهـن السـلطة، فليتـول السـلطة مـن هـم أقـدر عـلى القتـال، "أعطـوا العيـش لخبازيـه". ولا عيـب، ولا غرابـة، ولا عجـب. (وإن كان هـذا أعجـب مـن العجـب) !! عسـكرياً، بعـد أمجـاد الدولـة الفرعونيـة، فإنهـم ظلـوا دائمـا متفوقـين حضاريـا، خاصـة عـلى أرض هـذا الـوادى.

ذلـك أنـه مـا تـكاد تسـتقر أمـور الغـزاة، ومـا تـكاد تطـول بهـم الإقامـة إلا قليـلا حتـى يتـسرب إلى وعيهـم ويتسـلل فى وجدانهـم يقـين متعاظـم بـأن أسـلوب حيـاة الأعيـان المصريـين (فى أرض مـصر) هـو أفضـل مـن أسـلوب الحيـاة الـذى ورثـوه عـن تلـك التقاليـد الرعويـة البدويـة، مـما تتميـز بـه مـن جفـاف وقسـوة، ومـا تخلقـه مـن مـزاج بـرى حـاد. وهـذا عامـل جعـل هـذا الـوادى، طيلـة عصـور سـيادة الحضـارة الزراعيـة، مركـز جـذب سـكانى... فمـن شرب مـن مـاء النيـل مـرة لابـد وأن يعـود ليـشرب منـه مـرة أخـرى... ودائمـا.

هكـذا، بمقيـاس التاريـخ، مـا أسرع مـا تمـصر الغـزاة والفاتحـون عـلى أرض مـصر. ومـا أيـسر مـا جـرى الاسـتيعاب الحضـارى للغـزاة والفاتحـين، ومـا جـرى كسـب ولائهـم لأرض الكنانـة التـى دائمـا لهـا فتنتهـا وسـحرها الـذى يشـد البـشر، ويحببهـم فيهـا، ومـن لـه الفضـل فى هـذا، بعـد الخالـق الوهـاب، سـوى الأعيـان المصريـين ؟

مـا يـكاد يمـضى جيـل أو بعـض جيـل عـلى المماليـك المسـتوردين، حتـى يكونـوا قـد تمـصروا، سرعـان مـا يكـون المملـوك قـد أكل طعـام الأعيـان، وعايشـهم، وعـاش

فى مثل دورهـم وقصورهـم، وشـارك فى حفلاتهـم واحتفالاتهـم ومواكبهـم وأفراحهـم، ومـارس الشـعائر والطقـوس الدينيـة عـلى طريقتهـم، وصاهرهـم، وصـار قريبـاً - وربمـا واحـداً - منهـم.

ومـن نتائـج التمصير، واختـلاط، دمـاء الفرسـان الوافديـن بدمـاء كثـير مـن عائـلات الأعيـان المصريـين - فقـدان الصفـات القتاليـة التـى جـاء بهـا المملـوك، وقـت أن كان عبـدا مسـتوردا مـن بـلاد التركـمان والتركسـتان والشركـس ومـا شـاكلها.

وهكـذا كانـت تذهـب بعثـات الأعيـان المصريـين كل بضـع سـنين، إلى بـلاد التركـمان والتركسـتان والشركـس... تشـترى مزيـدا مـن العبيـد المقاتلـين، لتنصبهـم عـلى أرضهـا فرسـاناً وملـوكاً وسـلاطين، وللـه فى خلقـه شـئون !

والحـق يقـال، أن السـلطنة، المصريـة التـى أقامهـا هـؤلاء المماليـك كانـت مـن أزهـى السـلطنات، لم تكـن مـصر حينـذاك تتمتـع باسـتقلال ذاتى داخـلى فحسـب (فى إطـار النفـوذ الروحـى المهتـز للخلافـة العباسـية المحتـضرة)، وإنمـا كانـت أكـثر مـن مسـتقلة، وكانـت القاهـرة هـى أقـوى العواصـم العربيـة وأكثرهـا منعـة، فهـى التـى اسـتعصت، دون سـائر عواصـم الـشرق الأدنى، عـلى هجـمات المغـول والتـتر من الشـمال وهجـمات الصليبيـين مـن الشـمال الغـربى، كانـت مـصر قلعـة الدفـاع عـن العـرب ضـد هجـمات الشـعوب الرعويـة الآسـيوية غـير العربيـة وهجـمات الشـعوب الأوروبيـة غـير الإسـلامية، وهـى التـى كانـت عاصمـة تجـارة المـرور بـين بـلاد الـشرق البعيـد والثغـور المتوسـطية (وأشـهرها حينـذاك جنـوا ونابـولى والبندقيـة) التـى شرعـت تقـود أوروبـا نحـو النهضـة والازدهـار والزعامـة العالميـة.

ولكن تلك حال لم تدم أيضا. وسبحان من له الدوام.

ففـى أوائـل القـرن السـادس عـشر كانـت أوروبـا قـد تجـاوزت مـا سـموه عـصر النهضـة، أو كادت. وبـدأت مـا أسـموه عـصر التنويـر، أو ولجتـه فى بعـض المناحـى.

وشرعـت الزعامـة التجاريـة الأوربيـة تنتقـل غربـا بشـمال، مـن الثغـور المتوسـطية الإيطاليـة إلى العواصـم الغـرب أوروبيـة الأطلنطيـة، مـرورا بأسـبانيا والبرتغـال... كانـت أوروبـا، التـى بـدأت يقظتهـا المحمومـة، تكتشـف العـالم فيـما أسـمته عـصر الكشـوف الجغرافيـة، ومـن أشـهرها اكتشـاف البرتغاليـين الطريـق البحـرى، حـول أفريقيـا إلى الـشرق البعيـد. وكان ذلـك نذيـرا بقـرب فقـدان الـثروة التـى كانـت تتدفـق عـلى

خزائن المماليك من التجارة العابرة. وعجزت القوة البحرية للسلطان الغورى، حين هزمت الأساطيل المصرية أمام التفوق البحرى البرتغالى جنوبى عدن، فى مياه القرن الافريقى والمحيط الهندى، عجزت عن إيقاف عجلة التاريخ.. وما أكثر ما تدوس عجلة التاريخ على بعض الرقاب بغير رحمة، فهى كما ترفع تخفض.

وفى نفس الحقبة حدث تغير نوعى فى تاريخ الأتراك.

منذ عصر المعتصم العباسى فى بغداد، والخلفاء العرب المسلمون يستخدمون الأتراك جنوداً ثم قادة لجيوشهم، الأمر الذى انتهى بهؤلاء الخلفاء - فى آخر عهدهم - إلى ألاعيب فى أيدى القيادات العسكرية التركية، يولونهم ويعزلونهم أو يقتلونهم، وأحيانا يسملون عيونهم ويتركونهم على أبواب المساجد يتسولون.

وفى القاهرة، كان الأعيان المصريون والمتمصرون يشترون بالمال عبيدا من سلالات تركية أو شبه تركية، وينصبون منهم سلاطين وملوكا وقادة للجيوش، ثم يمصرونهم ويهضمونهم ويحتوونهم.

ولكن، مع الوقت، أصبح للقوة العسكرية التركية كيانها المستقل، ولم تلبث أن أتخذت من بعض الإمارات والدويلات التركية الهامشية نقاط وثوب على الممالك والإمبراطوريات المتداعية من حولها وأسقطت معقل المسيحية الشرقية فى القسطنطينية (1453)، فأجتاحت كل شبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول) وأقامت على أنقاضها دولة تركية أسلامية، سرعان ما تحولت إلى إمبراطوريه آلت إليها مقاليد السيطرة العسكرية والسياسية فى المنطقة وتلك هى الإمبراطورية العثمانية.وكما انهارت القوة البحرية المصرية أمام أساطيل البرتغاليين فى مياه القرن الافريقى والمحيط الهندى، انهارت مقاومة الجيوش البرية المصرية أمام جيوش السلطان سليم العثمانى فى مرج دابق على أرض الشام، ودخلت الجيوش العثمانية القاهرة، وعلقت جثة طومان باى، آخر سلاطين المماليك على باب زويلة (1517).

ودخلت مصر فى ظل السيطرة العثمانية.

لم يقنع العثمانيون بالتفوق العسكرى، ولم يكن نهجهم شبيها بنهج من سبقهم من الشعوب الرعاة (كالتتر والمغول) الذين انتصروا عسكريا، ونهبوا وسلبوا ودمروا، ثم انسحبوا وانتهوا...

وإذ سعى العثمانيون إلى إقامة ملك مستقر وبناء إمبراطورية عالمية، فإنهم عملوا على إرساء مقومات ثقافية حضارية متكاملة تضمن لعاصمتهم تفوقا حضاريا على العواصم العريقة التى خضعت، وهكذا كان من بين ما فعلوا أنهم نقلوا مقر الخلافة الإسلامية من بغداد إلى اسطنبول، كما نقلوا إليها كثيرا من فنون العالم العربى الاسلامى.. ومن ذلك أنهم رحّلوا إلى عاصمتهم - من القاهرة بالذات - كل من وصلت إليه أيديهم من أمهر الصناع وأصحاب الحرف والمهن المصريين.

هكذا فقدت مصر بالسيطرة العثمانية الكثير، كما سبق أن فقدت بالتفوق البحرى البرتغالى.

فقدت دخلها من التجارة العالمية، فافتقرت.

وزادت فقراً على فقر بفقدان خيرة الصناع وأصحاب الحرف.

وسياسيا : فقد الأعيان ورجال القصر، وهم مصريون ومتمصرون، ميزة شراء المماليك وتنشئتهم، وتنصيب من يرون منهم فى المناصب العسكرية ومواقع السلطة، أصبح السلطان التركى هو الذى يعين على مصر واليها، وهو الذى يرسل إليها الفرق والقيادات العسكرية التركية أو الشركسية.. التابعة مباشرة للباب العالى.

ولكن هذا لا يعنى أن الأعيان المصريين تخلوا عن عادتهم الأزلية، عادة الالتفاف على السلطة الإمبراطورية ومحاولة انتزاع أقصى ما يمكن من الاستقلال الذاتى.

وتزعم "المماليك المصريون" هذه المحاولة.

والمماليك المصريون هم أبناء وأحفاد المماليك الذين كان من بينهم الملوك والسلاطين وقادة الجيوش إبان حكم المماليك البرجية والمماليك البحرية، هم أبناء الأسر المملوكية التى تمصرت واندمجت، بدرجات متفاوتةَ، فى طبقة الأعيان المصريين.

بعد أن انكسرت جيوش المماليك إمام جيوش العثمانيين فى مرج دابق، انسحبت بقاياهم إلى الداوخل، بعد أن احتلت الحاميات العثمانية قلاع الحدود

وقلعة صلاح الدين فى القاهرة، انسحبت البقايا المملوكية إلى الريف - وبالذات، إلى عواصم الأقاليم.

وفى مقابل التسليم بالسيطرة العثمانية، والرضوخ لسلطة الوالى التركى فى القاهرة، ودفع الجزية وتسديد رواتب جنود الاحتلال.. فى مقابل هذا انتزع المماليك من الإمبراطورية حق الالتزام، حق الحكم المحلى للريف المصرى، والإشراف على الإدارة وجباية الضرائب والسهر على الأمن المحلى...

ولكن هذا الدور لم يكن بنفس الكفاءة التى كانت على أيام الإدارة التى يغلب فيها العنصر المصرى، فقد أصاب التهجين المملوكى طبقة الأعيان المصريين، كما أصابتها الزعامة المملوكية، بكثير من العجز والفساد.

وقد كانت الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية دينية متعددة القوميات والأجناس، تمارس - شأن كل الإمبراطوريات - أشكال القمع والاضطهاد بمختلف الأساليب والأنواع، وخاصة الاضطهاد القومى للأمم والشعوب غير التركية، والاضطهاد الدينى كلما وجدت لذلك مبررا، وفى هذا وذاك، كانت القوة العسكرية التركية هى أداة القمع الرئيسية.

.. قبل الغزو العثمانى لمصر فقد المماليك المستوردون المقاتلون طابعهم العسكرى، وأندمجوا فى الحياة المدنية للأعيان المصريين، ويتمثلون التقاليد الحضارية والتراث الثقافى للأمة المصرية.

ولا نخطئ إذا افترضنا أن عملية الامتصاص البشرى للمماليك فى مجتمع الأعيان كانت تتم بيسر وسهولة نسبية، كذلك كانت قدرة الأعيان كبيرة على احتوائهم حضاريا ودمجهم فى الحياة المدنية.

ولكن لابد أن تكون الأمور قد اختلفت فى العصر العثمانى.

أصبح مبرر وجود المماليك "المصريين" ومبرر استمرار امتيازاتهم هو :

1. التشبث بما بقى لهم من صلاحيات عسكرية تمكنهم من الضغط على الإمبراطورية ومساومتها، واستمرار هيمنتهم على الرعية الريفية، واثبات أن الأمن الداخلى بأيديهم لا بأيدى قوات الاحتلال والحاميات التركية.

2. التشبث بما بقى من مقوماتهم وهويتهم الأصلية، التركية أو شبه التركية، تقربا من السادة الأتراك الذين يمارسون الاضطهاد القومى، وتعاليا على الفلاحين

المصريين، ساعد على ذلك وجود اسطنبول كمركز حضارى تركى غالب، فى مواجهة القاهرة - مركز الحضارة العربية المصرية المغلوبة.

وإذا أصبحت اليد العليا فى إدارة الأقاليم لعائلات مملوكية، تركية أو شبه تركية، عسكرية أو شبه عسكرية، اضمحلت الإدارة المصرية العريقة، الخبيرة بشئون الرى والفلاحة، وحساب الضرائب وجبايتها، وضبط المالية العامة... وهكذا تدهور حال الزراعة، وهبط الريف إلى حضيض الفقر، واضطربت شئون الحياة اليومية، واختل الأمن... وتلك من الفترات القليلة فى تاريخ الريف المصرى التى شهدت نزاعات مسلحة بين أمراء عسكريين، وهى وان تكن ضئيلة بالقياس إلى النزاعات التى شهدتها مجتمعات أخرى عرفت النظام الاقطاعى، إلا أنها فى ظروف الزراعة النهرية وضرورات التحكم المركزى فى مياه النيل وترعه وقنواته كانت كافيه لإحداث كم هائل من الخراب والتخريب والافقار.

ومع اطراد قوة الإمبراطورية العثمانية وتعاظم نفوذها وتوطده، تعاظم الطابع "غير المصرى" للمماليك "المصريين" وأصبحوا قوة معرقلة ومخربة للجهود التقليدية لطبقة الأعيان المصريين فى سعيها التاريخى الدءوب للمحافظة على المقومات المادية والثقافية والروحية للحضارة المصرية العربية. غير أنهم - أى المماليك، لم يتحولوا إلى قوة "تتريك" كاملة لصالح الإمبراطورية العثمانية التركية، فقد كان من صالح المماليك دائما الاحتفاظ بقدر من الاستقلال الذاتى الداخلى، ومن ثمَّ الإصرار على استمرار تسمية أنفسهم "المماليك المصريين" أو "الأمراء المصريين". غير أنه كان ذلك النوع من الاستقلال الذى يهدف إلى ضمان أنواع من الامتيازات الطبقية الضيقة التى تتم على حساب المجتمع كله، وتدفع مجموع الأمة إلى مهاوى الانحطاط.

حينذاك، اتجهت القوى البناءة لطبقة الأعيان المصريين لتتحصن فى معاقلها الأخرى غير الإدارية : التجار وأصحاب الحرف والصناعات، ورجال الدين... الذين ازدادوا عداءً للمماليك "المصريين"، كما ازدادوا عزلة عن الإدارة التى فرض المماليك أنفسهم عليها وأفسدوها.

وحين دار التاريخ دورته، وشرعت إمبراطورية العثمانيين فى الهبوط على سفح الزمن، وأغرت بها الطامعين والمتمردين - فان إرادة الاستقلال الذاتى لمصرالتقت مع طموح اثنين من أبرز الرجال "غير المصريين" فى تاريخها، حولهما التف زعماء

الأعيـان المصريـين : التجـار وأصحـاب الحـرف ورجـال الديـن. وتشـكل فى مـصر مثلـما تشـكل فى كثـير مـن البـلاد التـى وجـدت نفسـها فى مـأزق اقطاعـى أو شـبه اقطاعـى - تشـكل "ائتـلاف بـين الملـك والأعيـان" ضـد الأمـراء المتنازعـين.

أول الرجلـين هـو عـلى بـك الكبـير، فى أواخـر القـرن الثامن عـشر. كان هـو التجربة، وأداة الاسـتطلاع التاريخية.

والثـانى هـو محمـد عـلى باشـا، مؤسـس الأسرة العلويـة المالكـة، كان هـو التحقيـق التاريخـى لأول وأكـبر محاولـة لاسـتقلال مـصر فى القـرن المـاضى ليـس فقـط عـن نفـوذ الإمبراطوريـة العثمانيـة الفانيـة، وإنمـا أيضـا عـن النفـوذ الأوروبى الاسـتعمارى الحديـث، الصاعـد الزاحـف، الـذى جـاء العـالم العـربى الاسـلامى - أول مـا جـاء - مـع حملـة نابليـون بونابـرت عـلى مـصر.

الملـك العريـض الـذى أسسـه محمـد عـلى باشـا فى مـصر فى النصـف الأول مـن القـرن التاسـع عـشر كان ثمـرة لقـاء ثلاثـة ظـروف مواتيـة :

1. تخلخـل ميـزان القـوى الدوليـة فى المنطقـة، حيـث كانـت الإمبراطوريـات العثمانيـة فى تدهـور، والقوتـان الاسـتعماريتان الصاعدتـان لتلـك الفـترة، بريطانيـا وفرنسـا، كانتـا فى تنافـس ونـزاع، بحيـث لم تمكـن أحداهـما الأخـرى مـن الانفـراد بمـصر، ولا تمكنتـا معـاً مـن الاتفـاق عـلى احتلالهـا.
2. توفـر صفـات قياديـة نـادرة لراعـى مـصر وواليهـا، محمـد عـلى الكبـير، واللقـاء الموضوعـى بـين طموحاتـه العريضـة مـن جانـب، وإرادة التجديـد والبعـث الوطنى لـدى طبقـة الأعيـان المصريـين مـن جانـب آخـر.
3. النشـاط الـذى دب فى طبقـة الأعيـان المصريـين، الأمـر الـذى كاد أن يرقـى إلى مرتبـة البعـث الشـامل لطاقاتهـا وقدراتهـا الكامنـة، وخاصـة فى المجالات العسـكرية والإداريـة والثقافيـة.

وليـس صدفـة أن نلخـص عوامـل النجـاح فى ثلاثـة. فتلـك هـى العوامـل المناظـرة للـرؤوس الثلاثـة "لمثلـث القـوى" التـى تشـترك - بأنصبـة متفاوتـة ومختلفـة حسـب الظـروف - تشـترك فى صياغـة القـرار السـياسى : الإمبراطوريـات (أو الإمبراطوريـة) التـى تهيمـن (أو تتنافـس) عـلى المنطقـة، والراعـى، والأعيـان، ولكـن مـاذا عـن الرعيـة؟

الرعيـة موجـودة بالطبـع ! وحاشـا للـه أن ننكـر وجـود أغلبيـة البـشر، خاصـة وإنهـم المنتجـون الكادحـون، وتحسـين أحوالهـم هـو - فى التحليـل الأخـير - المعيـار الوحيـد لنجـاح قـوى التقـدم والخـير والإصـلاح.

ولكـن، مـن زاويـة اتخـاذ القرارالـذى يرسـم مصـير البـلاد، فـان الرعيـة فى مـصر (نـكاد نقـول دائمـا) كانـت، ومـا تـزال، قـوة كامنـة أكـثر مـن كونهـا قـوة دائمـة الحضـور والفاعليـة.

وفى ظـروف خلخلـة التوازنـات الاجتماعيـة والسياسـية، وحتـى تدعـو الـضرورة فـان الأعيـان (كلهـم أو بعضهـم) يعمـدون إلى رفـع عقوبتهـم ببعـض آمـال الرعيـة، ويصوغـون بعـض المطالـب التـى تعـبر عـن احتياجـات الفقـراء والمضطهديـن والمسـتضعفين وحقوقهـم الغائبـة.. ثـم يعمـدون (أى الأعيـان) إلى الإثـارة والتحريـض، حيـث يخاطبـون أساسـا - الجانـب الوجـدانى للجماهـير..

وقد يندفعون إلى حد قيادة التمردات والعصيانات - وربما الثورات - العنيفة.

غـير أن تعبئـة الطاقـات الكامنـة للرعيـة، كـما أن تفجـير هـذه الطاقـات.. ثـم اسـتثمارها، سـواء وهـى فى حالـة كمـون او وهـى فى حالـه الانفجـار.. ثـم إخـماد الانفجـار وتهدئـة الجـو، وترويـض الرعيـة لقبـول التوازنـات السياسـية والاجتماعيـة الجديـدة.. كل هـذا يظـل دائمـاً مـن المهـمات الأساسـية التـى تنهـض بهـا طبقـة الأعيـان المصريـين - وهـى الـرأس الثالـث فى مثلـث قـوى السـلطة السياسـية فى مـصر.

فى هـذا الـرأس توجـد قيـادات ثـورتى القاهـرة ضـد الحملـة الفرنسـية، هـى نفسـها القيـادات التـى سـاندت محمـد عـلى باشـا ليصعـد إلى سـدة الحكـم عـام 1805، وعـلى رأسـها نقيـب التجـار السـيد عمـر مكـرم، كذلـك يوجـد الضبـاط الوطنيـون الذيـن تصـدوا للمطالبـة بالحيـاة الدسـتورية ولمقاومـة التسـلل الأجنبـى، ثـم قيـادة الثـورة والحـرب الوطنيـة ضـد الغـزو البريطـانى وعملائـه فى 1881 - 1882. وبعـد الاحتـلال، بـرز دور قيـادات وطنيـة جديـدة للأعيـان وأشـهرهم فى أوائـل هـذا القـرن مصطفـى كامـل باشـا.. ثـم قـادوا الثـورة الوطنيـة فى أعقـاب الحـرب العالميـة الأولى، عـام 1919، تحـت زعامـة سـعد زغلـول باشـا.

إذا عدنا إلى محمد على وعصره نقول : إن النهاية المتواضعة التى انتهت إليها محاولته التاريخية الفذة تعود، أيضا، إلى عوامل ثلاثة تتناظر مع الرؤوس الثلاثة لمثلث قوى السلطة السياسية :

الأول عالمى. فمنذ هزيمة نابليون وانعقاد مؤتمر فيينا (1815) أقرت القيادات المحافظة للإمبراطوريات والممالك الأوربية الخطوط الأساسية لوفاق دولى استمر أكثر من نصف قرن، حتى بروز بسمارك على رأس الدولة الألمانية الموحدة فى أواخر ستينيات القرن الماضى. صحيح أن ذلك الوفاق عنى بترتيب الأوضاع الأوربية، بمحاولة إيقاف المد الثورى الذى أعقب الثورة الفرنسية والحروب النابولونية، ولم يتعرض للخلافات حول السباق على المستعمرات - ولكن الوفاق اتاح للدول الكبرى المعنية، بعد مرور بعض الوقت، فرصة للاتفاق على مواقف موحدة تجاه بعض المشكلات الأساسية فيما وراء الحدود الأوربية، ومن بينها - وربما أهمها - الاتفاق على وضع حد لقوة محمد على المتعاظمة التى كانت تهدد بملء الفراغ الحادث نتيجة الضعف المطرد للإمبراطورية العثمانية، وتبشر بمولد دولة كبرى حديثة تحل محل "رجل أوروبا المريض" فى هذه المنطقة الحساسة من العالم، وتحول دون تحقيق أطماع الذئاب الأوروبية الاستعمارية الصاعدة فى اقتسام الإمبراطورية. وهكذا، حين كانت جيوش محمد على على مسيرة أسابيع من القسطنطينية، وبات سقوطها محققا، تشكل التحالف العسكرى الأوروبى الوحيد من نوعه فى القرن التاسع عشر، الذى حاربت فيه قوات الدول الست العظمى فى ذلك الوقت مجتمعه (بريطانيا - فرنسا - روسيا -- بروسيا - النمسا - تركيا) لضرب القوة العسكرية المصرية الصاعدة، وفرض شروط التسليم على محمد على فى معاهدة لندن (1840)، واهمهما تحجيم القوة العسكرية المصرية إلى حوالى عشر ما كانت قد وصلت اليه، وما ترتب على ذلك من تحطيم الصناعة المصرية القوية الناهضة.. وحصر محمد على فى حدود مملكته المصرية، وفرض نوع من التبعية الشكلية لتركيا تتخذ ستاراً لتسلل النفوذ الاستعمارى الأوروبى الحديث، ذلك أنه فرض على مصر أن تقبل ما قبلته تركيا من منح امتيازات لرعايا الدول الأوربية وتحطيم احتكار الدولة للصناعة والتجارة وملكية الأرض.. أى فرض وضع "يمهد لدخول الشركات والبنوك الأوربية، وسيطرتها على الاقتصاد المصرى" الأمر الذى تم فعلا فى عهد سعيد واسماعيل.

ولـكى نتصـور قـوة الدولـة المصريـة حينـذاك، وخاصـة قوة جيشـها، وحجـم المؤامرة الأوربيـة لتحطيمهـا عسـكريا، مـا علينـا إلا أن نتذكـر أن التحالـف الـدولى الـذى تشـكل ضـد محمـد عـلى كان أكـبر بكثـير مـن التحالـف الـذى هـزم جيـوش نابليـون فى ووترلو، وصفـىّ إمبراطوريتـه الأوربية.

وقـد كان قبـول حـكام اسـطنبول، وهـم حملـة لـواء الخلافـه الإسـلامية، التحالـف مـع أوروبـا ضـد محمـد عـلى، كان مـن نـوع تلـك المآسى الكـبرى، الكثـيرة الحـدوث فى التاريـخ، التـى تقـوم فيهـا طبقـة حاكمـة محليـة متدهـورة بـدور هـدام كمخلـب قـط فى ايـدى قـوى أجنبيـة اسـتعمارية، عـلى حسـاب رعاياهـا وحلفائهـا وأبنـاء عمومتهـا الطبيعيـين... دون أن تعـى أنهـا تشـترك بذلـك فى حفـر قبرهـا بأيديهـا وتعجـل بنهايتهـا التعيسـة.

والعامل الثانى يتعلق بمحمد على نفسه.

فمحمـد عـلى لم يكتمـل وعيـه بقـدره المـصرى إلا متأخـراً جـدا... ربمـا بعـد اتفـاق الـدول الكـبرى عـلى إحبـاط مشروعـة الاصـلى وهزيمتـه عـام 1840، بعـد أن كان العمـر السـياسى والعسـكرى لمحمـد عـلى قـد انتهـى أو كاد.

ذلـك أن المـشروع الأصـلى لمحمـد عـلى لم يكـن تأسـيس ملـك لـه ولأسرتـه فى القاهـرة، وإنمـا كان اتخـاذ ولايـة مـصر قاعـدة انطـلاق يقفـز منهـا إلى عـرش السـلطنة العثمانيـة فى اسـطنبول، فلـم يكـن الرجـل إلا جنديـاً مـن جنـود السـلطان، وضـع قدراتـه العسـكرية وكفاءاتـه القياديـة والمـوارد الماديـة والبشريـة لولايتـه فى خدمـة السـلطان ولترميـم أركان السـلطنة المتداعيـة، وإذ رأى الرجـل أن ترميـم الأطـراف لا يجـدى طالمـا ظـل القلـب مغلقـا والـرأس خاويـاً، كـما رأى فى نفسـه قـدرات أعظـم مـن قـدرات سـيده، فـان ذهنـه اتجـه إلى القبـض بشـخصه عـلى مصائـر الإمبراطوريـة، وهـذا طبيعـى، وكثـير الحـدوث فى التاريـخ، ولـو آن أوروبـا أمهلتـه لمـا كان ثمـة شـك فى نجاحـه.. (ومـاذا تفيـد "لـو" ؟)

ولـو كان محمـد عـلى مـصرى المولـد، عـربى اللسـان والثقافـة، لوظفـت الطاقـات المصريـة الهائلـة التـى أطلقتهـا توظيفـا أوفـق، يتسـق مـع قـدره المـصرى.

ففـى حـروب محمـد عـلى وسياسـاته فى المنطقـة لم يـدرك الرجـل أن العـالم العـربى هـو عمقـة الاسـتراتيجى الطبيعـى، وليـس هـو الأناضـول والبلقـان... ومـن ثـم ظـل

الرجل لمدة طويلة أداة اضطهاد قومى ضد كثير من العرب، ولعل إبراهيم باشا، ابن محمد على وقائده العسكرى، كان أكثر وعيا بهذا العمق العربى، وقد عبر عن ذلك فى أقواله وبعض مواقفه فى سنواته الأخيرة، غير أن العمر لم يمتد به، فمات قبل موت والده.

وقد ظلت الأصول التركية للأسرة المالكة وحاشيتها، بالإضافة إلى دور جيش محمد على فى المنطقة العربية... ثم تأثيرات أوروبا الحضارية ودسائسها الاستعمارية، ظل كل هذا حاجزا وجدانيا ونفسيا، وعائقا حضاريا وسياسيا يعيق أحياء الإحساس بالقدر العربى لمصر، ويعيق بعث وتلاحم حركة التوحيد العربى حوالى قرن من الزمان... إلى وقت جمال عبد الناصر - الوقت الذى وصل فيه مصرى، بعد أكثر من ألفين من السنين، إلى مركز راعى الكنانة، وتمصرت فيه - أو هكذا يدل ظاهر الأمور - مؤسسة القصر.. فتهيأ ظرف فريد لإطلاق المخزون الوجدانى والنفسى لأهل المنطقة الراغبين فى العيش معا، فى لحظة تجاوب مع الضروريات والممكنات السياسية... (ولكنها - للأسف - لم تكن سوى لحظة !).

المثل الآخر، لعدم وعى محمد على بقدره المصرى وعمقه الاستراتيجى العربى نستمده من داخل مصر. فبينما القدرات البشرية الأساسية التى بنت قوته العسكرية وجهازه الإدارى كانت مصرية، فان المناصب العليا فى القصر والإدارة والجيش ظلت فى أيدى عناصر تركية وألبانية وشركسية.

ولكن، هل كان من الممكن، وبعد انسحاب وكمون استمر حوالى ألفين من السنين، أن تنتقل القيادات العسكرية، خاصة المصرية، من حالة الغياب التام إلى وضع الصدارة فى الجيش والدولة ؟

بالطبع لا.

كان لابد من ظرف تاريخى انتقالى وقيادة تاريخية انتقالية تهيئ لعودة العسكرية المصرية إلى ساحة القتال أولا، ثم إلى مراكز الصدارة فى الجيش والدولة بعد ذلك.

والظرف المواتى له شق سياسى، هو إعادة تنظيم الدولة المصرية الحديثة، ذات الدرجة العالية من الاستقلال - وهذا ما تم إنجازه فى عصر محمد على، وله شق مهنى، يتعلق بالانقلاب الذى حدث فى العلوم والفنون العسكرية. فبعد

انكسار فرسان المماليك أمام جيش نابليون، تبين لكل من يعنيه الأمر أن التفوق العسكرى قد خرج من أيدى الفرسان. لقد انتهى احتكار الشعوب الرعوية الجبلية للتفوق العسكرى وأصبح ذلك التفوق يستند إلى الصناعة الحربية الحديثة والقدرة على أستخدام الاسلحة التى تنتجها، ولم تعد القيادة العسكرية نتاج الرضاعة من حليب الخيل والنوم تحت شعر الخيام وأنما أصبحت علوما وفنونا ومهنا حديثة تدرس فى الآكاديميات ولا يصلح لاعدادها الا ادارة عصرية فى مجتمع متقدم.

.. واذن فقد آن الأوان ليتقدم المصريون.

وليس صدفة أن وجد الباشا فى تنشئة وتدريب وتكوين العسكرية المصرية - وجد من الفائدة والرضا مالم يجده فى محاولاته ترويض الشركس أو أستخدام السودانيين.

وهكذا عاد الجناح العسكرى للأعيان المصريين للظهور فى مجتمع الأعيان وارتقى درجات المناصب العسكريه من تحت السلاح إلى المراتب الصغيرة والمتوسطة فى الجيش والدولة دون كبير عناء.. ولكن أن تصل القيادات الخالصة المصرية إلى مراكز الصدارة وأن يتاح لها الفرصة لاطلاق الطاقات الكامنة للأمة لامتلاك المصير وتحرير الآرادة.. فتلك قصة نضال القيادات العسكرية المصرية الوطنية الذى برز على رأسها أحمد عرابى باشا منذ قرن رائداً وملهما للعسكريين الوطنيين من بعده.. ونحن نعيش اليوم الفصل المعاصر من الملحمة العسيرة، الفصل الذى بدأه جمال عبدالناصر فى 23 يوليو 1952 حين وصل قائد عسكرى مصرى إلى مكانة راعى الكنانة، إلى مركز القيادة فى القصر والجيش والدولة.. ومن بعده خلفاؤه.

والعامل الثالث فى تحجيم محاولة محمد على هو القصور التاريخى لطبقة الأعيان المصريين قصورها عن النهوض بدور يضاهى الدور الذى قامت به (الطبقة الثالثة) فى تاريخ الثورات الآوربية التى من طراز الثورة الفرنسية (1789).

صحيح أن النشاط كان قد دب فيها منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر على نحو كاد أن يرقى إلى بعث شامل لطاقاتها - غير أن عوامل الضعف التاريخية كانت أقوى من أن تعالج فى عجالة من الزمن.

كان الأعيـان المصريـون أولا يفتقـدون إلى جنـاح عسـكرى منـذ قـرون ولـن يعـود هـذا الجناح إلى البروز والفاعليـة إلا بعـد ذلـك بحـوالى نصـف قرن عـلى أيـام العرابيين.

وكان جناحهـم الادارى قـد تضعضـع ودب فيـه الفسـاد بسـبب الوصايـه والتخريب المملـوكى الـتركى العثمانى.

وكانـت الامبراطوريـة العثمانيـة قـد سـلبت مـصر خيرة صناعهـا وفنييهـا وحرفييهـا فى أوائـل عهـد الاحتـلال العثـمانى ولم تتخـل عـن اسـتنزاف القـدرات الصناعيـة والفنيـة المصريـة كسياسـة ثابتـة.. فضعـف أيضـا الجنـاح الفنـى التقنـى لطبقـة الأعيـان المصريـين.

كذلـك فقـد الأعيـان المصريون بعـد بناء اسـطنبول كعاصمـة حضاريـة للأمبراطورية العثمانيـة فقـدوا ميـزة طالمـا تمتعـوا بهـا عـلى الغـزاة ميـزة التفـوق الحضـارى، والقـدرة عـلى هضـم الغـزاة المحاربين.

واذ فسـدت الادارة وسـاءت أحـوال الـرى وانخفـض الانتـاج الزراعـى وتدهـورت الفنـون والصناعـات - وتدهـورت أيضـا حـال التجـارة.

وربمـا كانـت المؤسسـة الدينيـة، دون سـائر مؤسسـات الصفـوة المصريـة، أقـل المؤسسـات تأثـراً بجـو التدهـور العـام فى العـصر الـتركى المملـوكى.

فرجـال الديـن المصريـون لم يزاحمهـم الأتـراك المحتلـون ولا المماليـك المفسـدون، فالديـن الاسـلامى وثيـق الارتبـاط باللغـة العربيـة، والأتـراك والمماليـك بعيـدون عنهـا متعالـون عليهـا، وكان نظـام الدراسـة والأسـتاذية فى الأزهـر، وكـذا نظـام الأوقـاف يكفـلان قـدرا كبـيرا مـن الاسـتقلالية لكبـار مشـايخ الأزهـر والقضـاة ورجـال الديـن فى أمورهـم المعيشـية، بـل إن كثـيرا مـن مثقفـى ذلـك الزمـان وفقهائـه كانـوا مـن التجـار يكسـبون عيشـهم مـن حـر مالهـم، وينشـغلون بأمـور الديـن والعلـم لوجـه اللـه وعبـاده ويهبـون بعضـا مـن فائـض أموالهـم عـلى الأسـاتذة والمريديـن، ويقفـون بعـض ممتلكاتهـم للإنفـاق عـلى دور العبـادة والمعرفـة.

... وفى ذلـك الزمـان كان رجـل الديـن هـو رجـل العلـم والثقافـة والقضـاء كان ذا شـخصية وقيمـة عامـة متكاملـة. فلـم يكـن قـد حـدث التخصـص والفصـل بـين الديـن والعلـم والثقافـة والقانـون والأعـلام... ومـن ثـم كان شـعور رجـل الديـن بالمسـئولية العامـة أكـثر تكامـلا، يـد عمـه شـعور العامـة نحـوه بالاجـلال والاحـترام.

طبيعى أن المؤسسة الدينية لم تسلم من الفساد التركى المملوكى المستشرى، فقد استمر دائما فريق كبير من رجال الدين والفقه والشريعة والقضاء والإفتاء - كما يحدث فى كل العصور - يوظفون لخدمة السلطة المهيمنة، سواء فى مصر أو على امتداد الإمبراطورية التى كانت توفدهم فى بعثات ومهمات لدعم نفوذها، باعتبار أن السلطان التركى هو نفسه خليفة المسلمين... كذلك تدهور حال اللغة العربية ومكانتها بعد أن جرى تتريك أهم الأعمال والمكاتبات والسجلات الرسمية الإدارية، كل هذا صحيح، ولكن، على الرغم من ذلك فان رجال الدين ظلموا من أكثر رجال الصفوة (الأعيان) قدرة على التعبير عن إرادة استمرار الهوية الوطنية والمقومات الحضارية فى مواجهة الاضطهاد القومى، وعلى الرغم من الفساد والإفساد والانحطاط الحضارى المخيم.

وهكذا، حين جاءت محاولة على بك الكبير، ثم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون، فالغزوة الإنجليزية الأولى بقيادة فريزر... ثم التحول الأكبر بتثبيت محمد على وإعادة بناء الجيش والدولة.. كان الفريق الأهم من رجال الدين، وخبرة التجار وأصحاب الحرف والصناعات ومشايخها، كانوا فى الصفوف الأمامية لحركات التمرد على الاحتلال التركى والفساد المملوكى، وفى النضال الوطنى ضد حملات الفرنسيين والانجليز، ودعامة الحركة التى قادها محمد على للتجديد والبناء والاستقلال.

واستوعب الأعيان المصريون كثيرا من الدروس (خلال عشرات قليلة من السنين) تعلموا فى مدرستهم الداخلية - مصر - فى معارك الإصلاح الداخلى، وفى ملاحم المقاومة المسلحة ضد الغزاة الأوربيين، وفى المناوشات العنيفة مع الشراكسة والأرناؤوط والمماليك، وفى التحالفات مع الوالى الجديد والصراع معه فى نفس الوقت، كذلك تعلموا فى مدرسة السياسة الخارجية، أخذوا يستعيدون الوعى بحقائق الصراعات الدولية والقوى الإمبراطورية التى تتنازع المنطقة وأقطارها، وشهدوا - بعيون لم تستيقظ تماما - هبوط وصعود أمبراطوريات مشتبكة فى صراعات حامية هم مدعوون أن يكونوا طرفا فيها، واحتكوا بأقوى وأحدث القوى العسكرية لذلك العصر، بجيش نابليون وأسطول نلسون وحملة فريزر.. ثم، بعد أن شرع محمد على يجند من شبابهم ضباطا وفنيين وإداريين ويرسل منهم بعثات إلى أوروبا، تفتحت عيونهم - فى باريس نفسها - على معالم الحضارة

الأوروبيـة، تلـك الحضـارة الصناعيـة الصاعـدة، وهـى فى لحظـات تفتحهـا وتفاؤلهـا ونموهـا الطليـق.

..وأهـم مـن كل ذلـك، أخـذت طبقـة الأعيـان المصريين تسـتعيد مواقعهـا فى الإدارة، وأخـذ يتشـكل جناحهـا العسـكرى الـذى افتقدتـه منـذ عهود سـحيقة.

وكـما ارتـاح الباشـا محمـد عـلى إلى الكفـاءات المصريـة فى الجيـش والإدارة، وفى الفنـون والصناعـات والمهـن، وجـدت طبقـة الأعيـان نفسـها فى المهـمات الجديـدة فالطبيعـة المصريـة، وكفـاءات مـصر، وليـدة الحضـارة الزراعيـة الأحاديـة النهـر، لا تزدهـر إلا فى ظـل حكـم مركـزى قـوى، وانضبـاط ادارى محكـم، يمسـك بخيوطـه راع قـوى القبضـة مسـتقيم الطبـاع، واضـح المقصـد، حسـن التدبـير، هـذه الطبقـة وتلـك الكفـاءات اقـدر عـلى تلبيـة ضرورات العـصر والتجـاوب مـع صاحـب الأمـر فى البـلاد. وهـى، بالتأكيـد، أوفـق مـن الطبائـع الخشـنة الجامحـة لأبنـاء تلـك السـلالات التركيـة وشـبه التركيـة، المتخلفـة مـن عهـد سـيادة الفرسـان عـلى ميادـين القتـال وهيمنتهـم عـلى شـئون الحكـم والسـلطة، التـى كانـت تسـتمد كثـيرا مـن مـبررات وجودهـا مـن الارتبـاط بإمبراطوريـة أفـل نجمهـا.

وهكـذا، عـلى الرغـم مـن أن الـوالى كان ألبـانى المولـد، تـركى الـولاء، غـير عـربى اللسـان... وعـلى الرغـم مـن أن القيـادات العسـكرية والإداريـة لدولتـه ظلـت فى أيـدى باشـاوات وبكـوات مـن ذلـك الخليـط الـتركى الشركـسى الألبـانى، إلا أن ضرورات بنـاء الدولـة فتحـت آفاقـا واسـعة أمـام الأعيـان المصريـين.

وإذ اختـار الـوالى الطريـق الحكومـى للتنميـة، إذاً استمرت ملكيـة الأرض فى أيـدى الدولـة، واحتكـرت الحكومـة الصناعـات والفنـون والمهـن الأساسـية ومعظـم التجـارة، تضـاءل الـدور النسـبى للتجـارة وأصحـاب المهـن والحـرف. وهكـذا، حـين وسـع الباشـا دائـرة نفـوذه وأحكـم قبضتـه عـلى الاقتصـاد، كان ذلـك عـلى حسـاب الأجنحـة "الحـرة" لطبقـة الأعيـان، خاصـة التجـار، وذلـك عـلى الرغـم مـن أن التجـار هـم الذيـن قـادوا حركـة الأعيـان التـى رجحـت كفـة محمـد عـلى فى الـصراع بـين باشـاوات الأتـراك عـلى ولايـة مـصر بعـد جـلاء الحملـة الفرنسـية.

تـرى، هـل كان يتصـور السـيد عمـر مكـرم، وقـت أن كان يقـود الأعيـان عـلى رأس الحركـة الشـعبية التـى نصبـت محمـد عـلى واليـا عـلى مـصر - هـل كان يتصـور أن نهايتـه سـتكون النفـى والأبعـاد عـن الحيـاة العامـة عـلى ايـدى هـذا الـوالى نفسـه ؟!

إن مـن رحمـة اللـه بعبـاده أنهـم لا يعلمـون الغيـب... وان البـشر الضعيـف أمـام الغيـب والقـدر، لا يـدرك مـا يسـتطيع اداركـه مـن مفارقـات التاريـخ وقسـوته إلا بعـد أن يصير التاريـخ تاريخـا...

ومـن قسـوة التاريـخ أيضـا أن طبقـة الأعيـان، فى جملتهـا، لم تشـغل نفسـها كثـيرا حـين ضاقـت فـرص النمـو أمـام رأس المـال الخـاص (إذا اسـتخدمنا شـيئا مـن لغـة عصرنـا)، ولا عناهـا كـوارث أمـر الزعيـم عمـر مكـرم ونهايتـه المأسـاوية... ليـس فقـط لأن قبضـة الباشـا كانـت قويـة باطشـة - فهـذا وحـده لا يكفـى - وإنمـا، وهـذا هـو الأهـم، لأن الطبقـة فى جملتهـا كانـت أكـثر مـا تكـون انشـغالا بالصعـود فى سـلم الوظائـف الإداريـة والفنيـة والعسـكرية التـى خلفتهـا الدولـة، كـما كانـت مبهـورة بالعـالم الواسـع الـذى تفتـح أمامهـا فى العهـد الجديـد.

وهكـذا، بينـما عمـر مكـرم يـذوى فى منفـاه، يرمـز مصـيره إلى تضعضـع الجنـاح التجـارى لطبقـة الأعيـان، كان رفاعـة الطهطـاوى يعـبر فى كتاباتـه عـن تفتـح شـهية الأجنحـة الصاعـدة للطبقـة عـلى الفـرص الجديـدة، والانبهـار بالحضـارة الأوربيـة التـى شرعـت تتبـين معالمهـا وتتلمـذ عليهـا.

فى هـذا المنـاخ نمـا جنـين الثـورة العرابيـة... نشـأ وترعـرع رجـال مـن طـراز أحمـد عـرابى وعـلى مبـارك وعبـد اللـه النديـم ومحمـد عبـده... قـادة عسـكريون واداريـون، ومثقفـون ومصلحـون دينيـون، مصريـون مـن أصـلاب مصريـين، يتطلعـون لأن تصبـح "الطبقـة الثالثـة" المصريـة هـى كل شـئ، بعـد أن قـدرت أن نصيبهـا - بالقيـاس إلى دورهـا وصلاحياتهـا وطموحهـا - يـكاد أن يكـون لا شـئ.

والحـق أن السـيد عمـر مكـرم كان سـابقا لعـصره، فقـد عـبر الرجـل، بموقفـه مـن محمـد عـلى، عـن طـور جديـد فى حركـة الأعيـان المصريـين، طـور شـبيه - مـن بعـض الوجـوه - بمـا شـهدته "الطبقـة الثالثـة" فى بعـض المراحـل التـى مهـدت للثـورة البورجوازيـة :

معـروف أن التحالـف بـين التجـار والملـك، ضـد الاقطـاع المحـلى المتنـازع الضيـق الأفـق، كان مرحلـة مبكـرة فى حركـة التوحيـد القومـى فى أوروبـا. ولكـن، مـا أن يتحقـق النـصر للملـك ويتـم توحيـد البلـد وتقـوم أسـس الدولـة المركزيـة حتـى ينفـض التحالـف القديـم، ويتواجـه حلفـاء الأمـس فى سلسـلة المعـارك التـى أفضـت إلى الثـورة

البورجوازيـة، معـروف ان الحكـم الدسـتورى وفصـل السـلطات كان الشـعار الـذى رفعتـه الطبقـة الثالثـة فتلـك المعـارك.

هـذا هـو أهـم وجـه للشبه بـين مـا حـدث فى أوروبـا ومـا كان بسـبيله للحـدوث فى مـصر بعـد أن اسـتتب الأمـر لمحمـد عـلى وبـدأ يتشـكل جنـين الحركـة الدسـتورية لطبقـة الأعيـان المصريـين، تلـك الحركـة التـى بلغـت ذروتهـا الأولى فى لحظـات الانتصـار القصيرة للحركـة العرابيـة.

أمـا أوجـه الخـلاف بـين مـا حـدث فى مـصر وبـين النـماذج الأوربيـة فهـى كثـيرة فاقـت - بـلا شـك - أوجـه الشـبه، وحكمـت مسـار التطـور فى بلادنـا الـذى اختلـف اختلافـا نوعيـا عـن التطـور فى أوروبـا، وأوجـه الخـلاف نابعـة - طبعـا - مـن الخصوصية المصريـة : مـن الأصـول التركيـة الألبانيـة الشركسـية للقـصر والحاشـية، ومـن الضغـوط الخارجيـة الاسـتعمارية التـى أصبحـت - بعـد هزيمـة العرابيـين - القـوة الحاكمـة فى البـلاد، ومـن الضعـف - النسـبى - لطبقـة الأعيـان المصريـين فى مواجهـة تحالـف القـصر والانجليـز، ومـن غيـاب حليـف شـعبى (بروليتـارى وفلاحـى) ذى وزن قـادر عـلى ترجيـح كفـة الأعيـان فى الـصراع ضـد القـصر والامبراطوريـة. وخلـف كل هـذه الخصوصيـات السياسـية الاجتماعيـة، ثمـة خصوصيتهـا الحضاريـة، تلـك الخصوصيـة التـى يمكـن تلخيـص إشـكاليتها فى سـؤال لعلـه لم يطـرح مـن قبـل - هـو : إلى أى حـد كان النمـوذج الحضـارى الغـرب أوروبى معـبرا عـن حاجـات طبيعـة وضروريـة لمجمـوع السـكان فى بلادنـا، ومـن ثـمّ قـادر عـلى تفجـير طاقـات معنويـة وماديـة كامنة تسـتطيع التعلـم مـن الغـرب عـلى نحـو يمكنهـا مـن الصمـود وشـق طريـق مسـتقل ؟.

... ...

واذ نحـن فى معـرض الحديـث عـن الثـورة العرابيـة، فاننـا نراهـا مناسـبة لنـورد مفهومنـا لكلمـة "ثـورة"، وهـى كلمـة حديثـة نسـبيا فى الأدبيـات السياسـية العربيـة، مأخـوذة ومترجمـة عـن الأدبيـات السياسـية الأوربيـة، ومـن ثـمَّ فـان التعريفـات المطروحـة للثـورة - إن وجـدت - مأخـوذة عـن الفكـر الأوروبى الحديـث، ولما كانـت الماركسـية هـى أنشـط المـدارس الفكريـة تحليـلا وتنظـيرا لتاريخنـا، فـان التعريـف الماركسى للثـورة هـو أشـهر تلـك التعريفـات وأكثرهـا تـداولا فى الكتابـات والمسـاجلات الفكريـة، وفى هـذا الصـدد، يعتـبر لنـين هـو المرجـع والسـلطة الفكريـة التـى لا تعلـو عليهـا سـلطة أخـرى، وقـد قـال لنـين (مـا معنـاه) : إن المسـألة السياسـية فى أيـه ثـورة

هـى مسـألة سـلطة الدولـة، فى أيـدى أيـة طبقـة أو طبقـات توجـد هـذه السـلطة، وفى أيـدى أيـة طبقـة او طبقـات تنتقـل - (أو يجـب أن تنتقـل) هـذه السـلطة.

وبهـذا المقيـاس لا يمكـن اعتبـار أن ثـورة قـد حدثـت فى مجتمـع معـين إلا إذا حـدث انتقـال لسـلطة الدولـة، الا إذا سـقطت سـلطة الدولـة، إلا إذا سـقطت سـلطة طبقـة أو طبقـات قديمـة لتحـل محلهـا سـلطة طبقـة أو طبقـات جديـدة.

ولمـا كان الاتجـاه الأسـاسي للفكـر السـياسى التقدمـى فى مـصر قـد تبنـى هـذا التعريـف، وتبنـى أيضـا تحليـل الواقـع الاجتماعـى مسـتخدما نفـس المفـردات، والمصطلحـات التـى اسـتخدمها الفكـر الماركـسي الغـربي، مـن بورجوازيـة إلى إقطـاع وكـولاك، إلى بورجوازيـة صغـيرة وبروليتاريـا صناعيـة وأخـرى زراعيـة... الـخ.. وحـاول ان يجـد فى الواقـع العيـانى المـصرى والعـربى مدلـولات ماديـة محليـة لتلـك المقـولات النظريـة الأوربيـة..

ولمـا كان الواقـع الاجتماعـى والتاريخـى والحضـارى فى بلادنـا يختلـف اختلافـا نوعيـا عـن نظـيره فى المجتمعـات الأوروبيـة التـى أفـرزت الفكـر الماركـسى ومقولاتـه ومصطلحاتـه..

... لـكل ذلـك كان مـن المسـتحيل أن يصـل الماركسـيون المحليـون (ناهينـا عـن الأجانـب) إلى تحليـل مقنـع، سـواء لمـا تقـدم مـن ثـورات فى تاريـخ مـصر الحديـث (الثـورة العرابيـة وثـورة 1919) او لمـا اسـتجد فى العقـود الأخـيرة، ونعنـى ثـورة 23 يوليـو، أو أن يتوصلـوا إلى رؤيـة واضحـة لمسـتقبل "الثـورة" فى مـصر.

لم يصـل التقدميـون إلى تحليـل يقنـع جمهـورا واسـعا يجعـل منهـم حركـة فكريـة وسياسـية ذات قاعـدة شـعبية عريضـة، ولا إلى تحليـل يقنعـون بـه حتـى أنفسـهم، بمعنـى أن الخلافـات الفكريـة والنظريـة التـى احتدمـت فى صفوفهـم حـول هـذا الموضـوع، كـما حـول سـائر الموضوعـات، تجـاوزت الحـصر، كل فصيـل مـن فصائلهـم، التـى ربمـا تجـاوزت المائـة عـدا، كان لهـا فى موضـوع الثـورة رأى مختلـف. وكل فصيـل غـير رأيـه فى الموضـوع أكـثر مـن مـرة، وبعضهـا أكـثر مـن عـشر مـرات. ووجـدت دائمـا آراء وفتـاوى نظريـة فى مقولـة الثـورة تتغـير بتغـير الظـروف السياسـية ومـا تمليـه مـن منـاورات وتكتيـكات.. بـل إن الـرأى فى الموضـوع فى داخـل كل فصيـل كان يتغـير مـع التغـيرات فى قيـادة التنظيـم، أو مـع تغـير علاقـة التنظيـم بتنظيـم آخـر أو تنظيـمات أخـرى، أو مـع تغـير علاقـة التنظيـمات فى جملتهـا مـع النظـام الحاكـم.. الـخ.. كذلـك لم

يكتسب واحد من التحليلات والتنظيرات حول الموضوع، صلاحية عملية، بمعنى أن الواقع العيانى لم تتطور أحداثه على نحو يثبت مصداقية واحد من تلك التحليلات بحيث يمكن أن يكتسب ذلك التحليل تفوقا خاصا فيعتبر وجهة النظر الغالبة والمعبرة عن حصيلة الفكر السياسى التقدمى المحلى.

من جانبنا، سنحاول تلمس تعريفنا للثورة، كما عرفت فى التاريخ المصرى الحديث، من منطلق أن لعبة السلطة فى بلادنا، منذ الاسكندر المقدونى،ظلت محصورة فى أيدى ما أسميناه مثلث السلطة : الامبراطورية والقصر والأعيان.

فى الظروف العادية، التى لاهى ثوريةولاهى مضادة للثورة، تكون علاقات القوى بين رؤوس مثلث السلطة متوازنة، وتسير شئون الحكم على نحو هادئ يغلب عليه الاستقرار. يقوم كل طرف من أطراف المثلث بدوره فى ادرة شئون البلاد ويظفر بنصيبه من الفائض الاقتصادى ومكانته فى الهرم الاجتماعى، ويجرى كل ذلك وفقا لنوع من الإنفاق، الصريح أو الضمنى، بين الأطراف الثلاثة. وفى تلك الظروف تكون الرعية بعيدة عن المسرح السياسى وأضوائه، لا حضور لها فى لعبة الحكم والسلطة، ملهية بتحصيل رزقها. وفى آخر النهار تحمد الله على ما وهبه اياها من قوت اليوم، والستر.

غير أن التوازن بين أطراف رؤوس مثلث السلطة هو نوع من التوازن المتحرك فالاطراف الثلاثة قوى متغيرة ومتحركة، ومن ثم، فان توزيع الأدوار والأعمال، وكذا الأنصبة والمغانم، معرض للاحتلال الدائم، بحكم الحركة والنمو غير المتكافئ للأطراف الثلاثة. لذلك، فان فى كل وضع قائم ومستقر، طالما أن عوامل القوة والاستمرار تتفوق على عوامل الضعف والاضمحلال، توجد هوامش أمن ومؤسسات حكم تسمح بالمراجعة الدائمة لعملية توزيع الأدوار والأنصبة، فى إطار الخطوط العريضة لعلاقات القوى، وأخذا فى الاعتبار للتغيرات المستمرة التى تطرأ عليها، طالما هذه التغيرات لا تمس الأساسيات، وعلى نحو لا يخل بجو الاستقرار السائد.

ولكن، يحدث أحيانا أن تتغير علاقات القوى على نحو يستحيل على الأطراف المعنية علاج الموقف مع الاحتفاظ، فى نفس الوقت، بأسس الوضع القائم، هنا يصبح التغير اختلالا فى ميزان القوى، كما يتطور الموقف إلى أزمة حكم.

وقد يعمد أحد أطراف مثلث السلطة إلى حل الأزمة منفردا، أو بالتحالف مع طرف آخر ضد الطرف الثالث، وذلك باستخدام أجهزة السلطة الموجودة تحت التصرف (وفى مقدمتها القوات المسلحة... وربما المجلس النيابى أو أجهزة الأعلام...) وذلك هو الانقلاب.. وقد يفضى الانقلاب إلى توزيع جديد للأدوار والأنصبه على نحو يكون أكثر تعبيرا عن التوازنات الواقعية للقوى التى كانت قد اختلت، وذلك هو الانقلاب الناجح، ولكن، قد لا تفضى المحاولة الا إلى مزيد من التناقض بين الأساس الاقتصادى الاجتماعى الحضارى والبناء السلطوى، وعندئذ يكون الانقلاب فاشلا، ويغرى بمزيد من الانقلابات...

وفى مثل تلك الأزمات، وفى جو الانقلابات المحتملة والانقلابات الفاشلة، فان أخبار الأزمة وتداعياتها كثيرا ما تصل إلى الرعية.. إلى الشعب. والرعية دائما قوة قابلة للانفجار.

فى ظروف الاستقرار، تكون هذه القوة كامنة. ولكن، فى ظروف الأزمات والانقلابات الفاشلة تظهر هذه القوة وتتجلى فى أفعال وتحركات، يغلب عليها العفوية والعنف والانقلاب الوجدانى الجمعى، لتحدى السلطة القائمة وتلك هى حالة "المخاض الثورى".

وقد تكون الأزمة بين رؤوس مثلث السلطة غير عميقة إلى درجة حرجة، بحيث لا يضطر أحد أطراف المثلث إلى الاستعانة بالقوة الانفجارية للشعب.. أو قد يقبل طرف أو آخر من أطراف المثلث تقديم تنازل عن جزء من دوره او نصيبه.. عندئذ يمكن ان ينجح المثلث السلطوى فى التحكم فى الموقف وإعادة الاستقرار، وان يكن مع تعديل ثانوى فى توزيع الأدوار والأنصبة... وربما مع تقديم بعض "المكاسب" أو التنازلات للجماهير التى بدأت تتحرك، للمساعدة على إعادتها للهدوء والسكينة... وعندئذ تتبدد "الفورة" أو "الانتفاضة" الشعبية، ويجرى احتواء ثورية الجماهير.

ولكن، ربما تكون الأزمة عميقة إلى حد لا يمكن التحكم فيها بشكل سلمى تماما، أو إلى درجة يستحيل فيها استمرار الوضع القائم.. أو، قد تكون "الانتفاضة" الشعبية كبيرة إلى درجة تفوق التوقع (بسبب فقدان الرعية القوت الضرورى والأمن اليومى)... عندئذ يمكن أن يندفع طرف أو أكثر من أطراف مثلث السلطة، ويغامر باستخدام المخزون الانفجارى للشعب، حين يرى أن ذلك هو

الطريـق الوحيـد لتحقيـق تعديـل لصالحـه، وكـذا لتقديـم أكـبر مـا يمكـن مـن المكاسـب والتنـازلات للرعيـة... وتلـك هـى الثـورة.

وطبيعــى أن الأعيــان هــم أسرع أركان مثلــث الســلطة السياســية إلى اســتثمار المخـزون الانفجـارى للشـعب، أى هـم أقـرب القـوى السـلطوية إلى الثـورة... غـير أن هـذا لا يعنـى اسـتبعاد احتـمال انضـمام القـوى الأخـرى إلى الثـورة. قـد يحـدث أن ينضـم القـصر فى تحالـف مـع الأعيـان ضـد الإمبراطوريـة. بـل وفى حالـة حـدوث تنافـس أكـثر مـن إمبراطوريـة عـلى بلـد معـين قـد يحـدث أن تلقـى إحـدى القـوى الإمبراطورية بثقلهـا فى جانـب الثـورة فى البلـد المعنـى للنيـل مـن قـوة النفـوذ الامبراطـورى المتوطـن كهـدف أدنى، وطمعـا فى أن تحـل محلـه إذا واتتهـا الفرصـة.

وغنــى عــن الذكــر أننــا حــين تقــول أن الأعيــان يمكــن أن ينضمــوا للمخــزون الانفجـارى للرعيـة فتقـوم ثـورة، فإننـا لا نفـترض أن ينضـم الأعيـان جميعـا، إلى آخـر رجـل فيهـم، وإنمـا نعنـى غالبيتهـم، أو قواهـم الأساسـية. وفى السياسـة العمليـة هنـاك دائمـا شرائـح اجتماعيـة ثانويـة وتكتـلات أو شـلل، وحتـى أفـراد ذوو نفـوذ خـاص، يجـب أخـذ دوافعهـم ومصالحهـم ومواقفهـم فى الحسـبان، وعـدم إغفـال الخصوصيـات الجزئيـة مـن اجـل فهـم التطـورات والانعطافات فى حركـة الثـورة، وفى الحركة السياسـية عمومـا.. كذلـك حـين نتحـدث عـن احتـمال انحيـاز القـصر للثـورة، فـان ذلـك لا يعنـى أن يتخــذ القــصر موقفــا بنفــس الاتســاق والجديــة والإصرار الــذى تتخــذه القــوى الثوريـه الأخـرى.. وكـذا الأمـر بالنسـبة للاحتياطـى المحتمـل للثـورة فى القـوى العالميـة المتنافسـة، أو حتـى فيـما يسـمى - فى بعـض الظـروف - القـوى العالميـة المحبـة للحرية المؤيـدة للشـعوب.

هكـذا يمكـن تعريـف الثـورة فى بلادنـا، كـما عرفناهـا فى القرنـين الأخيريـن، بأنهـا "حالـة سياسـية اجتماعيـة سـمتها الأساسـية وقـوع أزمـة حـادة بـين الـرؤوس الثلاثـة لمثلـث قـوى السـلطة، الإمبراطوريـة والقـصر والأعيـان، وينضـم فيهـا طـرف أو أكـثر مـن أطـراف مثلـث السـلطة، ولتحقيـق شـئ مـن المطالـب الدائمـة للرعيـة فى مزيـد مـن الأمـن اليومـى والقـوت الـضرورى"

هـذا هـو تعريفنـا للثـورة، اسـتوحيناه مـن الواقـع التاريخـى العيـانى لبلادنـا، وفيـه حاولنـا أن تكـون الكلـمات عـلى قـدر الواقـع، عـلى خـلاف التقاليـد المريضـة المزمنـة

للفكر السياسى الذى ساد فى بلادنا فى أوساط المنظرين المتأثرين بالغرب، الذين لم يملوا من محاولة حشر الواقع المصرى فى كلمات مفصلة على واقع أوروبى.

وبهذا التعريف تكون كلمة ثورة معبرة بالفعل السياسى فى مصر بين عامى 1879، 1882 (الثورة العرابية)، وفى السنوات الثلاث التى أعقبت 9 مارس 1919 (ثورة 19)، كما يمكن أن تحسم المناقشات حول ما حدث فى مصر عام 1952. وعلى ضوء هذا التعريف، يمكن أن تكون الكلمة معبرة عن الواقع السياسى فى مصر فى الفترة بين بدء مقاومة المصريين لحملة نابليون (1799) واعتلاء محمد على عرش مصر (1805). كذلك يمكن أن نكشف بعض محاولات تزييف التاريخ التى أطلقت كلمة ثورة على بعض الانقلابات، مثل انقلاب 15 مايو 1971.

ويتضمن تحليلنا السابق لتداعيات الأزمة والعملية الثورية، ثم التعريف المترتب عليه، يتضمن تعريفا "للثورة المضادة"، وقواها، وتداعياتها، كذلك يتضمن معايير نجاح ثورة ما، وفشل أخرى، وأسباب ذلك، وحدود النجاح أو الفشل...

على ضوء هذا التحليل والتعريف يمكن إلقاء مزيد من الضوء على أسباب فشل الثورة العربية، والنجاح النسبى لثورتى 19، 52، خاصة فى مراحلهما الأولى، ثم تعثر كل من الثورتين فيما بعد.. ولنأخذ - كمثال - حال القوى الإمبراطورية (أى الأوضاع الدولية)، وأثرها على مسار الثورات الثلاث.

فى سنوات مخاض الثورة العرابية، فى سبعينات القرن الماضى، كانت علاقات القوى بين اطراف مثلث السلطة تختل فعلا، وتزداد اختلالا عاما بعد عام - غير أن ذلك الخلل كان فى صالح القوى الامبراطورية وليس فى صالح الأعيان، ومن ثمَّ كانت القوى الثورية، وحلفاؤها الثابتون والمؤقتون، يسبحون من البداية ضد التيار.. اما فى أعقاب كل من الحربين العالميتين الأولى والثانية، فقد كان خط الامبراطورية البريطانية فى هبوط، وكان الخلل فى علاقات القوى - نسبيا - فى صالح الأعيان فى أعقاب الحرب الأولى، وعلى مقياس أكبر فى أعقاب الثانية.. وكان الوضع الدولى عاملا هاما من عوامل نجاح ثورة 23 يوليو، حيث كان صعود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على أنقاض ألمانيا النازية واليابان الإمبراطورية، ثم على حساب كل من بريطانيا وفرنسا - كان ذلك احتياطيا أساسيا للثورة. غير ان بروز الولايات المتحدة كالقوة الإمبريالية الأولى عالميا، واستراتيجيتها للسيطرة على

المنطقـة العربيـة، والتقـاء تلـك الاسـتراتيجية مـع صعـود القـوة العسـكرية لإمبرياليـة محليـة تابعـة ذات أطـماع غـير محـدودة (إسرائيـل) كان عامـلا أساسـيا فى تعـثر مسـار "الثـورة" ثـم هزيمـة النظـام النـاصرى فى 1967.

نفـس الأفـكار يمكـن أن تنطبـق عـلى عـصر محمـد عـلى، فى سـنوات صعـوده ثـم هبوطـه، فى السـنوات الأولى كان التنافـس الامبراطـورى (تركيـا وفرنسـا وبريطانيـا) عامـلا مسـاعدا أساسـيا فى نجاحـه، ثـم كان الوفـاق الأوربى (1815) عامـلا أساسـيا سـاعد عـلى هزيمـة عـام 1840 وتحجيـم محاولـة محمـد عـلى، وفيـما بعـد، كان الخـط الصاعـد للإمبرياليـات الأوروبيـة عمومـا، والبريطانيـة خاصـة، عامـلا أساسـيا فى عرقلـة صعـود قـوى الثـورة، ثـم فى هزيمـة العرابيـين.. إلـخ..

والآن، لنعـد إلى متابعـة الخطـوط العامـة للاسـتطراد التاريخـى لـكى نـرى مـاذا حـدث فى السياسـة.؟

... ...

كان سـعيد باشـا واسـماعيل باشـا، اللـذان يمكـن اعتبـار فـترة حكمهـما مرحلـة واحـدة، هـى مرحلـة تسـلل النفـوذ الاسـتعمارى الغـرب أوروبى، الـذى مهـد للاحتـلال البريطـانى - كانـا أكـثر وعيـا بقدرهـما المـصرى مـن محمـد عـلى، وان كانـا أقـل حـذرا مـن خطـر الاسـتعمار الأوروبى.

وعـاد التوسـع الامبراطـورى يحتـل مكانـا هامـا فى مشروعـات إسـماعيل، فى أوائـل عهـد حكمـه. ولكنـه توسـع لحسـاب مملكتـه المصريـة، لا فى اطـار الامبراطوريـة العثمانيـة التـى سـعى جـده - عبثـا - للقبـض عـلى مصائرهـا وتجديـد شـبابها. واذ رأى الخديـوى (وهـو اللقـب الملـكى الـذى اشـتراه إسـماعيل مـن السـلطان الـتركى) أن التكالـب الأوروبى عـلى ممتلـكات الدولـة العثمانيـة عائقـا فى سـبيل توسـعه، فانـه اتجه نحـو عمقـه الافريقـى، فى جنـوب السـودان وبعـض شـواطئ البحـر الأحمـر الجنوبيـة، حيـث كانـت هـذه المناطـق تعتـبر، فى القامـوس الاسـتعمارى لذلـك العـصر، أراض بـلا صاحـب.. كذلـك اشـتركت القـوات المسـلحة المصريـة فى بعـض المغامـرات العسـكرية فيـما وراء البحـار، مثـل حملـة مكسـميليان عـلى المكسـيك (1856) التـى كان يهـدف منهـا إسـماعيل إلى دعـم العلاقـات "بأصدقائـه" الفرنسـيين...

ومـا يهمنـا بصفـة خاصـة، حـين نشـير إلى ذلـك التوسـع وتلـك المغامـرات، هـو بيـان أن العسـكرية المصريـة عـادت إلى الانتعـاش والنمـو، بعـد النكسـة التـى أصابتهـا بهزيمـة 1840. ولدعـم موقفـه "القانـونى"، اشـترى الخديـو مـن السـلطان الـتركى حـق زيـادة عـدد القـوات المسـلحة، وإعـادة بنـاء بعـض الصناعـات الحربيـة، مراجعـا بذلـك اتفاقيـة لنـدن. غـير أن الانتعـاش كان متعـثرا قصـير العمـر، فـلا الاقتصـاد ولا الإدارة المصريـة لاحقـا ضرورات التطـور، بحيـث يمكـن أن يسـتند اليهـما بنـاء قـوة عسـكرية عصريـة، وخلـف هـذا القصـور، واهم أسـبابه، التسـلل الاسـتعمارى والمؤمرات المسـتمرة "للأصدقـاء" الأوروبيـين، الذيـن تفتحـت عيونهـم عـلى خطـر العسـكرية المصريـة منـذ عهـد محمـد عـلى، وعقـدوا العـزم - ليـس فقـط عـلى تحجيمهـا - وإنمـا عـلى تحطيمهـا تمامـا.

ولم يعـد الخديـو عـلى ولاء حضـارى لاسـطنبول، ومـن قبـل، لم يعـد شئ يجذبـه، هـو ورجـال القـصر، فى أسـلوب حيـاة الأعيـان المصريـين، الذيـن لم يكونـوا وفى نظرهـم إلا "فلاحـين". وإنمـا بهرتهـم واسـتولت عـلى أحلامهـم تلـك الحضـارة الأوربيـة الناهضة، بتفوقهـا الصناعـى وسـطوتها العسـكرية، أضـواء عواصمهـا الجديـدة، وبهـرج بلاطاتهـا الحاكمـة، وبريـق عروضهـا واسـتعراضاتها وملاهيهـا...

لقـد انتهـت عهـود التفـوق الحضـارى لعواصـم الممالـك والإمبراطوريـات الزراعيـة، وبـدأت حقبـة التفـوق الحضـارى للغـرب الصناعـى.

ولخـص الخديـو حلـم حياتـه فى عبـارة واحـدة : أن يجعـل مـن مـصر قطعـة مـن أوروبـا... ذلـك الحلـم الـذى خيـل اليـه أنـه بسـبيله إلى التحقيـق أيـام دعـا "فـردى" لافتتـاح دار الأوبـرا فى القاهـرة، وحـين راقـص الإمبراطـورة أوجينـى، زوجـة نابليـون الثالـث، فى حفـلات افتتـاح قنـاة السـويس (1869)... ومـا كان يخطـر ببـال الخديـو المفتـون أن ذلـك الحلـم، مـع اختـلال التقديـر والتدبـير وفقـدان الحـذر سـينتهى بخزانتـه إلى الاسـتدانة والافـلاس، وسـينتهى بـه شـخصيا إلى آن يقـضى سـنواته الأخـيرة فى ايطاليـا، مخلوعـا منفيـا محطـما.. كل ذلـك عـلى أيـدى اولئـك الأوربيـين الذيـن تصورهـم قدوتـه ومصـدر الهامـه، وأسـلمهم بيديـه مصـيره ومصـير دولتـه.

كان القـصر هـو الموقـع الضعيـف فى جبهتـى القـوى المتصارعـة حينـذاك، من خلاله كان المسـتعمرون يتسـللون ويضغطـون، وينتقلـون مـن الاسـتيلاء عـلى المواقـع الحاكمة للاقتصـاد إلى المواقـع الحاكمـة لـلإدارة، ثـم إلى التدخـل السـياسى السـافر يفرضـون عـلى

الخديـوى إقالـة وزارات وتنصيـب أخـرى، ويضعـون وزيـرا إنجليزيـا وآخـر فرنسـيا فى قلـب الحكومـة "المصريـة"، ويسـتخدمون كل مـا تصـل اليـه أيديهـم مـن نفـوذ فى القـصر والحكومـة مخالـب قطـط للتصـدى للضبـاط الوطنيـين برئاسـة أحمـد عـرابى. ومـن جانبهـم، كان الأعيـان المصريـون، بزعامـة الجنـاح العسـكرى، يضغطـون عـلى القـصر، ويتوسـعون فى مطالبهـم الدسـتورية، ويطالبـون بمؤسسـات ديمقراطيـة منتخبـة يكـون لهـم فيهـا الكلمـة العليـا، يسـتطيعون بهـا الوقـوف فى وجـه المتدخلـين الأوربيين، ويحـدون مـن طغيـان رجـال الحاشـية التركيـة الشركسـية، وينازعونهـم السـيطرة عـلى الجيـش والإدارة، وفى هـذا تصاعـدت الحركـة السياسـية للشـارع المـصرى فى العاصمـة، والمصطبـة المصريـة فى الريـف، بلغـة عصرنـا، جـرى تعبئـة القـوى الشـعبية التـى اسـتند اليهـا العرابيـون فى ثورتهـم عـلى القـصر والاسـتعمار.

فى تلـك اللحظـات مـن الاضطـراب وعـدم الاسـتقرار واختـلال التوازنـات السياسـية والاجتماعيـة، حـدث انقسـام فى داخـل القـصر نفسـه، حيـث كان الخديـو إسـماعيل شـخصيا هـو نقطـة الخلـل والضعـف المركزيـة، ومهـما قيـل عـن ضعـف الخديـوى أمـام بريـق الحضـارة الأوربيـة وغفلتـه عـن مخاطـر التسـلل الاسـتعمارى وميلـه للأخـذ بمظاهـر الفخفخـة والأبهـة التـى جـرت عـلى مـصر كثـيرا مـن الويـلات، الا أن الرجـل - فى أواخـر فـترة حكمـة - تنبـه إلى المأسـاة التـى كان يسـاق إليهـا، يمكـن ارجـاع بعـض تراجعاتـه أمـام الحركـة الوطنيـة الدسـتورية العرابيـة، ليـس فقـط إلى قـوة هـذه الحركـة، وانمـا أيضـا لشـئ مـن الرغبـة فى موازنـة الهجمـة الاسـتعمارية الكاسـحة التـى شـعر بأنهـا لـن تبقـى عليـه هـو نفسـه، طالمـا بقيـت فيـه شـبهة ارادة أن يظـل ملـكا وسـيدا فى بـلاه... واذ كان المـد الاسـتعمارى فى عنفوانـه، فـان المتدخلـين البريطانيـين والفرنسـيين لم يقبلـوا بأقـل مـن التخلـص مـن ذلـك الخديـو، لضـمان كسـب القـصر تمامـا فى جانبهـم. وفى المواجهـة التـى كان لابـد أن تحـدث بـين إسـماعيل والمتدخلـين الانجليـز خاصـة، وجـد الخديـو نفسـه معـزولا منبـوذا، ليـس فقـط مـن جانـب القـوى الوطنيـة الدسـتورية، وانمـا فى داخـل قـصره نفسـه حيـث تخلـت عنـه غالبيـة القيـادات التركيـة الشركسـية، التـى خيـل إليهـا أن المسـتعمرين سـيضمنون لهـا الـدوام والأمـان.

وبعـزل إسـماعيل، (1879)، بـدأ العـد التنـازلى للحظـة المواجهـة بـين قـوى الثـورة التـى كانـت الظـروف أقـوى منهـا، والقـوى الاسـتعمارية الزاحفـة، التـى رأت أن الأوضاع قـد نضجـت للانتقـال إلى المرحلـة الأخـيرة مـن مراحـل التدخـل، الا وهـى الاحتـلال

العسكرى (1882)، وفيه استخدم الإنجليز كل ماهو معروف من أساليب التآمر والتهجم والخداع والوحشية المألوفة فى الصفحات المظلمة لتاريخ الامبراطورية.

... ...

بعد أن فشلت حملة نابليون على مصر فى مستهل القرن التاسع عشر قيل للغازى الفرنسى : الآن، ستقفز بريطانيا لتحتل مصر وتنفرد بها. فرد الاستعمارى الخبير : ان مصر أهم من إن تنفرد بها دولة عظمى واحدة.

والحق أن ما قاله نابليون يعد من المأثورات النادرة القادرة على التنبؤ باتجاهات تاريخية كبيرة. فقد أثبت تاريخ التكالب الاستعمارى على مصر والمنطقة عموما، صحة هذا الرأى، فعلى الرغم من أن جيوش بريطانيا هى التى احتلت مصر فى الفترة من 1882 إلى 1956، الا أن بريطانيا لم تنفرد بمصر على النحو الذى انفردت - مثلا - ببلد كبير كالهند، أو كما أنفردت فرنسا ببلاد المغرب العربى.

لقد جاء الاحتلال البريطانى دون أن يلغى (لأسباب تتعلق بالتوازنات الدولية) تبعية مصر الشكلية للباب العالى، ومع التسليم بالنفوذ الدينى للخلافة الإسلامية التركية، كذلك جاء الاحتلال على نفوذ قديم ومتوطن للأتراك والشركس فى القصر الذى أسسه محمد على، وعلى نفوذ اقتصادى استعمارى فر نسى يكاد يضارع النفوذ البريطانى، وعلى نفوذ ثقافى حضارى فرنسى بين رجال القصر والأعيان يفوق نظيره الانجليزى بكثير، كذلك كان نظام الامتيازات الأجنبية يكفل أوضاعا ممتازة لرعايا الدول الأوربية، ومن ثم كانت الجاليات الأجنبية المتكاثرة العدد بمثابة جيوب لأشكال من النفوذ الأجنبى المتنوع لا يستهان بوزنه ويصعب التغاضى تماما عن تمايزه.

لذلك، فان الاحتلال البريطانى لمصر عام 1882، وإن جعل اليد العليا فى حكمها للمستعمرين الإنجليز، الا أنهم كانوا بعيدين عن الانفراد بشئونها دون بقية المتدخلين الأجانب، وفى مقدمتهم الفرنسيون، كذلك كان ثمة فريق نصف أجنبى قوى النفوذ من المناوئين المحليين بين رجال القصر والحاشية.

ولعلاج تلك الحال - لصالح بريطانيا - رأينا اللورد كرومر، علاوة على تركيز السلطة التنفيذي والإدارة المالية فى يديه مستندا إلى جيش الاحتلال،

رأينـاه يعمـد إلى لعبـة نـادرة الحـدوث، ألا وهـى الاتجـاه إلى تقويـة شرائـح معينـة مـن طبقـة الأعيـان المصريـين عـلى حسـاب البقايـا التركيـة الشركسـية، حـدث ذلـك بتوزيـع مسـاحات شاسـعة مـن الأراضى الزراعيـة التـى كانـت فى حـوزة القـصر وكثـير مـن رجـال الحاشـية التركيـة، توزيعهـا عـلى عـدد مـن كبـار الأعيـان المصريـين، مـن أقطـاب العائـلات والعصبيـات فى جميـع مديريـات الوجـه البحـرى والوجـه القبـلى، وربـط مصالـح الجميـع بمصالـح بريطانيـا بتنظيـم دورة زراعـة القطـن (وغـيره مـن الحاصـلات التجاريـة) وتمويـل المحصـول وتسـويقه بحيـث تصبـح كل الخيـوط بيـد عـدد مـن البنـوك وشركات التصديـر البريطانيـة، مسـتندة إلى شـبكة مـن تجـار الداخـل يسـيطر عليهـا الإنجليـز ويتـولى الأعـمال الثانويـة فيهـا خليـط مـن اليهـود واليونانيـين والمالطيـين وغيرهـم مـن المزيـج الأجنبـى المتمتـع بالامتيـازات (ليضمـن ولاءهـم) بالإضافـة إلى عـدد متزايـد مـن الوسـطاء وصغـار تجـار الداخـل المصريين،ولكسـب مزيـد مـن ولاء الأعيـان المصريـين الذيـن أدمجـوا فى عجلـة التبعيـة الاقتصاديـة، فانـه شرع فى جلنـزة التعليـم وتوجيهـه لتخريـج موظفـين لخدمـة الإدارة الاسـتعمارية (لا لتخريـج رجـال علـم وصناعـة وحـرب وغيرهـا مـن المهـن الخطـرة)، عـلاوة عـلى توجيـه البعثـات العلميـة الخارجيـة إلى لنـدن عوضـا عـن باريـس.

هكـذا، بعـد أن خنـق الاحتـلال البريطـانى الحركـة الدسـتورية للأعيـان المصريـين وكـسر جناحهـم العسـكرى، حـاول كرومـر التخفيـف مـن نكبتهـم وكسـب ولاء أجنحـة قويـة النفـوذ فيهـم، وذلـك بفتـح فـرص الـثراء أمامهـم بالاشـتغال فى الأعـمال الزراعيـة وبعـض النشـاط التجـارى، وبتصعيـد عـدد متزايـد مـن أقطابهـم إلى المناصـب الإداريـة والحكوميـة الهامـة، وحقنهـم بجرعـات مـن اللغـة والثقافـة الإنجليزيـة، ولم يكـن صدفـة ان كان أقـوى أحـزاب الأعيـان لتلـك الفـترة، ونعنـى "حـزب الأمـة" الـذى كان سـعد زغلـول ولطفـى السـيد مـن أبـرز قادتـه، كان حزبـا مواليـا للانجليـز، هـذا، بينـما تعاطفـت البقايـا التركيـة، عـلى رأسـها الخديـو عبـاس حلمـى الثـانى، مـع الاتجـاه المنـاوئ للإنجليـز بزعامـة مصطفـى كامـل (الحـزب الوطنى).وقـد ضـم هـذا الاتجـاه الأخـير عـددا مـن الزعامـات الدينيـة المحافظـة المواليـة للخلافـة العثمانيـة، بينـما مـال الاتجـاه الدينـى الاصلاحـى، وعـلى رأسـه الشـيخ محمـد عبـده، إلى الاتجـاه الأول، الموالى للإنجليـز.

هكذا، بعد أن استقر الأمر لبريطانيا فى مصر، تمكن رجلها القوى، اللورد كرومر، من أن يصبح حاكما مطلقا على البلاد، وحقق نوعا من الاستقرار الاستعمارى والتوازن المحكم الحساب بين أطراف مثلث السلطة، ولم يبخل كرومر على التاريخ بتسجيل خبرته كتابة فى مؤلفه "مصر الحديثة". وهو كتاب يدل عنوانه على مقاصد الكاتب الذى ادعى، باختصار، أن الاحتلال البريطانى خلق مصر الحديثة، أو بتعبير آخر حقق الرسالة الحضارية للغرب الأوروبى فى بلد شرقى متخلف، كان خاضعا للسيطرة العثمانية عالميا، يستند به الترك والشركس داخليا، ويستأثرون - دون أهله - بخيراته، يعيقون الصفوة المصرية عن الصعود فى مراتب الثراء وسلم الادارة، ويسومون فقراءه سوء العذاب، ويشيعون فيه الظلم والفوضى وسوء الادارة، بكل ما ترتبت على ذلك من اختلال الأمن واضطراب الاعمال ووقف الحال فى ذلك البلد الهام على الرقعة الدولية.

هكذا...

والحق أن اللورد لم يعدم أن يجد من المصريين من يصدقه، بل أن سلوك ومواقف الفريق الأكثر قوة فى الصفوة المصرية، أى فى طبقة الأعيان، دلت على انها كانت "كرومرية" - أن صح التعبير- ومرة أخر نذكر بحزب الأمة وكتابات الصفوة المصرية من امثال أحمد لطفى السيد، بل ان الشيخ محمد عبده نفسه، فى آخر أيامه، أصبح واحدا من المادحين الشاكرين المشيدين بانجازات اللورد وأفضاله، ولم يكن صدفة ان وافق اللورد، فى أواخر حكمه، على تنصيب الشيخ الامام فى وظيفة مفتى الديار المصرية.

لم يشذ عن اجماع الصفوة الا فريق الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ثم محمد فريد، واذا كان مؤرخو الأعيان (أو مادرج البعض على تسميتهم المؤرخين البورجوازيين) قد أبرزوا ذلك الحزب وأعطوه وزنا أكثر من حقيقته، فان ذلك لم يحدث إلا بعد ان غيرت غالبية طبقة الأعيان موقفها من الاستعمار البريطانى، بعد أن دخلت الامبراطورية العجوز مرحلة أفولها النهائى فى أوقات نذر الحرب العالمية الثانية وأثناءها وما بعدها، حين أصبح تركيز الأضواء على مواقف فريق الأعيان المناهضين للإنجليز فى الماضى يخدم نضالهم الراهن. كذلك لم يحدث التركيز على مواقف الحزب الوطنى وإبرازها إلا بفضل كتاب ينتمون إلى ذلك الحزب، مثل عبد الرحمن الرافعى بك؛ أما مؤرخو الوفد، إن كان له مؤرخون فانهم آثروا

السكوت عن ابراز دور ذلك الحزب، بل ان بعضهم، لدواعي الصراع الحزبي، كان يعرض بموقف الحزب الوطني حتى في تلك الفترة، ملمحين إلى التشجيع التركي الفرنسي لذلك الحزب، واحتضان قصر الخديو عباس حلمي لأقطابه في مستهل نشاطه، غير أن مؤرخي الوفد لم يقدموا أي تفسير لوجود رجل مثل سعد زغلول، وغيره من أقطاب الوفد فيما بعد، بين رجال حزب الأمة الممالئ للإنجليز.. ولماذا تغيرت مواقفهم من الإنجليز فيما بعد، وكيف، والى أي حد... ؟!الخ..

والحق أن غالبية الأعيان المصريين، بعد أن نالت منهم الهزيمة واستبد بهم اليأس بانكسار جناحهم العسكري العرابي، كانت لهم أسبابهم في الاقتناع بكرومر، والقبول بالدور الذي رسمه لهم تحت المظلة الاستعمارية.

في تلك الفترة كانت الرياح تهب في صالح الامبراطورية البريطانية، دلت بريطانيا على أنها القوة الدولية الكبرى القادرة على فرض نفسها كالامبراطورية صاحبة الكلمة الأولى في المنطقة، ومن ثمَّ، القادرة على إعفاء القطر المصري من هزات النزاعات والمنافسات الدولية، أي القادرة على ضمان نوع من الاستقرار على الرقعة العالمية، واقتصاديا، أكمل النظام المالي الذي وضعه كرومر ادماج "القطاع الحديث" للاقتصاد المصري في الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وجعل طبقة الأعيان شريكا هاما في هذا القطاع، حيث خلق - كما سبق ان أشرنا - طبقة من كبار الملاك المصريين يشتغلون بزراعة القطن وغيره من الحاصلات التجارية، ويرتبطون في مجموعهم بالمصالح الاقتصادية التي تهيمن عليها البنوك والشركات البريطانية، كذلك توسع كرومر في مشروعات الري، ومحاولات رفع الانتاجية الزراعية، وعمل على الحد من بعض مظاهر التسلط شبه الاقطاعي في الريف (حيث كانت البقايا التركية الشركسية هي المستفيد الأول منها)، ودعم شبكة الطرق والسكك الحديدية.... كذلك نشط كرومر، عن طريق التعليم والبعثات، في الاحتواء الحضاري الثقافي للصفوة التي ادمجها في الادارة والاقتصاد الاستعماريين، وجعل الأذواق الانجليزية والنمط الحياتي للطبقة المتوسطة الانجليزية هو النموذج الذي يصبو إلى تقليده الأعيان المصريون في حياتهم الخاصة.

ولكن الأمور يستحيل أن تستمر على حالها...

تسببت أحداث دنشواي (1906) في هز الصورة الزاهية التي حاول كرومر أن يرسمها لحكم الاحتلال البريطاني في عيون الرأي العام الليبرالي المناوئ لبريطانيا في

الغرب، كما فى عيون أقسام واسعة من طبقة الأعيان المصريين والطبقة المتوسطة السريعة النمو، التى بدأت تتسع بدخول إعداد متزايدة فى وظائف الدولة، ونمو المدن، وانتشار التعليم "الحديث". كانت دنشواى هى الصدمة التى أفاق عليها الوعى الوطنى والروح النضالية للشعب بعد فترة انسحاب وكمون استمرت حوالى ربع قرن، منذ هزيمة الثورة العرابية.

كذلك استجد عاملان هامان ساعدا على أحياء بعض الآمال لدى الاتجاه المناوئ للإنجليز الموالى للأتراك، أولهما : الحركة الدستورية فى تركيا (تركيا الفتاة)، التى بلغت إحدى ذرواتها عام 1908، والثانى : بروز ألمانيا كقوة عظمى تتحدى النفوذ العالمى للإمبراطورية البريطانية، واتجاه هذه القوة العظمى الجديدة نحو الشرق، وسعيها للتحالف مع تركيا.

غير أن حركة الضباط الأتراك الشبان الذين حاولوا تحديث تركيا وإنهاضها سرعان ما خيبت كثيرا من الآمال، حيث أتضح أن من أهم أهداف تلك الحركة إحياء الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم ممارسة مزيد من قمع القوميات غير التركية، ومزيد من تتريك الإدارة والثقافة فى البلاد التابعة للإمبراطورية المريضة، ومن بينها - طبعا - البلاد العربية، وسرعان ما خلقت الحركة ردود فعل عكسية، فقويت الحركات الوطنية المناهضة للأتراك فى بلاد الشرق العربى التى كانت وما تزال تحت الحكم التركى، وقد صب حصيلة هذه الحركات فى اتجاهين مختلفين : تنشيط فكرة الوحدة العربية، وإن يكن على نحو جزئى وبدائى - من جانب، وأقدام بريطانيا على استثمار المشاعر المناهضة لتركيا - من جانب آخر، وهو الأمر الذى تم فعلا فى التحالف العربى البريطانى المشبوه، الذى استدرج الإنجليز اليه الشريف حسين وأبنائه فى أواخر الحرب العالمية الأولى وما بعدها.

وفى مصر، اذا تزايد الخطر الألمانى التركى، ونشطت التشكيلات السياسية والصحافة الوطنية والنوادى الثقافية للأعيان المصريين، وتجلت بعض أشكال المقاومة الشعبية التلقائية الخطيرة الدلالة (جنازة مصطفى كامل التى تحولت إلى أكبر مظاهرة سياسية شهدتها البلاد منذ الاحتلال - ومقتل بطرس غالى، رئيس الوزراء الذى حاول مد امتياز شركة قناة السويس...) وسعت بريطانيا هامش التنازلات للأعيان الموالين لها، فأفسحت مجالا أوسع أمام الموظفين المصريين للترقى فى سلم الوظائف العليا، ثم سمحت، عام 1913، بتأسيس "الجمعية التشريعية"،

(ولا مجال هنا للتزيد فى وصف قصورها وضآلة شأنها)، التى حاولت بها امتصاص تطلع الأعيان للحكم النيابى، ومما يذكر أن سعد زغلول كان يحتل أعلى منصب مصرى فى تلك الجمعية...

... ثم قامت الحرب العالمية (يونيو 1914) - فانقطع حبل التداعى الهادئ للأحداث.

النتيجة المباشرة الأولى لاندلاع الحرب هى قطع آخر خيوط التبعية الشكلية لتركيا، وإعلان مصر محمية (مستعمرة) بريطانية كاملة. وأصبح قائد قوات الاحتلال هو الحاكم العسكرى المطلق التصرف فى كل شئون البلاد وكل سكانها وثرواتها ومواشيها وأقوات العباد فيها. وما عادت "السلطة" تحتمل مشاركة محلية من أى نوع، فألغت كل نفوذ للقصر والأعيان فى لحظة، عطلت أعمال الجمعية التشريعية وأسكتت كل صوت يصدر من الأعيان مهما كان اتجاهه، معها أو عليها، وخلع الانجليز عباس حلمى من العرش، ومحافظة على بعض المظاهر، وتمهيدا لتحويل القصر من وكر تتحصن فيه بقايا النفوذ التركى إلى مركز قوة يعمل لحساب الإنجليز، نصبت "السلطة" عوضا عن الخديو المخلوع "سلطانا" من صنائعهم يسمى حسين كامل، وجعلوا مصر "سلطنة"، ولم يترك ذلك السلطان من أثر الا اسماً فى الأرشيف، ونقوشا وثقوبا فى بعض النقود المعدنية، ولم يستمر هذا السلطان إلا حوالى ثلاث سنوات كان فيها شبحا باهتا على الهامش، فلم تتم جلنزة القصر كمؤسسة نشيطة فى خدمة الاحتلال إلا فى عهد خلفه أحمد فؤاد، وهو صنيعة آخر من صنائعهم ولاه الإنجليز السلطنة بعد وفاة حسين كامل عام 1917، وبرز دوره فى خدمتهم، بصفة خاصة، بعد ان لقبه الإنجليز ملكا فى 1922 وحولوا سلطنة مصر إلى مملكة !! "ومن حكم فى ماله فما ظلم" !!

ويذهب البعض إلى أن تلك التعديات الصارخة التى ارتكبتها بريطانيا فى الحرب وأعقابها هى التى أفقدت الاحتلال كثيرا من مشروعيته (؟!) إن كانت له مشروعية، فكثيرا ما كان الأعيان يجادلون الإنجليز ويفاوضونهم بلغة الشرعية والمشروعية، ويستشهدون بالقوانين والمواثيق الدولية، وأحيانا يستنجدون بالفرمانات السلطانية...

غير أن ذلك منطق شكلى...

فالأمر الذى جعل مشروعية الاحتلال تهتز فى عيون العيان، وقوى عزيمتهم فى المواجهات التى حدثت فيما بعد، هو أن الحرب أثبتت أن أمن الإمبراطورية أصبح - فعلا - فى خطر حقيقى، وأن الإمبراطورية لم تعد قادرة على الدفاع عن مواقعها فى المنطقة بالاعتماد على قواها الخاصة، وأنها أصبحت بحاجة إلى مساعدة ودعم يتوقف بعضه على موقف هؤلاء الأعيان أنفسهم، وفى الحصيلة النهائية للحرب، شعر الأعيان أن الخط العام للإمبراطورية، على الرغم من الإنتصار على ألمانيا، لم يعد فى صعود كما كان فى القرن التاسع عشر، وإنما الخط آخذ فى الهبوط.. ومعروف ما للأعيان المصريين من قدرة خاصة على تشمم اتجاهات الرياح فى المحيط الدولى.

وتسببت الحرب أيضا فى اضعاف حركة التجارة العالمية، فنضب معين كثير من أرباح زراعة القطن وتجارته... وجرب المصريون أنفسهم فى بعض الصناعات الخفيفة التى كانت قد ضعفت بعد الاحتلال وبسببه، مثل صناعة النسيج، وتمكنوا من تعويض بعض ما افتقدته السوق المصرية من واردات بريطانية، وان يكن على نحو متواضع.. هذا، بينما رأينا السلطة العسكرية الانجليزية تتخلى عن كل ادعاء حضارى وتستخدم الوسائل الهمجية السافرة فى نهب حاصلات البلاد وثرواتها لخدمة المجهود الحربى، وتتجاوز نهب السلع والدواب إلى اختطاف الشباب والرجال وترحيلهم، بمئات الآلاف، ليموتوا فى رمال سيناء وفلسطين وهم يقومون بخدمة القوات البريطانية فى الخطوط الخلفية..

غير أن الأعيان تحملوا كل ذلك طيلة الحرب فى صبر جميل، فلم يتحرك لهم ساكن ولا ارتفع لهم صوت احتجاج، صبروا على بريطانيا وحالهم يدل على الثقة فى إنها ستفى، بعد انتهاء محنة الحرب، بوعود قطعتها على نفسها أثناء المحنة.

ولو أن رياح التاريخ كانت ما تزال تهب فى شراع الإمبراطورية، لو أنها تمكنت بعد إعلان الهدنة من تعويض ضائقة الحرب، وخففت عن الأعيان قبضة الحماية والسلطة العسكرية ومنحتهم شيئا من المشاركة فى إدارة الشئون الأساسية للبلاد.. لاغتفر لها الأعيان ما تقدم من ذنوبها أثناء الحرب، ولما قامت قائمتهم فى أعقابها.

أما وقد انتهت الحرب دون أن يحدث شئ من هذا، فقد حدثت خيبة أمل كبيرة، وخاصة وأن بريطانيا خرجت من الحرب منتصرة.

والحقيقـة أن ذلـك النـصر كان شـكليا أكـثر منـه نـصراً حقيقيـاً. ومـا كان لبريطانيـا هوامــش سياســية واقتصاديــة تســمح لهــا بالتعامــل بســخاء مــع شركاء طبيعيــين، لم يظهـروا ولم يضمـروا إلا كل تعـاون وثقتهـم.

هـذا، بينـما تمخضـت الحـرب عـن حدثـين هامـين فى السـاحة الدوليـة، وآخـر فى السـاحة العربيـة، تعلمـت منهـا الصفـوة المصريـة دروسـا هامـة.

الاول (والترتيـب ليـس حسـب الاهميـة) هـو قيـام الثـورة البلشـفية فى روسـيا، فى أكتوبـر 1917، ومـا أعقبهـا مـن دعـوة لينـين إلى اعطـاء الشـعوب المضطهـدة حقهـا فى تقريـر المصـير، لهـا بالثـورة عـلى الاسـتعمار والطغيـان، وعـرض الدولـة الثوريـة الوليـدة فى روسـيا مسـاعداتها عـلى الامـم المناضلـة مـن اجـل التحريـر.. ثـم مولـد الامميةالشـيوعية الثالثـة فى 1919. والثـانى هـو اعـلان الرئيـس الامريـكى ويلسـون مبادئـه الأربعـة، ومـن بينهـا - أيضـا - الدعـوة إلى منـح الأمـم المضطهـدة حـق تقريـر المصـير.. امـا الحـدث الثالـث فهـو قيـام "الثـورة العربيـة" بزعامـة الشريـف حسـين، وتحالفـه مـع الانجليـز ضـد الأتـراك أثنـاء الحـرب، عـلى أمـل أن يتمخـض ذلـك الحلـف عـن مولـد مملكـة عربيـة اسـلامية خليفـة لبريطانيـا تضـم الحجـاز وبـلاد الهـلال الخصيـب (العـراق وسـوريا ولبنـان وفلسـطين والأردن). الحدثـان الأولان دلالـة عـلى صعـود قـوى كـبرى جديـدة يمكـن أن تسـاند حـق الأمـم فى تقريـر مصيرهـا دون أن يكـون لهـا، كـما كان لألمانيـا، اهـداف اسـتعمارية واضحـة ومبـاشرة فى المنطقـة. صحيـح أنـه بـدرت، منـذ البدايـة، كثـير مـن الشـواهد تـدل عـلى أن تاييـد الولايـات المتحـدة لحـق الأمـم المضطهـدة فى تقريـر المصـير ليـس إلا تاييـدا شـكلياً سرعـان مـا ينقلـب إلى النقيـض عنـد وضعهـا موضـع الامتحـان، ولكـن الأعيـان كانـوا دائمـا، ومـا يزالـون، بهـم ضعـف خـاص نحـو أمريـكا مهـما حـدث منهـا. كذلـك لم يغـب عنهـم، حتـى فى ذلـك الوقـت المبكـر، أن هـذه القـوة العظمـى الصاعـدة كانـت مدفوعـة بعوامـل الحسـد والمنافسـة ضـد القـوى الاسـتعمارية القديمـة، وخاصـة بريطانيـا، الأمـر الـذى جعـل الأعيـان يمنـون أنفسـهم بالاسـتفادة مـن هـذا التناقـض. وكانـت القـوة الدوليـة الصاعـدة الأخـرى، روسـيا البلشـفية، مصـدر خطـر عـلى الامتيـازات الطبقيـة والمكانـة الاجتماعيـة للأعيـان اذا حـدث وامتـدت دعواهـا الثوريـة إلى سـاحة السياسـة الداخليـة. غـير أن هـذا الخطـر، الـذى قـدر الأعيـان أن ليـس مـن الصعـب مواجهتـه محليـا، لا يقلـل مـن وزن هـذه القـوة الجديـدة فى الضغـط عـلى الإمبراطوريـة البريطانيـة

لتحسين شروط التعامل. اما الحدث الثالث، العربي فكان دليلا على استعادة شعوب وقيادات عربية أخرى القدرة على النهوض كقوة ذات كيان واستقلال ذاتي متميزة، قادرة على فرض نفسها كحليف ذى وزن لدولة كبرى لها الغلبة في الساحة الدولية.

هكذا استجمع أقطاب الأعيان شجاعتهم واقدموا على إرسال خطابهم الشهير للمعتمد البريطاني في نوفمبر 1918، كان الخطاب مهذبا جدا ورقيقا إلى حد يصدم القارئ في أيامنا هذه، يتحدث بأسوب كله ود واقتناع عن دور دولة بريطانيا العظمى ويؤكد ضرورة الاستمرار تحت مظلتها.. وكل ما يطلبه هو ان يكون لوفد من مصر صوت مسموع في المؤتمر العالمي الذى عقد في فرساى لاقرار الأوضاع التى تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى، أسوة بالدول التى اشتركت في المجهود الحربي الذى ساعد على انتصار بريطانيا وحليفاتها.

ولكن يبدو أن الطلب كان أكثر مما تستطيع أن تتحمله بريطانيا وهى غارقة في تنظيم عالم ما بعد الحرب، وهو عالم كانت تعلم أنها لا تستطيع ان تمنح منه شيئا لأحد - حتى لو أرادت ـ وما أن عمد أقطاب الأعيان إلى تنصيب أنفسهم "وفدا" ناطقا باسم الأمة واتجهوا إلى جمع توقيعات على توكيل لهم بذلك من جمهور الشعب، حتى فاق الأمر احتمال سلطات الاحتلال فأمرت بإلقاء القبض على سعد زغلول ورفاقة، في 8 مارس 1919.

كانت الصدمة قاسية ولا شك على الأعيان وزعمائهم... غير أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن الأعيان كان يمكن أن يتحملوا الصدمة بما عرف عنهم من صبر جميل، وان يحاولوا علاج الأمور بالأساليب اللينة التى عرفوها أثناء فترة عملهم تحت المظلة البريطانية وقت أن كانت المظلة ظليلة هادئة... ولكن تلك أيام مضت ولن تعود... فلم تكن نذر نهاية الإمبراطورية عالمية فحسب وإنما انفجر أيضا البركان المحلى... انفجرت "الثورة" بعد أن نضجت كل عوامل الانفجار....انفجر الشارع المصرى وانفجرت القرى المصرية، انفجرت المدن والأرياف المصرية جميعا وكانها على موعد، اقتحمت الرعية المصرية ساحة السياسة بالطريق الوحيدة الممكنة. وكان الانفجار أكبر مما توقعه الجميع، وكان من المستحيل ايقاف الانفجار باجراء سريع أو اتفاق متعجل بين أطراف مثلث السلطة... فاستمرت "الحالة الثورية" حوالى ثلاث سنوات، من مارس 1919 إلى فبراير 1922، توزعت

أثناءها جهود الأعيان وفرقهم بين المفاوضات والمساومات للحصول على أفضل شروط تعبر عن التوزنات وعلاقات القوى الجديدة بين أطراف مثلث السلطة بحيث يكون نصيبها من الثروة والسلطة أكبر... وبين ركوب موجة العنف الشعبى المتفجر كالسلاح الأساسى فى الضغط على سلطات الاحتلال، مع محاولة تلجيم الموجة وتحجيمها لضمان تصفيتها حين يصل المتفاوضون إلى اتفاق مقبول.

منذ زلزلت الأرض تحت أقدام الاحتلال البريطانى بانفجار الثورة فى 9 مارس 1919 إلى أن خرج آخر جنود الاحتلال البريطانى مع الجيوش الفرنسية والاسرائيلية بهزيمة العدوان الثلاثى فى ديسمبر 1956 واستقر الأمر- لجمال عبد الناصر - فى هذه الفترة، ازدحم المسرح السياسى فى مصر كما لم يزدحم من قبل فى تاريخها، وربما كما لم يزدحم من بعد. ولا عجب. فالتغيرات التى طرأت على أطراف المعادلة السياسية كانت كثيرة وعنيفة ومعقدة وملاحقة على نحو نتصور أنه قل أن يكون له مثيل فى تاريخ مصر، كما فى تاريخ اى بلد من نظرائه.

منذ نذر الحرب العالمية الأولى إلى أعقاب الحرب العالمية الثالثة - تلك فترة أفول أربع إمبرياليات كبرى : بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان، وصعود القوتين العظيميين لعالم اليوم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى.

تلك فترة أزمة واحدة متصلة فى النظام العالمى الذى كان قد اقام أسسه القوتان الاستعماريتان الكبريتان فى اواخر القرن التاسع عشر : بريطانيا وفرنسا. وكانت أزمة النظام نتيجة للتطور غير المتكافئ لرأسماليات المركز الامبريالى، ولحاق قوى امبريالية جديدة بتلك القوتين، بل والتفوق عليهما اقتصاديا وعسكريا، وسعى القوى الجديدة بكل الوسائل، بما فى ذلك الالتجاء إلى القوة العسكرية، لإعادة تقسيم المستعمرات والاسواق ومناطق النفوذ، على نحو يكون أكثر تعبيراً عن العلاقات الجديدة للقوى الكبرى.

وكانت ألمانيا، فى أوائل القرن، هى القوة العظمى الصاعدة التى أقدمت على تحدى الإمبراطوريتين القديمتين، هذا التحدى الذى كان السبب الأساسى فى نشوب الحرب العالمية الأولى، ولكن، أثناء الحرب، لم تصطف القوى الجديدة.

فى مواجهة القوة القديمة، فقد وقفت الولايات المتحدة، وهى كبرى القوى الجديدة، بمنأى عن الصراع المسلح حتى المرحلة الأخيرة من الحرب، حين وجدت أن انضمامها إلى القتال فى جانب القوى القديمة التى كانت مرتبطة واياها بمصالح

اقتصادية وروابط تاريخية هو اقصر طريق لكى يكون لها صوت مسموع فى رسم خريطة عالم ما بعد الحرب ونصيب أوفى من غنائمها. وكانت القوة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية هى العامل الحاسم فى ترجيح كفة "الحلفاء".. انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا واحتفاظ بريطانيا وفرنسا بكامل مستعمراتها، بل وزادتا عليها بعضا من مستعمرات المهزومين (المانيا وتركيا والنمسا)، وأقامتا أول منظمة عالمية من نوعها (عصبة الامم)، بقصد خلق اطار مؤسسى دولى يسبغ مشروعية واستقرارا على النظام العالمى الذى ظلت بريطانيا وفرنسا تملكان فيه الكلمة العليا.

غير أن ذلك النصر كان هزيلا وشكليا، لم يمنع من استمرار اختلال التوازن الدولى، واطراد التفوق الاقتصادى والعسكرى للقوى الامبريالية الصاعدة : الولايات المتحدة وألمانيا واليابان.

وقد عبرت القوى الصاعدة، كل بطريقتها، عن عدم اقتناعها بالنظام العالمى الذى تمخضت عنه معاهدة فرساى، وكانت عصبة الامم اطارا له.

وكانت الولايات المتحدة فى مقدمة هذه القوى، حيث قاطعت عصبة الامم، ورفع رجال الدولة الأمريكيون (وأشهرهم الرئيس ويلسون) عقيرتهم ببعض الشعارات التى يوحى ظاهرها برفض النظام العالمى القائم على الاستعمار والاحتكار والتمسك بالمبادئ الليبرالية الراديكالية وأشهرها حينذاك شعار "حق الامم فى تقرير المصير، وحرية التجارة والمبادلات الدولية".. والتى لم تكن فى حقيقتها الا ستارا أيديولوجيا لتوجه امبريالى أمريكى يرمى إلى الحلول محل المستعمرين القدامى فى مستعمراتهم التى تفجرت ثوراتها فى أعقاب الحرب، وفى الأسواق العالمية التى فقد المستعمرون القدامى صلاحياتهم للمحافظة عليها، وفى الممارسة العملية، راحت الأمبريالية الأمريكية تحكم قبضتها وتدعم نفوذها فى نصف الكرة الغربى على حساب بقايا المستعمرين الأوربيين القدامى، كما راحت تطبق سياسة "الباب المفتوح" لتتغلغل فى المحيط الهادى وشرق آسيا، وخاصة الصين، حيث وجدت أن هؤلاء المستعمرين لم يعودوا هم العقبة الحقيقية التى تعترض سبيل التوسع الأمريكى، وإنما أصبحت العقبة الحقيقية هى القوة الإمبريالية الصاعدة فى آسيا حينذاك - نعنى اليابان - بالإضافة - طبعا - إلى قوى الثورة الوطنية المحلية فى كل بلد.

أما روسيا، فقد عبرت عن أكثر من مجرد عدم الاقتناع بالنظام الامبريالى العالمى اذ خرجت تماما عليه، وذلك بالثورة الاشتراكية، اكتوبر 1917، قبل انتهاء الحرب العالمية بأكثر من عام، واعلان قيام "اتحاد الجمهورية السوفيتية الاشتراكية" على أنقاض الإمبراطورية الروسية القيصرية.

كانت الرأسمالية الروسية، قبل الحرب العالمية الأولى، تدخل فى عداد القوى الإمبريالية الصاعدة. غير أن الإمبراطورية الروسية، ذلك التركيب الجغرافى السياسى المترامى الأطراف، الذى يمتد من ألمانيا إلى المحيط الهادى، ومن صحراوات آسيا المدارية وسهوبها إلى المحيط المتجمد - كانت إمبراطورية متعددة القوميات، تحتل فيه روسيا الأوروبية مركز السيادة، وتشتمل على عشرات من الأقاليم التابعة والقوميات المضطهدة. وعلى الرغم من أن الرأسمالية الروسية دخلت حلبة السباق الراسمالى العالمى متاخرة كثيرا عن نظيرتها فى الغرب، وكانت تعتبر - من بعض الوجود - تابعة للرأسمالية الإمبريالية الغرب أوروبية، الا ان مستعمراتها الداخلية، أى تلك المناطق الشاسعة والقوميات التابعة، بالإضافة إلى المعدل المرتفع لدرجة استغلال البروليتاريا الروسية بفضل الاستبداد القيصرى...

كل ذلك رفع وتائر نمو الرأسمالية الروسية التى سرعان ما تقدمت لتقف باحدى قدميها فى صف القوى الامبريالية الصاعدة... وان ظلت - على حد قول لينين - هى الحلقة الضعيفة فى النظام الامبريالى العالمى.

والمشروع الثورى الذى وضعه البلاشفة، بزعامة لينين، كان هدفه الاندفاع نحو مخرج ثورى وشامل لكل مشكلات الإمبراطورية : فى المركز الروسى المتقدم كما فى المناطق التابعة وبين قوميات الشرق المضطهدة، لمشكلات فقراء الريف فى الأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية ومشكلات أقنان الأرض والرعاة فى المناطق الآسيوية المتخلفة التى كانت ما تزال بعد فى مرحلة إقطاعية متدنية...ولأن لينين كان مفرط الوعى بالبعد العالمى لمشروعه الثورى، ولأن حزبه ذا خبرة ثورية غنية متنوعة فى سلسلة من المعارك المتلاحقة المحتدمة.. فقد اعتبر الثورة التى قادها ليست مجرد نقطة انطلاق للثورة العالمية التى بشر بها ماركس، وانما أيضا نموذجا ومثلا يحتذى فى الغرب الصناعى المتقدم كما فى الشرق المستبعد المتخلف. ووجهت الثورة البلشفية، غداة انتصارها، نداءاتها للطبقات العاملة فى بلاد الغرب الامبريالى ان تنبذ مواقف التعصب للوطنية التوسعية، وأن تكف عن القتال من

اجل تقوية مستغليها، وأن تضم صفوفها فى ثورة عالمية ضد رأسمالياتها من اجل إقامة سلطة البروليتاريا. كما وجهت الثورة نداءاتها لشعوب الشرق أن تثور ضد مستعمريها الامبرياليين، الذين هم بعينهم الخصوم الطبقيون للبروليتاريا فى الغرب الصناعى... وان يوحد هؤلاء واولئك نضالهم فى تحالف عالمى يضم البروليتاريا المتقدمة المناضلة من اجل الاشتراكية والشعوب المستعبدة المناضلة من اجل التحرر الوطنى.. ذلك النضال الذى يفضى أيضا إلى الاشتراكية.

ومن أجل انجاز هذا المشروع الكبير للثورة الاشتراكية العالمية، دعا لينين كافة الثوريين فى المركز الامبريالى وفى الأطراف المستعمرة إلى تكوين أحزابهم الشيوعية، وأسس الأممية الشيوعية، فى 1919، التى اتخذت موسكو مقرا لها، وذلك لكى تقوم بمهمة التنسيق بين الأحزاب الشيوعية فى مختلف البلاد وتقديم العون المادى والسياسى والارشاد النظرى والفكرى لمن يحتاجه من بينها...وغنى عن الذكر طبعا أن الحزب الشيوعى السوفيتى كان هو الحزب القائد فى تلك الأممية، كما كانت الدولة السوفيتية هى المصدر الأساسى، أن لم يكن الوحيد، لأشكال الدعم والمعونة التى يحظى به هذا الحزب او ذلك من احزاب تلك الأممية.

أما ألمانيا، فقد ادت عوامل عديدة إلى إرجاء إعلان تمردها على النظام العالمى الذى تمخضت عنه الحرب العالمية الأولى : أهم هذه العوامل، طبعا، هو الهزيمة وبعد ذلك فشل ثورة الطبقة العاملة الألمانية (1923)، تلك الثورة التى كان يأمل الشيوعيون الألمان أن يحولوا بها ألمانيا إلى جمهورية اشتراكية على النسق السوفيتى. هذا، علاوة على تكبيل الدولة الالمانية بنصوص معاهدة فرساى، التى فرضت عليها قيودا سياسية مرهقة وتعويضات اقتصادية باهظة.

وقد عبر الحزب الاشتراكى الوطنى (النازى)، الذى تأسس فى أعقاب الحرب بزعامة هتلر - عبر عن التمرد الألمانى على تلك الأوضاع، ليس فقط بالدعوة لرفض تنفيذ شروط صلح فرساى، وإنما أيضا برفض أسلوب الحكم الليبرالى ونظام القيم فى الديمقراطيات الغربية عموما.

وإذ فشلت محاولة انقلابية قام بها الحزب النازى للاستيلاء على السلطة عام 1926، عاد مرة أخرى يتذرع بالوسائل البرلمانية للوصول، وقد ساعدت تطورات الأحداث على تمهيد السبيل أمامه، وخاصة بعد انفجار أسوأ أزمة اقتصادية عالمية عانى منها النظام الراسمالى العالمى (1929 - 1932).

لقد ولد الحزب النازى ونما فى سنواته الأولى كحزب يعبر عن شرائح من الطبقة المتوسطة الألمانية التى أحبطتها الهزيمة، وتدهورت أحوالها بسبب الكساد والأزمة، وضاقت بفشل الأرستوقراطية الألمانية التقليدية فى فرض ألمانيا كقوة كبرى تؤهلها لها قوتها الاقتصادية والعسكرية، ولكنها كانت تضيق أكثر بدعاوى الثورة الشيوعية والأممية البروليتارية، تلك الدعاوى التى كانوا يخشون أن تؤدى إلى ضياع الهوية الوطنية الألمانية، خاصة بعد أن تزعمت روسيا البلشفية هذه الأممية.

وكان التدهور قد نال من معنويات الطبقة المتوسطة الألمانية فانتكست إلى ردة حضارية وإحباط نفسانى جماعى، وكفرت بدعاوى الحرية والإخاء والمساواة التى رفعت شعاراتها الثورات الليبرالية الأوربية، وبالفلسفات الإنسانية التى جاء بها مفكرو عصر التنوير الأوروبى - ومن ثم أصبحت مهيأة للقبول بالردة إلى شمولية القرون المظلمة، وان يكن فى أشكال محدثة، كتلك التى اخذ بها النازيون فى تنظيماتهم وتظاهراتهم واستعراضاتهم وأسلوبهم فى الحكم.

وفى السنوات الأولى للحزب النازى، كانت نظرة الأرستوقراطية الصناعية العسكرية الألمانية اليه، شأن نظرتها إلى سائر احزاب الطبقة الوسطى، نظرة تكبر واستعلاء، كما كانت تختص قادته بقدر أوفى من الاحتقار والاستصغار، ولكن، بعد ان تفاقمت الأزمة الاقتصادية، وبدأ الحزب الشيوعى الألمانى يستعيد كثيرا من حيويته بعد انتكاسة الحركة العمالية فى أعقاب الحرب، وبعد أن تصاعد صوت النازيين ضد الشيوعيين وشرعوا يلجأون إلى القتل والإرهاب المنظم لقمع الحزبين الشيوعى والاشتراكى.. فان الأرستوقراطية الألمانية بدأت تدرك أهمية الدور الذى يقوم به الحزب النازى، ومن ثم مهدت له سبيل الحصول على أغلبية فى انتخابات 1932. كانت الاغلبية هزيلة (54 %)، ولكنها كانت كافية لتوصيل هتلر إلى الحكم، الذى سرعان ما ضرب بكل المؤسسات الديمقراطية عرض الحائط، وقضى على كل خصومه السياسيين، بما فى ذلك بعض الزعامات النازية، فى سلسلة من المذابح وأعمال القمع المروعة.

ولم يضيع هتلر وقتا، حيث أعلن على الفور رفض التقيد بالمعاهدات التى تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى، وجدد التحدى الألمانى لقوى الاستعمار القديم (بريطانيا وفرنسا)، وشرع يعد العدة لحرب ثانية لتصحيح نتائج الحرب الأولى،

واذ أعاد تشغيل كثير من المصانع التى كانت قد توقفت بسبب الأزمة، وذلك من أجل بناء أداته العسكرية، فانه حظى بالتأييد الكاسح، ليس من طرف أمراء الصناعة واحتكارييها فحسب، وإنما أيضا من طرف جانب كبير من الجماهير العمالية التى كانت قد طحنتها الأزمة والبطالة.

ولا يفوتنا أن نقول كلمة عن ايطاليا موسولينى.

دخلت ايطاليا الحرب العالمية الأولى فى صف بريطانيا وفرنسا متأخرة نوعا، بعد أن رجح حكامها ان يكون النصر من حظهما، وذلك طمعا فى أخذ نصيب من مغانم المنتصرين. ولكن آمال حكام ايطاليا فى "الحلفاء" خابت بعد ان وضعت الحرب أوزارها. ثم جاءت أزمات أعقاب الحرب واضطراباتها، فسمحت الطبقة الحاكمة لموسولينى، وحزبه الفاشى وميليشياته العسكرية، أن يقفز إلى الحكم، حيث قام فى ايطاليا بنفس الدور الذى قام به - فيما بعد - هتلر فى ألمانيا. وكان موسوولينى يرى أن الحل الأساسى لمشكلات ايطاليا يكون بالتوسع الخارجى، فدعا إلى احياء الامبراطورية الرومانية فى عهد القياصرة، وجاهر بأن حوض البحر الأبيض المتوسط هو المجال الحيوى لايطاليا، واذ ظهر النازيون فى ألمانيا وجد الفاشيون الأيطاليون فيهم حلفاء طبيعيين، فالتطلعات التوسعية لكلا الفريقين تصطدم بنفس الخصوم، الأمر الذى أدى إلى تشكيل محور برلين روما فى أوروبا، وهو المحور الذى توسع ليصبح محورا عالميا بانضمام طوكيو إليه بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية.

وعلى كل حال، فان ايطاليا - رغم ادعاءات موسولينى ودعاياته - لم تكن أبدا قوة إمبريالية كبرى، على النحو الذى كانته كل من المانيا واليابان، وإنما كانت نوعا من إمبريالية تابعة (لألمانيا)، ولولا أن ايطاليا قريبة منا، واستعمرت جارتنا ليبيا منذ نذر الحرب العالمية الأولى إلى أواخر الثانية (1911 - 1943) واحتلت الحبشة والمداخل الجنوبية الأفريقية للبحر الأحمر فى أواسط الثلاثينات، لولا هذه الاعتبارات لما حظيت منا بهذا الاهتمام ونحن فى معرض الحديث عن الصراعات العالمية الكبرى التى سبقت الحرب العالمية الثانية، وأثناءها، وفى اعقابها، وكانت وثيقة الصلة بتطورات السياسة الداخلية فى بلادنا، وذات أثر مباشر فى ممارسات السياسة العملية.

فاجأت ثورة 1919 الاحتلال الانجليزى فى مصر قبل أن تفيق الامبراطورية من هموم ترتيب عالم ما بعد الحرب، والحق أن بريطانيا لم يحدث أن افاقت أبدا من تلك الهموم إلى ان داهمتها نيران الحرب العالمية الثانية بعد حوالى عشرين عاما، لم تكن فى حقيقتها الا هدنة مسلحة تخللتها سلسلة من التوترات والأزمات والخصومات والمشاحنات والاصطدامات والحروب المحدودة، فضلا عن الثورات والثورات المضادة والانقلابات والاضطرابات الداخلية فى غالبية البلاد ذات الشان فى كل أركان العالم. ذلك أن معاهدة فرساى وعصبة الأمم، وكلتاهما من صنع التحالف البريطانى الفرنسى، قامتا على افتراض عودة الإمبرياليين القدامى إلى سابق قوتهم، مع التجاهل الأعمى لحقيقة اطراد التغير فى الميزان الدولى لصالح القوى الإمبريالية الجديدة، وتعاظم قوى الثورة على النظام العالمى، الثورة الاشتراكية فى البلاد الرأسمالية المتقدمة، والثورة الوطنية فى المستعمرات والبلاد التابعة.

وكما عميت بصائر الإنجليز عن مراعاة ميزان القوى العالمية (وذلك من سمات شيخوخة الإمبراطورية)، رأيناهم لا يقلون عجزا عن مراعاة حقائق الأوضاع الداخلية فى مصر، كما فى غير مصر من المستعمرات التى وصلت فيها الحركة الوطنية إلى قدر معتبر من النضج، ومن ثم كانت مواقف سلطات الاحتلال من الأحداث المتلاحقة للثورة، طيلة سنواتها الثلاث تقريبا، سلسلة من ردود الأفعال التى تميزت، علاوة على الهمجية المعروفة عن احتلال فى مأزق، بقدر كبير من العصبية والتخبط والفشل، وفى مواجهة سلطة الاحتلال المهتزة كانت طبقة الأعيان فى لحظة من أحسن لحظات صلاحيتها السياسية، ولو توفر للأعيان حينذاك جناح عسكرى قادر لاكتملت للثورة كل عوامل النجاح، ولكن غياب ذلك العامل الحاسم جعل الثورة تتعثر ولا تحقق من أهدافها إلا قليلا، فلم تخرج مصر من دائرة التبعية، ولا تحررت من مهانة الاستبداد، وأغرى ذلك عددا من المؤرخين والمنظرين - فيما بعد - باتهام قياداتها ليس فقط فى قدراتهم، وإنما ذهب البعض إلى التشكيك فى ولاءاتهم.

كانت الطبقة أولا موحدة، التقت أرادتها حول أهداف واضحة تتلخص فى الاستقلال، والحكم الدستورى، والاشتراك فى إدارة السودان، وقد توفرت لها زعامات سياسية على درجة عالية من الوعى بحقائق العصر، والقدرة على المناورة وفى لحظة انفجار الثورة وفترة صعود مدها، نحت طبقة الأعيان خلافاتها القديمة

وتوزعها قبل الثورة بين الحزب الوطنى وحزب الأمة، وبين زعامات من أصول تركية وأخرى من أصول مصرية. تكتل الجميع فى "الوفد المصرى"، والتفوا حول شخصية سعد زغلول، وكان سعد وطنيا مخضرما، تمثل تجربة العرابيين، وتعلم كيف ينحنى أمام عاصفة الاحتلال من غير أن ينكسر، وتمرس فى سلم الوظائف الحكومية فى ظل كرومر ودانلوب إلى أن وصل إلى أعلاها دون أن ينسى - كلما امكن - استثمار الموقع الحكومى لإحياء الحلم الوطنى، وخاض المعارك الانتخابية فى ظل تجارب (الشورى) التى سمح بها الأنجليز ثم كان هو الشخصية المصرية الأولى فى (الجمعية التشريعية) دون أن يكون غافلا عن حقيقة تلك الأنتخابات الشكلية والمجالس الصورية، أو ينصرف عن التطلع نحو ما هو أرقى. واشترك سعد فى تأسيس حزب الأمة واعتبره البعض من أقطابه، دون ان يتورط فى الخلافات الحزبية الصغيرة أو يندفع فى خصومة ضد أحد من القادة الوطنيين، خاصة من الحزب الوطنى، بل كان سعد تجسيدا لوحدة الأعيان من أصول تركية وتلك التى من أصول مصرية، فان سعد، هو ابن فلاح وعصامى من أصول طبقة متوسطة ريفية، صعد السلم الاجتماعى بجدارة، وصاهر مصطفى فهمى باشا، وهو من أصول تركية، ورئيس وزراء مصر فى ظل كرومر... لكل ذلك اعتبره الجميع فوق كل الخلافات والحزازات الحزبية والعرقية و "الطبقية". بل إن سعد زغلول وضع نفسه فوق الخلاقات الطائفية.

فان سعدا، وهو المسلم المتدين، الريفى الأصل، ذو التنشئة الأزهرية، استكمل تكوينه العلمانى بدراسة الحقوق الفرنسية، وسافر إلى أوروبا أكثر من مرة، واخذ عن الليبرالية روح التسامح واتساع الأفق، وتبنى شعار "الدين لله والوطن للجميع" وكان على وعى بدسائس الاستعمار لبث الفرقة والتعصب الدينى، فكان أقدر زعيم وطنى عرفته مصر فى الدعوة للوحدة الوطنية، وكان انجح الجميع فى تحقيقها، حيث جذب عددا معتبرا من كبار أعيان الأقباط إلى جواره فى الصف الأول لقيادة الثورة، وأفسح لرجال الدين الأقباط مكانا لا يقل عن إخوانهم مشايخ الازهر فى الدعوة للجهاد الوطنى والوحدة الوطنية بل هو لم يهمل القيادات اليهودية المصرية، وجعل علمانية الدولة من المبادئ الأساسية الثابتة للثورة. وكذلك جربت طبقة الأعيان صلاحياتها على الجبهه الأقتصادية. فعلى الرغم من الضائقة العالمية التى أعقبت الحرب (وجزئيا بفضل هذه الضائقة) وجد الأعيان فرصة لتجميع مدخراتهم فى اخطر مشروع اقتصادى لهم

فى فترة ما بين الحربين، ونعنى بنك مصر، الذى تأسس ومد الثورة فى ذروته (1920)، وشرعوا يرتادون مجالات كانت محظورة عليهم، فى الأعمال المصرفية والصناعة والتجارة الكبيرة. وظهر فى هذا المجال، فى شخص طلعت حرب، زعامة لا تقل جدارة عن زعامة سعد زغلول السياسية.

فشل الإنجليز فى مواجهة مد الثورة الصاعد بالالتجاء إلى جيش الاحتلال وحده، وراعهم روح التضحية العالية بين جماهير الرعية العزلاء التى ما زادها سقوط آلاف الشهداء إلا جسارة واندفاعاً. وراعهم، أكثر، ظهور أشكال عفوية من المقاومة المسلحة، خاصة فى الريف، ثم اتجاه هذه المقاومة نحو مزيد من التنظيم، وبروز قيادات لا تجيد الخطابة والمناورة السياسيه فحسب، وإنما يمكن أن تتمرس أيضا على استخدام السلاح، فتستكمل الثورة بذلك عوامل الانتصار.

لذلك لم تلبث الإدارة الاستعمارية أن لجأت إلى سياسة النفس الطويل التى قامت على فكرتين أساسيتين الأولى: إعادة بناء القصر كمؤسسة فى خدمة الاحتلال، والثانية شق صفوف طبقة الأعيان التى كانت قد توحدت فى الوفد تحت زعامة سعد زغلول.

بغض النظر عن وعى أبطال اللحظة - كان منطق السياسة العملية يفرض نفسه.

كان انفجار الثورة، وفترة المد التى أعقبت لحظة الانفجار، تجسيدا لحقيقة اختلال التوازن بين رؤوس مثلث السلطة. كانت طبقة الأعيان فى صعود وكان خط الإمبراطورية، منذ نذر الحرب العالمية، فى هبوط. وكانت الرعية، وهى القوة القابلة دائما للانفجار، قد انفجرت بالفعل، وتتعاظم طاقاتها مع كل يوم ثورى، والأعيان يوظفون هذه الطاقة لخدمة الاهداف التى حددوها للثورة.. دون أن يغفلوا - طبعا - عن حجم هذه الطاقة وتلجيمها لكى لا يفلت زمامها من أيديهم.

ولكن، فى كل هذا المعترك المحتدم كان القصر معطلا منذ خلع عباس حلمى الثانى، ولم ينف هذه الحقيقة تنصيب ذلك السلطان الشبحى، حسين كامل، ومن بعده ذلك الأمير المفلس الفاسد، احمد فؤاد.

وكان يمكـن ان تتخـذ الأحـداث مسـارا مختلفـا لـو أن أعيـان مـصر، بضربـة مـن ضربـات الثـورة وهـى فى اندفاعهـا، مـلأوا فـراغ القـصر عـلى نحـو يخـدم سـعيهم للاسـتقلال والحكـم الدسـتورى.. (كأن يعلنـوا الجمهوريـة أو ان ينصبـوا مـن بينهـم ملـكا مـن أصـول مصريـة بعيـدة عـن ذلـك البيـت العلـوى). ولكـن الأعيـان كانـوا مـا يزالـون عبيـد التاريـخ المـصرى منـذ إمبراطوريـة الاسـكندر، ذلـك التاريـخ، الـذى حكـم دائمـا بـأن يكـون تنصيـب راعـى الكنانـة بيـد الامبراطوريـة التـى تهيمـن عـلى المنطقـة، وأقـصى مـا نجـح الأعيـان فى تحقيقـه طيلـة هـذا التاريـخ، ومـا كانـوا يرجـون تحقيقـه حتـى فى أكـثر لحظـات الثـورة اشـتعالا وتوهجـا، هـو أن يؤخـذ رأيهـم فى الاعتبـار عنـد تسـمية الراعـى، أو عنـد صياغـة علاقاتهـم بالقـصر.

لذلـك، مـا أن اسـتعاد الانجليـز زمـام المبـادرة واظهـروا شـيئا مـن القـدرة عـلى اعـادة توزيـع الأدوار بـين رؤوس مثلـث السـلطة عـلى نحـو أكـثر مراعـاة للواقـع، حيـث أوكلـوا جانبـا مـن صلاحياتهـم للقـصر والأعيـان، وذلـك بتصريـح 28 فبرايـر 1922، الـذى اعلـن مـصر مملكـة مسـتقلة، ثـم دعـوة لجنـة مصريـة لوضـع الدسـتور (1923) تمهيـدا لاجـراء انتخابـات عامـة، واقامـة حكـم دسـتورى.. مـا أن حـدث ذلـك حتـى سـارعت زعامـات الأعيـان إلى القبـول بالمصالحـة مـع الانجليـز والاذعـان لمشـيئة القـصر، (ولم يغـير مـن تلـك الحقيقيـة رفـض شـكلى ووقتـى هزيـل مـن جانـب القيـادة الوفديـة). وشرعـت تلـك الزعامـات فى التصفيـة النهائيـة للثـورة، واعتـبرت ان مـا أعلنتـه بريطانيـا مـن تحفظـات عـلى الاسـتقلال فى تصريـح 28 فبرايـر مجـرد مشـكلات ثانويـة يمكـن حلهـا بالمفاوضـات، ومـن خـلال حكـم دسـتورى وطنـى.

ولكـن خيبـة الأمـل كانـت أسرع مـما توقـع الجميـع، فلـم تنقـض شـهور عـلى تشـكيل أول حكومـة دسـتورية وطنيـة برئاسـة سـعد زغلـول (1924) حتـى ظهـر أن السـلطة الحقيقيـة مـا تـزال، وسـتظل، بيـد جيـش الاحتـلال، وان ملـك مصر المسـتقلة لم يكـن إلا قناعـا مهلهـلا لدكتاتوريـة ممثـل بريطانيـا فى القاهـرة، وأن الـصراع بـين أحـزاب الأعيـان ومعاركهـم الانتخابيـة وحياتهـم الدسـتورية لم تكـن الا لعبـا فى هوامـش سـلطة اسـتبدادية تضيـق بالوطنيـين، وتضيـق عليهـم، إلى حـد الاختنـاق.

بعـد التـذرع بحـادث مقتـل سردار الجيـش فى أواخـر 1924، والانقـلاب عـلى الحيـاة الدسـتورية الوليـدة بحـل البرلمـان وإسـقاط حكومـة سـعد زغلـول وطـرد الجيـش المـصرى مـن السـودان وفـرض حكومـة إداريـة صوريـة.. كان يمكـن أن تعـود

روح اليأس تخيم على الحياة السياسية فى البلاد، وأن ينشأ موقف شبيه بما ساد بعد هزيمة الثورة العرابية فى أواخر القرن الماضى.

ولكن العالم كان قد تغير، فلم تعد بريطانيا تلك القوة العظمى القادرة على أحكام قبضتها على المنطقة، وفرض سلامها واستقرارها الاستعمارى عليها.. ومعروف ما للأعيان المصريين من قوة حاسة الشم لاتجاهات الريح فى المحيط الدولى.

.. وكانت قد خرجت من أنقاض الخلافة العثمانية، بعد ان تهاوت أبنيتها العتيقة فى الحرب العالمية، حركة وطنية عسكرية بقيادة كمال أتاتورك، حركة تناوش بريطانيا وتخوض حرب مؤخرة تهدف إلى المحافظة على ما بقى من الهوية الوطنية التركية، وإعادة بناء الدولة وتحديثها.. ومن أنقاض الإمبراطورية خرجت أيضا الثورة العربية بقيادة الشريف حسين، تحاول إقامة دولة عربية إسلامية فى الحجاز والهلال الخصيب، وعلى الرغم من المنطلق الخاطئ المشبوه لتلك "الثورة" (التحالف مع بريطانيا)، والخلط العجيب فى قيادتها وايديولوجيتها.. الا أنها ظلت قوة تشويش وقلق، وعاملا من عوامل عدم الاستقرار التى سادت حتى الحرب العالمية الثانية.. وفى فلسطين، حيث لعبت بريطانيا لعبة ذات وجهين مع الزعامات الصهيونية والعربية، لم تهدأ الأحوال أبدا... ووصلت تأثيرات ثورة 1919 المصرية وأصداؤها إلى السودان، حيث انفجرت الحركة الوطنية السودانية بقيادة على عبد اللطيف.. كل ذلك على خلفية عالمية تشهد استمرار تدهور مكانة بريطانيا الدولية، على الرغم من الانتصار الرسمى الذى انتهت اليه الحرب.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر، كان كل من هو فى مثلث السلطة، الإنجليز والملك و الأعيان جميعا، تحت ضغوط داخلية من نوع جديد. ضغوط ائتلفت على تشكيلها تراكمات اجتماعية وتأثيرات عالمية عديدة. تمثلت تلك الضغوط فى تفجر الوعى والوجدان الشعبى، وظهور أشكال من النضال النقابى والكفاح السياسى وأشكال من التنظيم ونزوع إلى العنف يفوق قدرات الأعيان على الاحتواء والتحكم.

كان قد جاء عامل شديد الأهمية، وذلك هو بروز الطبقة المتوسطة المصرية، ومحاولة هذه الطبقة أن تلعب دورا سياسيا مستقلا ومتميزًا عن الدور الذى تلعبه طبقة الأعيان.

بدأت هذه المحاولات فى غمار ثورة 1919 واعقابها. ولكنها لم تكن قادرة إلا على تشكيل جماعات ضغط ثانوية، سواء فى قواعد حزب الوفد، فيما يسمى أحيانا اليسار الوفدى، (ولعب عبد الرحمن فهمى دورا بارزاً فى هذا الاتجاه) أو خارج الوفد، خاصة فى التشكيلات الاشتراكية الوليدة، والحركة النقابية، وجماعات من الشباب أصرت على حمل السلاح على الرغم من التصالح الذى حدث بين الأعيان والقصر والانجليز، واستخدمته فى بعض العمليات الفردية المحدودة...

ولكن تلك التجارب التى خاضتها الطبقة المتوسطة النامية العدد، الشديدة الطموح، الشديدة الاحساس بأهمية دورها... لم تلبث ان أفضت فى الثلاثينات، أى منذ حوالى نصف قرن، إلى ظهور أحزاب وقيادات ذات وزن، تتطلع للمشاركة فى لعبة السلطة إلى جانب الرؤوس الثلاث التقليدية فى مثلث السلطة فى مصر - الامبراطورية والراعى والأعيان. (وهذا ما نسميه محاولة "تربيع المثلث"). بل ان بعض الفصائل السياسية للطبقة الوسطى نما فيها هذا التطلع إلى طموح غير عقلانى للانفراد بسلطة الدولة المصرية بغير شريك.

وبينما وجدنا الارادة السياسية لطبقة الأعيان المصريين فى هذا القرن تتجسد فى عدد محدود من الأحزاب السياسية تعد على الأصابع، فان الارادة السياسية للطبقة المتوسطة، منذ شرعت تحاول التعبير المستقل عن ذاتها، تجسدت فى عدد هائل من الأحزاب والتنظيمات والتشكيلات يعد بالعشرات، وربما بالمئات.

فما هى هذه الطبقة المتوسطة ؟ وكيف كانت هى - فى قائمة العوامل المحلية - العامل الأساسى الذى جعل الساحة السياسية فى مصر تتميز بكل هذا القدر من الأزدحام والنشاط والتوتر، تصاب بكل ما أصيبت به من ارتباك وتعقيد وميوعة وبلبلة ؟! وكيف تحتوى هذه الطبقة، برغم ذلك - على بذور اخصاب لم تنبت أفضل ثمارها بعد.؟!

الباب الثانى

الطبقة المتوسطة
تربيع المثلث

الطبقـة المتوسـطة قديمـة فالمجتمـع المـصرى، وهـى تتكـون مـن فئـات السـكان بـين الأعيـان والرعيـة.

وفى مـصر، دائمـا، يشـترك الأعيـان فى لعبـة الحكـم والسـلطة، وهـم متخصصـون فى شـئون الـرى والزراعـة والأمـن الداخـلى والادارة المحليـة، ولهـم خـبرة لا تبارى فى اسـلاس قيـادة الرعيـة واسـتخراج اكـبر مـردود مـادى مـن عملهـا. مـن ثـم يقتسـمون الفائـض الاقتصـادى مـع الامبراطوريـة والقـصر، دون أن يقربـوا العمـل اليـدوى أو البـدنى بـأى حـال، بينـما الرعيـة كانـت غالبيتهـا مـن الفلاحـين الكادحـين الذيـن يشـكلون الأغلبيـة السـاحقة مـن أبنـاء البـلاد فى الريـف.

ويسـتحيل أن توجـد مثـل هاتـين الطبقتـين فى مجتمـع مـا دون أن توجـد بينهـا فئـات وسـيطة، فيهـا شـئ مـن صفـات الجانبـين وتقـوم ببعـض مـن وظائفهـما، دون أن تكـون أيـا منهـما، فئـات تشـتغل بالعمـل اليـدوى والبـدنى أحيانـا، واحيانـا اخـرى تمـارس بعـض الوظائـف أو المهـن الفنيـة أو الاداريـة الدنيـا.

إنهم أنصاف خدم أو أنصاف أتباع بالنسبة للأعيان، وانصاف سادة بالنسبة للرعية، ففى القرى والأرياف مثلا، اذا كان العمدة وشيخ البلد لابد أن يكونا من عائلات الأعيان، فان الصراف والمدرس هما من أبناء الطبقة المتوسطة، وبعد أن أصبحت الأرض ملكية خاصة فى القرن الماضى، أصبح كبار الملاك من الأعيان، وكذا المحافظون وكبار مفتشى الرى، بينما المالك المتوسط والصغير وناظر الزراعة وموظف الرى المحلى وموظف السوق.. هم من الطبقة المتوسطة.

وتتسع دائرة الطبقة المتوسطة، بالنسبة لمجموع السكان، فى المدن والمراكز الحضرية، فاذا كان كبار التجار وأصحاب الحرف وأقطاب المهنيين والقضاة ورجال الدين... من الأعيان، فان صغار التجار ومتوسطيهم، وصغار أصحاب الحرف والصناع المهرة وممارسى المهن الفقيرة كالمعلمين... هم من الطبقة المتوسطة. بينما الرعية هنا هم فقراء المدن : العمال الكادحون غير الفنيين، وصبيان المهن والخدمات والصناعات الحرفية، والمهاجرون المعدمون النازحون حديثا من الأرياف بحثا عن أى عمل، وأخلاط من أشباه العاطلين والمتشردين والمتسولين.. ومن بين وظائف "أسوار المدينة" التقليدية التى كانت (حتى نهاية العصر التركى المملوكى) تقفل بواباتها عند غروب الشمس، ويسهر على حراستها عسس لا ينام، إن تلك الأسوار كانت تصد عن المدن بعض الفائض البشرى النازح من الريف، أى كانت من العوامل التى ساعدت على الاحتفاظ بالمدن والمراكز الحضرية محدودة العدد، وساعدت على المحافظة على الضبط والربط فى الحياة اليومية للمدينة، وعلى صرامة التراتب الاجتماعى فيها.

والأعيان دائما من "أبناء العائلات"، فقد كانت "العائلة" اطارا اساسيا للتنظيم الاجتماعى فى طبقة الأعيان، من أية عائلة أنت وأية عائلة تصاهر ؟ هذا واحد من أهم الأسئلة التى تحدد هويتك الاجتماعية فى طبقة الأعيان، ولكل عائلة من عائلات الأعيان منطقة نفوذها فى الريف، فى القرى ومراكز الاقاليم وحواضرها، وهو نفوذ له جذور تاريخية ضاربة فى القدم، حيث كانت تربط هذه العائلات بجمهور الرعية الريفية روابط تبعية وأبوية منذ فجر الحضارة الزراعية، روابط يمتزج فيها المادى والسلطوى والروحى فى نسيج متماسك، وتوظف لدعمها كل أجهزة الحكم والادارة المحلية، وعلى الرغم من تجدد تكوين هذه الطبقة أكثر من مرة فى القرنين الأخرين، وما صاحب هذا التجدد من محاولات تحديث

الدولـة وتقويـة سـلطة الادارات المركزيـة فى القاهـرة، فـان هـذا النفـوذ وتلـك الروابـط لم تضعـف الا قليـلا. فقـد حرصـت عائـلات الأعيـان عـلى أن يكـون لهـا دائمـا رجالهـا فى الاجهـزة المركزيـة فى العاصمـة، فى عواصـم مديرياتهـم ومحافظاتهـم، بـل إن عـددا كبـيرا مـن هـذه العائـلات كانـت تحـرص عـلى توزيـع رجالهـا بـين مختلـف الأحـزاب المتنافسـة عـلى الحكـم، وهكـذا، مثـلا، وعـلى الرغـم مـن تـداول الحكومـة المركزيـة بـين الوفـد وأحـزاب الاقليـة فى الفـترة بـين أول حكومـة رأسـها سـعد زغلـول إلى آخـر حكومـة رأسـها مصطفـى النحـاس، فـان غالبيـة أعضـاء مجالـس الشـيوخ والنـواب كانـوا مـن نفـس العائـلات، ولم يختلـف الحـال كثـيرا بعـد ذلـك فغالبيـة أعضـاء مجلـس الأمـة النـاصرى ثـم مجلـس الشـعب السـاداتى، وكـذا غالبيـة قيـادات الاتحـاد القومـى فالاتحـاد الاشـتراكى فحـزب مـصر... وغالبيـة أفـراد المؤسسـات الأخـرى القابضـة عـلى ناصيـة الحكـم.. هـى أيضـا مـن هـذه العائـلات نفسـها.

وفى المجـال الاقتصـادى، كانـت عائـلات الأعيـان هـى المنبـع البـشرى لأبـرز رجـال الصناعـة والمـال بـين الحربـين، ولقـادة القطـاع العـام نفسـه فى لحظـات نمـوه وهيمنته.. ومـرة أخـرى هـى المنبـع البـشرى لأقطـاب الانفتـاح.. ثـم لما يسـتجد.. إن اسـتجد شئ..

وهكـذا، عـلى الرغـم مـن تعـدد الهـزات الاجتماعيـة وعنـف العواصـف السياسـية التـى شـهدتها بلادنـا منـذ سـبعينات القـرن المـاضى، كانـت "العائـلات" مـن أهـم العوامـل التـى كفلـت لطبقـة الأعيـان كثـيرا مـما تميـزت بـه مـن اسـتمرارية وفاعليـة ونفـوذ.

ولكـن، ليـس الأمـر كذلـك بالنسـبة للطبقـة المتوسـطة، حيـث لا تعنـى العائلـة نفـوذا أو سـلطة، وانمـا أقـصى مـا تسـتطيع أن تؤديـه مـن وظيفـة هـو أن تؤهـل أبناءهـا للمحافظـة عـلى وضعيتهـم الاجتماعيـة، وتضـع فى أيديهـم سـلاحا يحميهـم مـن التدهـور إلى مهانـة الفقـر. والتعليـم، مـن أجـل الحصـول عـلى أحسـن شـهادة دراسـية ممكنـة، مـع التشـبث بفضلـة مـن ملكيـة عقاريـة ان وجـدت والحـراك الاجتماعـى عـلى أشـده فى المراتـب الاجتماعيـة المتوسـطة، بمعنـى إن الطبقـة المتوسـطة تتسـع لوافديـن مـن سـواقط الاعيـان، اولئـك الذيـن فشـلوا فى المحافظـة عـلى مكانتهـم الاجتماعيـة وامتيازاتهـم الماديـة، كذلـك تتسـع الطبقـة المتوسـطة لأعـداد مضاعفـة مـن الصاعديـن مـن المرتبـة الاجتماعيـة الدنيـا، القافزيـن مـن أبنـاء الرعيـة، وطبيعـى أيضـا إن وجـد دائمـا عـدد قليـل جـدا مـن أبنـاء الطبقـة المتوسـطة اسـتطاعوا ان يصعـدوا

السلم الاجتماعى فيرتقوا إلى طبقة الأعيان بنجاحهم فى جمع ثروة أو اتقان مهنة أو حرفه أو الترقى فى سلم الوظائف الكبيرة، وهؤلاء عادة ما يدعمون ارتقاءهم بمصاهرة احدى عائلات الأعيان، والالتحاق العضوى بالطبقة المحظوظة الضاربة بجذورها وأصولها فى الريف. وكان من بين الطبقة المتوسطة أيضا كثيرون هبطوا إلى صفوف الرعية، وزادوا الفقراء عددا والرعية ميلا للتمرد والانفجار.

هكذا، بسبب تدنى المكانة الاجتماعية، وهشاشة العلاقات العائلية، وضعف الضمانات المادية - وتفاقم هذا الضعف مع الارتفاع الباهظ فى تكاليف المعيشة والتعاظم المرهق فى مطالب الحياة، وبسبب حدة الحراك الاجتماعى الذى لا يعد الا أفراد قلائل بالصعود بينما الأغلبية الساحقة بالسقوط.. عاشت الطبقة المتوسطة ممزقة بين التطلع إلى اعلى والهلع من الهبوط إلى أسفل، ولم تحقق أى قدر من الاستقرار النفسى أو السكينة الروحية.. يطغى عليها ميل لحسد من يعلوها على ما يتمتعون به من ثروة ونفوذ، وحسد من دونها على ما يتصورون أنهم يتمتعون به من نعيم القناعة وسكينة الرضا.

وطبيعى أن كانت الطبقة المتوسطة، فى الساحة السياسية، أكثر وعيًا بهويتها من سائر الرعية، وأكثر تطلعا لتحقيق كيان مستقل لتلك الهوية، وللقيام بدور متميز، وذلك للحصول على نصيب أوفى من الخيرات المادية، واحتلال مكانة اجتماعية أكثر احتراما، وتوفير قدر أكبر من الضمانات المادية، واشباع حاجتها إلى الاحساس بالطمأنينة والرضا والسكينة النفسية والروحية، غير أنها كانت فريسة إحباط تاريخى مستمر. (ربما باستثناء فترة دامت حوالى قرن ونصف قرن فى تاريخ مصر الفرعونية، بين اوائل القرن الثانى والعشرين واواسط القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد، أى بين نهاية حكم بيبى الثانى، آخر فراعين الأسرة السادسة، وبداية حكم منتوحتب، مؤسس الأسرة الحادية عشرة)

وأسباب الاحباط التاريخى المستمر للطبقة المتوسطة واضحة. فقد كانت طبقة مبعدة عن المراكز الأساسية للسلطة وعن المواقع التى تتحكم فى مصادر الثروة وفى الوسائل الاساسية للتأثير الروحى والفكرى على جمهور الرعية - فهذه كلها موزعة بين رؤوس مثلث السلطة، ولا كانت، من ناحية أخرى، طبقة تتمتع بالكثرة العددية والطاقة الانتاجية التى تتمتع بها جماهير الرعية من أسفلها، ومن ثم فهى عاجزة عن الاندفاع فى نضال "طبقى" فعال تفرض نفسها بوزنها

العـددى والمسـاومة بقدراتهـا الانتاجيـة. وهكـذا عاشـت الطبقـة المتوسـطة وهـى ملحـق بطبقـة الأعيـان وتابـع لهـا، فهـى وسـيط الأعيـان فى عمليـات اسـتغلال الرعيـة واسـلاس قيادهـا، ثـم هـى، فى حـالات انفجـار التناقـض بـين رؤوس مثلـث السـلطة، فتيـل تفجـير الطاقـات المكبوتـة للرعيـة. وفى فـترات الانحسـار، هـى رسـول الأعيـان للرعيـة للدعـوة إلى الهـدوء والسـكينة. وفى فـترات التوتـر وعـدم الاسـتقرار السياسى والاجتماعـى هـذه، تظهـر مـن بينهـا جماعـات ضغـط قصيرة العمـر، تسـتثمر قدراتهـا القياديـة لحركـة الجماهـير الفقـيرة.. وفى الاثنـاء تحقـق لبعـض فئاتهـا شـيئا مـن المكتسبات، ولبعـض زعاماتهـا شـيئا مـن الـبروز واللمعـان.. وهـى زعامـات سرعـان مـا تهجـر صفـوف الطبقـة المتوسـطة لتحقيـق طموحهـا الدفـين للصعـود إلى مرتبـة الأعيـان.. فتضيـف حلقـة جديـدة فى مسلسـل الاحبـاط الدائـم للطبقـة التـى انجبتهـا.

هذا موجز القصة المتكررة فى تاريخ الطبقة المتوسطة فى بلادنا..

... إلى أن بـدأ التأثـر بالحضـارة الأوربيـة منـذ حـوالى قرنـين، تغـيرت الأحـوال تدريجيـا لصالحهـا عـلى نحـو مـا، كـما أثقلـت كاهلهـا بأعبـاء ومسـئوليات ليـس لهـا قبـل بهـا مـن قبـل.

فلنتأمل قليلاً ماذا حدث فى التاريخ.

بعـد صعـود محمـد عـلى إلى سـدة الحكـم فى 1805، ثـم الضربـة القاصمـة التـى قـضى بهـا عـلى زعـماء المماليـك فى مذبحـة القلعـة (1811)، والخطـوات الحاسـمة التـى خطاهـا فى بنـاء جيشـه وجهـازه الادارى واقتصـاده فى العقـد الثـانى مـن القـرن المـاضى، بـدأت تتشـكل ملامـح جديـدة للمجتمـع المـصرى فى الريـف والمدينـة ملامـح "حديثـة" بالقيـاس إلى مـا كانـت فى العـصر الـتركى المملـوكى، وهـو تحديـث اسـتلهم الباشـا كثـيرا مـن عنـاصره مـن أوروبـا، وقـد تملكتـه فكـرة محاولـة الأخـذ بأسـباب القـوة التـى بهرتـه فى الأوربيـين، ولكنـه بحكـم ظروفـه وتكوينـه، اختـار مـا يجعـل نظامـه اقـرب إلى الملكيـات المسـتبدة المسـتنيرة التـى عرفتهـا بعـض البـلاد الأوربيـة قبـل إتمـام التحـول إلى النمـط البرلمـانى الليـبرالى.

ومـن أهـم تلـك الملامـح تحديـث كل مـن الأعيـان والطبقـة المتوسـطة، وهـو - طبعـا تحديـث وثيـق الارتبـاط بالتغيـيرات الشـاملة التـى احدثهـا فى نظـام حيـازة الأرض الزراعيـة، وفى احتكارالدولـة للتجـارة الكبـيرة والصناعـات الأساسـية، والانقـلاب الـذى حـدث فى النمـو العمـرانى للمراكـز الحضاريـة، وخاصـة القاهـرة.

طويت صفحة الأعيان المماليك، وأصبح الأعيان هم كبار رجال الجيش العلوى والدولة المركزية القوية، صحيح أن غالبية هؤلاء، فى البداية، كانوا من خليط تركى شركسى ألبانى وبقايا عائلات مملوكية تأقلمت مع النظام الجديد، ولكن - مع التوسع فى تجنيد المصريين للجيش والمدارس التقنية الملحقة به، تزايد عدد الضباط والفنيين والاداريين من أصول مصرية، ليشكلوا عصب الأعيان المصريين الجدد. وتوقفت فئة كبار العلماء عن أن يكونوا مركز ضغط على السلطة، وانتظموا فى مواقعهم الأزهرية فى توافق مع الدولة، وعلى ولاء لا شبهة فيه للباشا ولم تعد الطبقة المتوسطة خادما مفتت البنية، وتابعا موزع الولاء بين مئات من أمراء الحرب المتنازعين (المماليك) ورؤساء الطوائف ومشايخ الحرف والصناعات. لا. وإنما انخرط الجميع فى خدمة الجيش والدولة : ضباط صف، صغار كتبه، صيارفة.. والصناع منهم أصبحوا موظفين فى مصانع الدولة وترساناتها... وبدأ التعليم "الحديث" يفتح آفاقا جديدة لأبناء الطبقة المتوسطة للوصول إلى وظيفة فى الجهاز الحكومى المتنامى العدد المتعاظم النفوذ.

ولكن، جاء التدخل الاوروبى فقطع ما يمكن أن تسميه بلغة عصرنا المسار البيروقراطى التكنوقراطى للأعيان والطبقة المتوسطة فى فترة الصعود العلوية. فبعد أن تحالفت الدول الست الكبرى من اجل وضع حد لقوة مصر العسكرية فى 1840، فرض ذلك التحالف الاوربى على محمد على تحجيم الجيش إلى أقل من عشر ما كان قد وصل اليه، وتبع ذلك اغلاق قهرى لكثير من المصانع، واغلاق بعض المدارس الحديثة التى كانت معنية بتخريج الكفاءات الفنية، وأهم من كل ذلك الضغط والتدخل الأوروبى لتحويل الأرض الزراعية من ملكية الدولة إلى ملكية شخصية، تباع وتشترى بالمال، مع اطلاق "حرية" البنوك العقارية الأجنبية للدخول فى الرهونات والمضاربات العقارية، صحيح أن تنفيذ هذه الشروط اصطدم بمقاومة صارمة من محمد على، ولكن سرعان ما قبل إبنه سعيد بالأمر الواقع، وبدا فى عهده مسلسل التفريط فى الاقتصاد المصرى الذى انتهى بالسيطرة البريطانية الفرنسية على الاقتصاد الوطنى بعد مضى أقل من ربع قرن.. ومن بين اهم النتائج التى ترتبت على ذلك هو التحويل التدريجى للأعيان إلى ملاك عقاريين كبار، والى ظهور فئة متوسطة من الملاك المتوسطين والصغار، وبفعل قوانين الوراثة تزايد عدد هؤلاء مع مرور الزمن، مع إطراد تدنى وضعياتهم المادية والاجتماعية.

استمرت محاولات التحديث مع استمرار الاتصال بأوروبا ومحاولة التعلم منها واللحاق بها، وفى نفس الوقت استمرار محاولات الاوربيين النفاذ من ثغراتنا الضعيفة للتأثير والسيطرة علينا. ويمكن أن نميز ثلاث موجات للتحديث تتناظر مع الحقب السياسية الأساسية فى تاريخ القرنين الأخيرين :

الحقبة الأولى: هى الحقبة العلوية، وتبدأ بوصول محمد على إلى ولاية مصر عام 1805. وهذه الحقبة لها مرحلة صعود استمرت إلى تحالف الدول الكبرى لتحجيم قوة مصر العسكرية وفرض معاهدة لندن عام 1840. ثم فترة انحدار استمرت بعد ذلك حتى وصل التسلل الاستعمارى أثناء حكم سعيد وإسماعيل إلى منتهاه بخلع إسماعيل، ثم البطش بالثورة العرابية والاحتلال البريطانى فى عام 1882.

والحقبة الثانية هى حقبة الاحتلال البريطانى، وتستمر سبعين عاما، إلى ثورة 23 يوليو 1952، وفى هذه الحقبة أيضا يمكن أن نميز فترة استقرار استعمارى استمرت حتى الحرب العالمية الأولى، ويمكن أن ننسبها إلى اللورد كرومر، اشهر أسم استعمارى فيها.. ثم فترة استعادت فيها القوى الوطنية كثيرا من الحيوية والقدرة على المبادرة والنضال، فترة ثورة 1919 وأعقابها، وهذه يمكن أن ننسبها إلى الزعيم سعد زغلول.

واخيرا الحقبة الثالثة، الناصرية. التى بدأت بثورة 23 يوليو. وفى هذه أيضا يمكن أن نميز أكثر من فترة، حيث تعتبر هزيمة 1967 علامة هامة فيها تفصل بين فترة صعود سابقة عليها، ثم انتكاسة لاحقة...

ثم ندخل بعد ذلك فى التاريخ المعاش حيث ندرك (وكأننا ندرك فجاة) أننا - بسبب فيضان النفط العربى - فى قلب "العصر البترولى".

والتاريخ السياسى فى هذين القرنين هو تاريخ الصراع بين ارادة الاستقلال واردة الاخضاع. وحين تكون ارادة الاستقلال هى الغالبة، كما فى فترتى الصعود العلوية والناصرية، فان اختيارات التحديث تكون فى خدمة هذه الارادة، حيث توجه اولا إلى تحديث الجيش، فالادارة فالاقتصاد، وخاصة محاولة انشاء صناعة حربية وتحقيق الاستقلال الاقتصادى والاعتماد على الكفاءات والخبرات الوطنية.

ولم يكف المستعمرون أبدا عن محاولة تحطيم هذه الارادة وتغيير الاختيارات التى فى خدمتها، وذلك بالأساليب التى اصبحت الان معروفة لدى الكافة، والتى يمكن تلخيصها - مهما تنوعت أشكالها - فى الأتى : تحطيم أو تحجيم القوة العسكرية المصرية - تحطيم أو تطويع المؤسسات التى تتجسد فيها الارادة الوطنية وكذا المؤسسات التى يتمركز فيها نفوذ أجنبى مناوئ للقوة الاستعمارية المهيمنة - فرض معاهدات او اتفاقات غير متكافئة وأشكال من الامتيازات الاجنبية - التسلل ثم السيطرة الاقتصادية وخاصة باستخدام قوة البنوك والقروض و"المساعدات" - جذب ولاء الصفوة المحلية او اقسام هامة منها، ومساعدة الموالين على القفز إلى مواقع السلطة والثروة - تغذية عوامل التفرقة والانقسام بين المواطنين لتفتيت الارادة والمقاومة الوطنية، وخاصة تحريك الأقليات او تحريض العصبيات او سوء استغلال الفوارق العرقية -.. وطبيعى، توجيه اختيارات "التحديث" لتكون فى خدمة هذه الأهداف.

ولكن، إلى جوار سوء القصد وخبث التدبير الاستعمارى، حدثت أيضا - نتيجة لعمليات التحديث فى كل الحقب وكل الفترات - تداعيات سلبية، هى فى غالبيتها غير مقصودة وغير متعمدة، أسهمت - احيانا بنصيب أوفى - فى تراكم القلق والاضطراب والتوتر بين الفئات الاجتماعية الوسيطة خاصة، وتحالفت مع الشر المتعمد فى إصابة الحياة السياسية والاجتماعية بما أصابها، ودفعها إلى ماهى عليه من عقم واختناق وميل للانفجار، واهم هذه العوامل هى : الانفجار السكانى - النمو الفوضوى للمدن والمراكز الحضرية - التضخم السرطانى للادارة الحكومية - زحف النمط الاستهلاكى "الحديث" إلى فئات متعاظمة من السكان، بدءا من الأعيان وصولا إلى درجات دنيا من السلم الاجتماعى - تعاظم الاختلال الاجتماعى ليس فقط على الصعيد الطبقى، وإنما أيضا على صعيد الخلية القاعدية، نعنى الأسرة - تعاظم الضغوط لتغيير نظام القلق والاختلال الفسى والروحى...

هذه التداعيات غير المتعمدة هى التى يمكن أن نسميها "العوامل الاجتماعية الحياتية النفسية" تمييزا لها عن "العوامل الاجتماعية الاقتصادية السياسية").

ومن قبلنا واجهت بلاد أوروبا الغربية مثل هذه المشكلات، منذ بدء الثورة الصناعية، وبسببها. واشهر مثل على ذلك انجلترا، التى شهدت انفجارها السكانى والمدينى فى أواخر القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر، ولكن هناك توفرت

ظـروف مواتيـة سـاعدت عـلى مواجهـة هـذه المشـكلات والحـد مـن مخاطرهـا، أهـم تلـك الظـروف، كـما هـو معـروف : النمـو الهائـل فى الـثروة الماديـة فى الزراعـة والصناعة معـا، والتوسـع الاسـتعمارى، والنجـاح فى تجهيـز المـدن بمـا يلزمهـا مـن مرافـق وخدمات وأسـواق عامـرة بالسـلع.. كل هـذه عـلى خلفيـة سياسـية توفـر قـدرا معتـبرا مـن حريـة التعبـير والمناقشـة والنقـد، وتشـجع التفكـير العقـلانى، ومـن ثـم تسـاعد عـلى اكتشـاف الاخطـاء والمخاطـر وعلاجهـا... مـع وجـود حـركات عماليـة متناميـة القـوة، وحـركات اصـلاح انسـانية نشـيطة ومتنوعـة.

وعـلى الرغـم مـما حققـوه فى هـذا المجـال، كـما فى غـيره كثـير، فان السـعى الانسـانى الدائـم لمـا هـو أرقـى يجعـل المفكريـن المسـتنيرين فى البـلاد الصناعيـة المتقدمـة، ومـن حولهـم عـدد متعاظـم مـن شـباب الأجيـال الصاعـدة، ابعـد مـا يكونـون عـن الاحسـاس بالرضـا والاطمئنـان، خاصـة بعـد بـروز مخاطـر تلـوث البيئـة، والآثـار الضـارة لكثـير من العـادات الاسـتهلاكية المعـاصرة، وانتشـار اعـراض الاغـتراب والعصـاب النفسـى... حيـث يـرون أن المنهـج الـذى يعالـج بـه هـذه المشـكلات مـا يـزال يـدور فى اطـار بورجـوازى قـاصر، يـولى الاعتبـارات الأولى للمصالـح الاقتصاديـة لدوائـر المـال والأعـمال الكـبرى، ومـن ثـم لا يجـرؤ عـلى المسـاس بمخططـات تصميـم المـدن والمراكـز الحضريـة التـى تخضـع للمضاربـات العقاريـة وصناعـة البنـاء، كـما يعجـز عـن تعبئـة المجتمـع للقضـاء عـلى العـادات الاسـتهلاكية الضـارة، حيـث يتعـارض ذلـك مـع مصالـح صناعـات السـلع المعمـرة والدخـان والمشروبـات والأغذيـة المحفوظـة، والصناعـات الترفيهيـة، وصناعـة الأدويـة والمهدئـات والمنشـطات...

بـل لقـد نجـح أربـاب هـذه الصناعـات، بتسـخير الاعـلام والاعـلان لصالحهـم، نجحـوا فى تكييـف أمزجـة غالبيـة النـاس هنـاك، وتوجيـه أذواقهـم، لتعويدهـم عـلى أسـاليب حياتيـة وانمـاط اسـتهلاكية لا تتعـارض مـع مصالـح دوائـر المـال والأعـمال الكـبرى، كذلـك نجحـوا فى اقنـاع الأغلبيـة بـأن اسـتمرار الأزدهـار والوفـرة رهـن باسـتمرار تلـك الأسـاليب والأنمـاط التـى هـى فى جملتهـا ضـارة بالصحـة الجسـمانية والسـلامة النفسـية والسـكينة الروحيـة لمجمـوع السـكان.

وأخـيرا وليـس آخـرا، يـرى المفكـرون المسـتنيرون المحدثـون فى البـلاد الصناعيـة المتقدمـة أن مـا يتـم مـن عـلاج للمشـكلات الحياتيـة النفسـية هنـاك لا ياخـذ فى الاعتبـار اننـا أصبحنـا فى عـالم صغـير، تضاءلـت أبعـاده بفضـل وسـائل المواصـلات

والاتصال الحديثة، ومن ثم فان علاج مشكلات البلاد المتقدمة يجب الا يتم (كما كان يحدث دائما) على حساب البلاد المتخلفة - كأن تتوقف بعض الصناعات الشديدة الضرر بالبيئة الطبيعية هناك لتصدر الينا، أو أن يتوقف انتاج بعض أنواع الاغذية والادوية والملابس هناك لتصدر الينا، او أن تدعم مخابرات الدول الكبرى قوى التخلف والهمجية فى بلاد العالم الثالث، فتتفاقم فى ظلها مشكلات الانفجار السكانى والتلوث البيئى على نطاق عالمى، مع ما يترتب على ذلك من شحن الكوكب كله بمزيد من عوامل القلق والانفجار.

غير أنه لا مجال للمقاومة بين الأوضاع الاجتماعية الحياتية النفسية فى بلادنا (خاصة فى الطبقة المتوسطة) ونظيرتها فى البلاد الصناعية المتقدمة، فالهوة التى تفصلنا عنهم فى هذا المجال لا تقل عن الهوة التى تفصلنا عنهم فى المجال الاقتصادى، وهى هوة متعاظمة طبعا، شأنها شأن الهوة الاقتصادية.

وقد كان ابراز ما تعانية البلاد الصناعية المتقدمة من أزمات وأمراض حياتيه ونفسية لعبة مفضلة لدى كثير من كتابنا وصحفيينا. وهى لعبة ليس لهم - على كل حال - فضل فيها، فلولا ما هناك من حرية تسمح لمفكريهم بدراسة هذه الأزمات والمشكلات ومناقشتها لما عرف هؤلاء الكتاب شيئا عنها، غير أن هؤلاء الكتاب اكتفوا بالترجمة والنقل عنهم، ولم يتعلموا منهم كيف يكشفون عما نعانى نحن من أزمات ومشكلات، وهى أضعاف ما يعانون. لذلك، لم تثمر تلك الكتابات وعيا بسلبياتنا ومشكلاتنا، ولا عبأت طاقات قادرة على الاسهام فى العلاج او مجرد ايقاف التدهور العام، وأن كان لتلك الكتابات من ثمرة فهى تبرير ما نحن فيه من جهالة وعجز واخماد روح التأمل والنقد لواقعنا. ويالها من ثمرة !!

وقد آن الأوان أن نخفف من الضجة المثارة حول القشة التى فى عين غيرنا لنحس بالعصا المغروسة فى عيننا والغشاوة الضاربة على بصيرتنا.

... ...

والطبقة المتوسطة فى بلادنا هى أكثر الطبقات معاناة من المشكلات الاجتماعية الحياتية النفسية.

فالأعيان كان لديهم دائما من الوفرة ما يجعلهم لا يشعرون بوطأتها المادية.

ومن الناحية النفسية والروحية، كان للأعيان دائما قدرة فائقة على المواءمة والتوافق مع التأثيرات الحضارية الأجنبية الغالبة، وكان مثقفوهم دائما قادرين على توليف صيغ فكرية وعقائدية توفيقية مهجنة، فيها عناصر محلية موروثة واخرى مأخوذة عن الغزاة والفاتحين. وهكذا كانت لهم دائما جسور فهم وتعايش مع الواقع، على النحو الذى يساعدهم على النهوض بدورهم التاريخى فى مثلث السلطة. وحياتهم الخاصة، قصورهم ولباسهم ومأكلهم ومأدبهم.. كانت مزيجا مصريا اغريقيا، أو مصريا عربيا، أو مصريا تركيا، أو مصريا متفرنجا... حسب الأحوال. وكان الانتقال من نمط إلى آخر يتم بيسر وسهولة بالقياس إلى ما تشهده من توترات وآلام تصحب دخول الطبقة المتوسطة فى حياة المدن المعاصرة وانتقال عادات الاستهلاك الحديثة اليها. كذلك لم يصب الأعيان بذعر خاص على العائلة كمؤسسة اجتماعية أساسية، ولم ينعكس هذا فى سلوك عصابى يجعل علاقة المرأة بالرجل هى محور الاهتمام والقلق الأساسى.. فالأعيان متمرسون، جيلا بعد جيل، فى صيانة عائلاتهم وعصبياتهم، وفى توظيفها للمحافظة على امتيازاتهم المادية واوضاعهم السلطوية، هذا، فضلا عن انهم بعيدون عما يصيب الطبقة عموما من كبت جنسى واحباط وجدانى..

أما الرعية فانها مع مزيد الأسف، دون مستوى الاحساس بتفاقم المشكلات الحياتية النفسية، ناهينا عن الادراك العقلانى لأبعادها ومخاطرها.

إن رب الأسرة، فى الطبقة المتوسطة يشعر - على الأقل - بقدر من الالتزام تجاه أبنائه يختلف اختلافا نوعيا عن الاباء الذين يعيشون دون مستوى الكفاف. إنه ملزم، أمام نفسه وأمام مجتمعه، بأن يكفل لأبنائه قدرا من التعليم يؤهلهم لمواجهة مخاطر التدهور إلى مهاوى العوز المادى والمهانة الاجتماعية، إن أبناءه يظلون عبئاً ماديًا ومعنويًا على كاهلة حتى سن العشرين أو نحوها. ومن ثمَّ فهو أكثر احساسا بوطأة الانفجار السكانى، وإن يكن من زاوية أنانية شخصية ضيقة، بينما الآباء والأمهات فى أدنى السلم الاجتماعى فى بلادنا لا يحسونها حتى على هذا النحو الشخصى المتخلف، فليس ثمة ذلك الالتزام بتربية الأبناء وتعليمهم، ولا ذلك الاحساس المرهق بالأعباء المادية والمعنوية، بل الأغلب أن الفقراء عندنا يتصورون أن زيادة الأبناء يعنى زيادة الرزق، حيث كثيرا ما يدفعونهم إلى العمل وهم

فى سـن الطفولـة أو هـم - ببسـاطة - يقذفونهـم إلى الطريـق هكـذا.. والله يـرزق عبـاده!!

وما يقال عن الانفجار السكانى يقال مثله عن النمو الفوضوى للمدن، وما يترتب عليه من تدهور المرافق الصحية وعدم قدرة الدولة على ملاحقة تعاظم المصيبتين وتوفير ما يلزم من مواصلات وخدمات ومدارس... فالطبقات الدنيا عندنا لم تعرف ابدا معنى الحياة الصحية أو الراحة البدنية او المتعة الثقافية.. لتفتقدها !! وكما يقول الحكماء: إذا هبط الانسان دون مستوى معين فليس ثمة حدود لتدهوره. والعياذ بالله.

ولكن، على الرغم من أن الطبقة المتوسطة فى بلادنا هى الأكثر احساسا بوطأة المشكلات الاجتماعية الحياتية النفسية، وعلى الرغم من وجود أعمال أدبية وفنية ممتازة عبرت عن هذا الاحساس منذ تاريخ مبكر، إلا أنها ما تزال بعيدة عن الادراك العقلانى لمخاطرها، عاجزة عن الاسهام الفعال فى مواجهتها، ومن ثمَّ فغالبية الجهود المبذولة فى هذا الاتجاه تأتى من خارجها، من مثلث السلطة التقليدى، حيثما تشعر السلطة، كما تدرك، أن تراكم هذه العوامل ـ بالاضافة إلى العوامل الاجتماعية الاقتصادية السياسية ـ يهدد الاستقرار السياسى، وهو أهم ما تحرص السلطة على المحافظة عليه.

كان "حديث عيسى بن هشام" (للمويلحى) أول عمل أدبى دقّ ناقوس الخطر منذ حوالى قرن من الزمان، غير أن الخطر يتسارع بمعدلات متعاظمة، إلى أن تجاوز اليوم حدود الاحتمال. (ونرجو ألا يكون قد تجاوز القدرة على العلاج)، وأصبحت موضوعاته هى الشغل الأساسى لأدباء الطبقة المتوسطة وفنانيها، وأقدرهم عملاقهم الكبير ـ نجيب محفوظ- غير أن القصص والروايات، ومقالات الانطباعات اليومية، والميلود راما المسرحية والسينمائية والاذاعية والتليفزيونية... يقتصر أثرها على اثارة المشاعر وتعميق الاحساس بالمشاكل، وتعبئة أو تفريغ شحنات غير موجهة من السخط والتمرد الفردى والجمعى، إن أثرها وجدانى أساسا، فهى لا تخلق فى جمهورها (وهو جمهور طبقة متوسطة أساسا) ادراكا عقلانيا هادفا أو وعيا متسقا قادرا على التحول إلى طاقة فاعلة. بل أن الاثار الوجدانية لذلك النوع من الاعمال الادبية والفنية، ان لم يرتق بها فكر سياسى يعبر عن الضرورة الموضوعية، وتوظفها قوى سياسية عقلانية قادرة، فإنها يمكن

أن تصب فى هـذا التيـار أو ذاك مـن تيـارات الوعـى الزائـف، التـى تفـضى بدورهـا إلى تغذيـة أشـكال عقيمـة مـن النضـال أو الجهـاد أو الكفـاح، فتـؤدى - كـما هـو حـادث بالفعـل - إلى تعاظـم المخاطـر وتراكـم عوامـل القلـق والانفجـار فى جسـم الأمـة.

ولنضرب مثلا واحدا صارخا.

تحـت ضغـط العـبء المتزايـد لتكاليـف الحيـاة، شرعـت نسـبة متزايـدة مـن عائـلات الطبقـة المتوسـطة، فى المـدن الكبـيرة بالـذات، تمـارس "تنظيـم الاسرة". غـير أن هـذه الممارسـة مـا تـزال دوافعهـا ذاتيـة ونفعيـة خالصـة، فالغالبيـة السـاحقة بعيـدة كل البعـد عـن تصـور أبعادهـا الاجتماعيـة الاقتصاديـة السياسـية أو ادراك مخاطرهـا السريعـة التراكـم. ومـن ثـمَّ فالممارسـة بعيـدة كل البعـد عـن أى احسـاس بالمسـئولية الاجتماعيـة او بالمسـئولية تجـاه الأجيـال المقبلـة. والنتيجـة الطبيعيـة هـى أن جـاءت الممارسـة مهتـزة والنتائـج هزيلـة، وعدواهـا بطيئـة الانتقـال إلى الجماهـير الفقـيرة فى أدنى السـلم الاجتماعـى، وهكـذا فـأن مخاطـر الانفجـار السـكانى مسـتمرة ومتصاعـدة عـلى نحـو يدعـو إلى الفـزع، والملاحـظ أن الدعايـة التـى تمارسـها الهيئـات والادارات الرسـمية والسـلطوية المختصـة بتنظيـم الأسرة مـا تـزال تـدور فى اطـار مخاطبـة الجانـب الشـخصى النفعـى الضيـق لأربـاب عائـلات الطبقـة المتوسـطة.

وفى رأينـا أن السـبب الأسـاسى فى قصـور الممارسـة والدعايـة حـول هـذه المشـكلة البالغـة الخطـورة يرجـع إلى أن الطلائـع السياسـية النشـيطة للطبقـة المتوسـطة نفسـها - وهـى المعنيـة أكـثر مـن غيرهـا - ليـس لديهـا اقتنـاع عقائـدى أو فكـرى كاف بـضرورة وضـع عـلاج هـذه المشـكلة فى القائمـة الأولى للمهـمات النضاليـة لـكل الأحزاب والفصائـل السياسـية الحريصـة عـلى مسـتقبل البـلاد، أيـا كان مكانهـا مـن السـلطة.

مـن المعـروف أن التأصيـل العقائـدى والفكـرى لطلائـع الطبقـة المتوسـطة فى بلادنـا مـوزع بـين التقدميـين (المتأثريـن أساسـا بالماركسـية) مـن جانـب، والقيـادات الدينيـة مـن جانـب آخـر، ولا توجـد إلا أقليـة مسـتنيرة فى الجانبـين مقتنعـة بخطـورة المشـكلة، وهـذه الأقليـة نفسـها ليـس لهـا جهـد ملحـوظ فى محاولـة التأصيـل العقائدى لقناعتهـا، بمعنـى أن هـؤلاء المسـتنيرين، ماركسـيين كانـوا أو دينيـين، لا يبذلـون جهـدا يذكـر لمناقشـة الكـثرة مـن رفاقهـم أو اخوانهـم المقتنعـين بالعكـس فهـم إمـا يلتزمـون الصمـت حـين تـدور مسـاجلات عقائديـة حـول مشـكلة الانفجـار السـكانى، أو نراهـم يعـبرون عـن قناعتهـم عـلى اسـتحياء، مكتفـين بترديـد الحجـج والدعايـات الرسـمية،

وابـراز الجوانـب النفعيــة العمليــة، دون جـرأة عــلى مواجهــة التحــدى العقائــدى.. الماركســيون المســتنيرون يخافــون أن يتهمهــم رفاقهــم بالتنكــر للمبــادئ الثوريــة، حيــث يذهــب أقطــاب الفكــر الماركــسى إلى أن نظريــة الانفجــار الســكانى ليــس إلا فكـرة تبريريـة رجعيـة، تلقـى بهـا البورجوازيـة مسـئولية بـؤس الطبقـات الفقـيرة عـلى عاتـق هـذه الطبقـات نفسـها لتحـرف طلائعهـا النشـيطة عـن تعبئـة قواهـا مـن اجـل الثـورة... الـخ... ورجـال الديـن المسـتنيرون يخافـون أن يتهمهـم اخوانهـم بالخـروج عـلى مبـادئ الديـن والوقـوع فى شراك الملحديـن، وكـما يعلـم الجميـع، الإلحـاد حجـة سـهلة وجاهـزة دائمـا، وسـيف مشـهر دائمـا عـلى رقـاب كل مـن يجـرؤ عـلى التفكـير والمناقشـة، حتـى لـو كان هـو الشـيخ محمـد عبـده..

هـذا الأرهـاب الفكـرى مـن أقـصى اليسـار ومـن اقـصى اليمـين.. (ومـا بينهـما أحيانـا).. هـذا التكفـير والتلحيـد، يمنـع الاجتهـاد ويعطـل الوعـى ويجهـض الجهـود الوطنيـة التـى يمكـن تعبئتهـا مـن اجـل ايقـاف مخاطـر الانفجـار السـكانى.

ولا يقـف الأمـر، لـدى قيـادات الطبقـة المتوسـطة، عنـد قصـور الوعـى وركاكـة الفكـر، وإنمـا يتجـاوز ذلـك إلى مـا يشـبه انعـدام الاحسـاس بالمسـئولية، ومـرة اخـرى أضرب المثـل بموضـوع الانفجـار السـكانى، أذكـر حديثـا جـرى مـع واحـد مـن أهـم قـادة حـزب مـن اهـم أحزابهـم، وورد ذكـر هـذا الموضـوع، وكانـت مفاجـأة حـين قـال : إنـه يـدرك تمامـا مخاطـر الانفجـار السـكانى. فـدار حـوار :

- إذا كان الأمـر كذلـك، فلـماذا لا تخصصـون جانبـا مـن صحفكـم لهـذا الموضـوع ؟! ولمـاذا لا تسـاهمون فى الجهـود المبذولـة مـن اجـل تحديـد النسـل ؟!
- ولكـن الحكومـة تقـوم بجهـود كبـيرة.. هـل الأمـر بحاجـة إلى جهودنـا المتواضعـة ؟!
- متـى كنتـم مقتنعـين بالجهـود الحكوميـة فى اى مجـال آخـر ؟! الملاحظـة أنكـم دائمـو النقـد للحكومـة عـلى قصـور جهودهـا فى كل مجـال، وأنكـم تبـادرون بالتطـوع وبـذل جهـود "شـعبية" اضافيـة فى قضايـا أخـرى، بعضهـا أقـل أهميـة مـن هـذه بكثـير ؟!

.. (بعد مداولات).. الحق نحن لا نريد ان نخلق تناقضا بيننا وبين بعض الاتجاهات الدينية المتحالفة معنا، او الموجودة فى صفوفنا، والتى تتخذ موقفا معارضا من مسألة تحديد النسل...

هكذا..

وفى نفس الوقت، هذا المسئول نفسه على استعداد لتفجير تناقضات وعداوات مع أطراف أخرى من "التحالف" الذى يتحدث عنه من أجل قضايا أقل شانا من هذا بكثير - مثل مشكلة أفغانستان !!.

وتواصل الحوار :

ولكن، ألا تعملون حسابا للمستقبل، حتى من زاوية رؤية حزبية ؟! أنتم الآن فى المعارضة، وواضح أنكم تستسهلون السكوت وإلقاء عبء هذه المشكلة الصعبة على عاتق السلطة الحاكمة، وتفضلون الابقاء على تحالفات هشة على حساب قضايا كبيرة... من أجل دعم مركزكم فى مواجهة الحكومة.. ولكن، ألا تعملون حسابات لاحتمال وصولكم إلى الحكم أو اشتراككم فيه فى مستقبل قريب.. كأن تدعوا - كما تطالبون - للمشاركة فى حكومة انقاذ وطنى.. أو أن تحصلوا فى الانتخابات العامة المقبلة، على نسبة من الأصوات والمقاعد النيابة تؤهلكم للمشاركة فى الحكم ؟.. ألا تعملون حسابا ليوم تكونون فيه فى موضع المسئولية فتفاجأون بجسامة العبء الذى يتراكم بسبب الانفجار السكانى ؟!.. ألا تقرأون فى التاريخ أن البكوات والباشاوات الوطنيين فى أوائل هذا القرن لم يكتفوا بنقد نظام التعليم الذى فرضه كرومر ودانلوب، وانما تجاوز النقد إلى القيام بحملات لجمع التبرعات وبناء المدارس الأهلية.. بل لبناء الجامعة..

صمت الرجل.. ولم يواصل الجدل.. وابتسم ابتسامة حيرة وتشتت..

والحق أن قيادات الطبقة المتوسطة عموما، على اختلاف انتماءاتهم العقائدية، لا يتصورون النهوض بمسئولية الحكم إلا على نحو غير واقعى..رومانسى احيانا، ودموى أحيانا أخرى !!.. ولكن دائما غير واقعى. انهم ليسوا كالأعيان الذين قادوا حركات الاصلاح والاحياء الوطنى فى اوائل القرن، والثورة فى اعقاب الحرب العالمية الأولى.. كان عند الأعيان احساس بالمشاركة فى ملكية البلد، وقدر كبير من الشعور

بالمسئولية عن مصيرها، وقدرات عملية لكيفية ممارسة هذه المسئولية، ووراءهم تاريخ طويل راكموا أثناءه هذه الأحساسيس وتلك القدرات.

وما يقال عن الانفجار السكانى وضرورة مواجهته مواجهة نضالية على نحو يعلو على الاعتبارات الحزبية والجمود العقائدى، يقال مثله عن المشكلات الحياتية الأخرى، وخاصة المشكلة العمرانية.

لا يوجد من يجادل فى أن الدولة هى المسئول الأول عن التنمية العمرانية للمدن والمراكز الحضارية، عن مشكلات الاسكان، وبناء المرافق والخدمات، وصيانتها وتطويرها لمسايرة ضرورات العصر ؛ وتحديث الجهاز الادارى الساهر عليها، المراعى لمصالح سكان المدن المحافظ على راحتهم وكرامتهم.. غير أن مسئولية المواطنين سلوكيا واخلاقيا عن كل ذلك ما يزال من الأمور غير الواضحة وغير المحددة من جانب الجمهور، وهى ليست مادة تثقيف او رقابة من جانب الطلائع... وحين نقول "المواطنين" فى المدينة فاننا نعنى الطبقة المتوسطة أساسا، فالطبقة المتوسطة تشكل نسبة كبيرة ومتزايدة من سكان المدن، وهى المستفيد الأول إذا تحسنت أحوال العمران والمضار الأول اذا تدهورت، وهى السبب الأساسى فى التدهور بسبب انفجارها العددى وتعاظم احتياجاتها ومطالبها. وحين نتحدث عن "الجمهور" فاننا نعنى جمهورها، وحين نتحدث عن "الطلائع" فاننا نعنى أحزاب الطبقة المتوسطة وتشكيلاتها السياسية، والحركة النقابية والتعاونية وتشكيلات الحكم المحلى... التى يحتل مواطنون من الطبقة المتوسطة الأغلبية الساحقة من مراكزها القيادية والتنفيذية.

إن أحزاب الطبقة المتوسطة، وكل تشكيلاتها السياسية والنقابية والتعاونية والاجتماعية الأخرى، اكتفت بأن تكون حركات مطلبية، تنتقد السلطة الحاكمة على كل مظهر من مظاهر تدهور الحياة المدينية وتطالبها بكل ما فى امكانها وما ليس فى امكانها، ولكن هذه الأحزاب والتشكيلات لا تقوم بأى جهد دعائى تربوى لانتقاد سلوك جمهور الطبقة المتوسطة البعيد كل البعد عن الاحساس بالمسئولية المدينية واخلاقيات الحياة المتحضرة، بل إن طلائع الطبقة المتوسطة اعتادت، انطلاقا من تبريرات ايديولوجية مشوهة أو سعيًا لتملق جمهور متخلف، اعتادت أن تلفق اعذاراً تغذى روح عدم الاحساس بالمسئولية المدينية، وتبرر كل مظاهر التسيب والاستهتار، وكل انواع الجرائم الاجتماعية ـ الرشوة – سرقة

المال العام - تدمير المرافق - الخروج على قواعد البناء الصحى - التعامل فى السوق السوداء - توسيخ الأماكن العامة - شغل الطرق وارباك المرور - تدمير كل جهد لضبط السلوك الجمعى فى المواصلات أو المتاجر - تدمير أعصاب المواطنين باطلاق العنان لكل أنواع الضجيج الجنونى ـ كل مواطن يساهم، بقدر ما يستطيع، فيما يشبه مؤامرة مجنونة لتدمير الذات وتدمير الآخرين، فى نوع من السلوك الانتحارى الجمعى.. ولا من احد يكف عن الشكوى، وفى نفس الوقت يمعن فى ارتكاب كل فعلة تزيد أسبابها.. والطلائع - إن نطقت - تكتفى بمزيد من السباب تكيله على رؤوس المسئولين الفاسدين والموظفين المختصين...

... ولكن، أليس موظفو الجهاز الادارى المسئول عن تسيير الحياة اليومية هم أيضا من أبناء الطبقة الوسطى ؟ فأى جهد تبذله احزاب الطبقة المتوسطة ونقابات الموظفين والمهنيين فى اعادة روح الاحساس بالمسئولية عندهم بوصفهم خدام للشعب وامناء على الملكية العامة ومصالح المواطنين ؟

فى أيام الثورة الصناعية فى اوروبا، وحين لم تكن الطبقة العاملة الأوروبيية قد استكملت وعيها بذاتها وطاقاتها، ولم يكن لديها بعد احساس كاف بالمسئولية الاجتماعية، كان العمال - حين تضيق بهم الأحوال أو تتازم العلاقات مع أصحاب الأعمال - كانوا يحطمون الآلات ويدمرون المصانع... حينذاك، لم تقف الطلائع الواعية للطبقة العاملة الأوروبية موقف المتفرج، ولم تزين للعمال هذا الاتجاه التدميرى، وإنما قامت بجهود تثقيفية لتوعية العمال ودعوتهم للمحافظة على ما يؤتمنون عليه من آلات وألا يخربوا الانتاج، وأن يوجهوا طاقاتهم وجهة نضالية بناءة ومسئولة، من خلال نقاباتهم وتنظيماتهم المهنية واحزابهم السياسية.

ماذا ؟

هل تركنا الكلام فى السياسة العملية لنمارس الوعظ الأخلاقى ؟ هذا سؤال قد يطرأ على ذهن جيل من الممارسين السياسيين الذين اعتادوا على الفصل بين السياسة والأخلاق، واعتبروا أن التعلق بالمعايير والقيم الأخلاقية ضعف لا يليق بالقائد السياسى الناجح.

ولكن، على هذا السؤال نجيب بسؤال آخر : أى خير من أى نوع سياسى أو غير سياسى، يرجى من موظف مرتش، أو آخر مستهتر متعال على الجمهور مهمل فى عمله، أو عامل يخرب الماكينة ليرتاح بضع ساعات وهو يعلم أن ذلك

يكلف الدولة ثروة، او تاجر (حتى لو كان صغيرا) يشتغل بالتهريب ويتعامل فى السوق السوداء ؟... أليست هذه النماذج هى التى تفرخ النقابيين الصفر ومرتزقة السياسة الذين على استعداد لخدمة كل سلطة (وافسادها) ؟.. أليست هذه التركيبة النفسية الأخلاقية هى قوة اجهاض كل اصلاح وخميرة عداء كل تقدم ؟ وأى جحيم نعيشه حين يصبح هذا النموذج هو تجسيد الطموح والنجاح ؟!

إن الأحزاب والتشكيلات اليسارية والدينية والنقابية والتعاونية والمهنية... تتوفر على طاقات دعائية هائلة، وقدرات تنظيمية لا يستهان بها، والنسبة الغالبة من قدراتها التنفيذية العملية فى ايدى قيادات الطبقة المتوسطة، غير أن حصيلة هذه الطاقات الهائلة، اما انها تصب فى مستنقع المصالح الشخصية والعائلية والشللية على حساب المصلحة العامة، أو فى التيارات المتعارضة لمصالح الحزبية والطائفية التى ينهش بعضها بعضا نهش الوحوش الضارية... ولا يرجع هذا، فقط، إلى الغفلة عن الوظيفة الأخلاقية التربوية الحضارية التى يجب أن تعلو على الاعتبارات الحزبية والعقائدية الضيقة، وانما أيضا إلى وجود جرثومة خبيثة فى الفكر السياسى لكل الفصائل "المناضلة" أو "المجاهدة" للطبقة المتوسطة، على اختلاف ادعاءاتها العقائدية، هذه الجرثومة هى التى تزين لقيادات الطبقة قناعة بأن الطريق إلى السلطة يمر بالجحيم، بمعنى أن ترك الظروف الحياتية الاجتماعية النفسية لجمهور المواطنين تتدهور نحو الحضيض المادى والدمار المعنوى يساعد على اثبات عجز السلطة الحاكمة.. (خليها تخرب عشان الناس تعرف ان ما فيش فايدة).. لكى تصبح مهمة "المنقذين" سهلة، والطريق امامهم مفتوحا.

ومرة أخرى نذكر هؤلاء بالحكمة التى تقول: إن الانسان، فردا او جماعة، اذا هبطت به ظروفه دون مستوى معين، فقد يصل إلى نقطة اللاعودة ويصبح ولا حدود لتدهوره.

اذا استمرت قيادات الطبقة المتوسطة على ما ألفناه من غفلة عن خطورة المشكلات الحياتية لجمهورها، ومن التغافل عن محاولات إيجاد حلول لها أو ارجاء المساهمة فى الجهود التى تبذل تفضيلا لأية مصالح حزبية وبتبريرات عقائدية فكرية او لدواع تكتيكية.. نقول: إن استمرار التدهور الحالى يمكن أن

يفضى - لا إلى نضج ظروف الثورة الاشتراكية أو الثورة الاسلامية التى يضارب عليها هذا الفريق أو ذاك - وإنما إلى حلقة جهنمية من الانقلابات الاستبدادية، وجحيم مقيم من المجاعات والأوبئة والاصطدامات والاضطرابات الداخلية.. ومثل بنجلاديش موجود ليعتبر به أولو الألباب.

وكما عجزت أحزاب الطبقة المتوسطة وتشكيلاتها وتنظيماتها الأخرى من القيام بدورها المفتقد فى تثقيف جماهيرها بمشكلاتهم الحياتية النفسية، وغفلت عن تعبئة الجهود للمساهمة فى ايجاد حلول لها، عجز أيضا النظام التعليمى والجامعى، كما عجزت أجهزة الاعلام.

ففى مجال ما يسمونه العلوم الانسانية، يكاد أن ينصب كل الاهتمام على الموضوعات الاجتماعية الاقتصادية السياسية، حيث لها كرست أهم التخصصات والدراسات، فى الاقتصاد، والنظم السياسية والدستورية وتاريخها، والقانون والفقه والتشريع والادارة، والعلاقات الدولية والدبلوماسية، وفنون الدعاية والاعلان والاعلام... وعلى هذه الدراسات لم يبخلوا بالامكانيات والكفاءات، بينما المشكلات الحياتية النفسية لا تحوز إلا على اهتمام ثانوى، وتكاد المفهومات الحديثة والدراسات المستقبلية حولها أن تكون غائبة غيابا تاما.. (المشكلات السكانية - العمران ومشكلات المدن والاسكان - دراسات البيئة - الدراسات الحضارية - دراسة الأنماط والحاجات الاستهلاكية -..).

وهذا طبيعى فالنوع الاول من المشكلات، الاقتصادية السياسية، هى تلك التى كانت تحظى بالاهتمام الدائم من طرف مثلث السلطة التقليدى. وقد كانت تدرس بمنهج مهجن محافظ، يهدف إلى تثبيت هيمنة التآلف السلطوى. وتتلمذ الرعيل الأول من الأساتذة المصريين على الدارسين الأوربيين الذين صاغوا المنهج وحددوا المراجع وفقا لطريقتهم فى فهمها وبما يناسب نظرتهم الينا، وتركوا لأساتذة المصريين مهمة الترجمة أو التطبيق أو البحث فى جزئيات على نحو لا يخل بالمنهج العام الذى وضعوه، وإنما يؤكده.

وبعد 23 يوليو 1952، لم يحدث تغيير نوعى فى المنهج الأساسى للدراسات الانسانية. استمر اهمال الدراسات الحياتية النفسية. واكتفت الدوائر الأكاديمية، فى اطار الفروع والتخصصات الموروثة، باستخدام بعض المواد، وتضخيم الاهتمام بالبعض على حساب البعض الآخر، والاستغناء عن بعض المراجع القديمة والاستعانة

بغيرها، واضافة أو حذف فقرات أو فصول أو أبواب من هذا الكتاب أو ذاك... دون خروج على السياق والمنهج العام... هذا، على الرغم من انتقال المراكز الجامعية الاكاديمية - تدريجيا من أيدى قيادات أعيان (باشوات وبكوات من مرتبة لطفى السيد وطه حسين وشفيق غربال ومحمد رفعت وعبد الرازق السنهورى و...) إلى أيدى قيادات طبقة متوسطة : مئات كثيرة من حملة الدكتوراة والدرجات العلمية من غير أبناء العائلات، فى حوالى مائتين من الكليات والمعاهد ومراكز البحوث...

والحق أن عجز القيادات الأكاديمية للطبقة المتوسطة غير مستغرب إذا تبينا عجز الطلائع السياسية. فالسياسة، فكرا، هى أرقى أشكال الوعى الاجتماعى وأكثرها قدرة على النفاذ إلى جوهر المشكلات والصراعات الاجتماعية، والسياسة، ممارسة، هى أرقى أشكال الحركة الاجتماعية وأكثرها فاعلية، والقيادة السياسية هى التى على عاتقها تقع مسئولية تنبيه المتخصصين، فى كافة فروع النشاط الانسانى إلى الضرورات الاجتماعية التى على ضوئها تتحدد الأولويات، فان كان الفكر السياسى للطبقة المتوسطة على ما هو عليه من قصور، وحركة الطلائع على ما هى عليه من تمزق وتعثر، فليس بمستغرب ما تلمسه من قصور وتعثر فى كافة المجالات، العلمية والتعليمية والاعلامية...

... ...

ائتلفت ثلاثة انواع من العوامل (المشكلات)، وتداخلت وتراكمت، لتفجير كوامن الطبقة المتوسطة وطاقاتها، وجعلها تربو على قدرة مثلث السلطة التقليدى على الاحتواء : المشكلات الاجتماعية الاقتصادية السياسية، والمشكلات الحياتية النفسية، والتاثيرات الخارجية. ونعنى بهذه الأخيرة الاشعاع الايدلوجى والضجيج الدعائى، والضغوط السياسية الدبلوماسية، واغراءات المعونةالاقتصادية التكنولوجية، والانشطة الخفية... الآتية من جانب قوى عالمية صاعدة، تناوش او تتحدى النفوذ الامبراطورى السائد والاعيان الذين يعتمد عليهم، وتعمل على التسلل للمنطقة، وتسعى - من أجل ذلك - إلى استمالة قوى اجتماعية وتشكيلات سياسة محلية، كاحتياطى تستند اليه فى تنفيذ استراتيجيتها العالمية.

ومنذ بدأ نجم الامبراطورية البريطانية فى الأفول مع نهاية الحرب العالمية الأولى، لعبت هذه اللعبة (لعبة الأمم) ثلاث قوى عالمية : روسيا السوفيتية

وألمانيـا النازيـة والولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وداعبـت، كل واحـدة عـلى طريقتهـا، خيـال الطبقـة المتوسـطة واحلامهـا، وزينـت لهـا فكـرة أن تحقيـق مـا تصبـو اليـه هـذه الطبقـة مـن آمـال رهـن بانهـاء سيطرة المسـتعمرين القدامـى ومسـاعدة "المحرريـن" الجـدد، واجتذبـت كل منهـا إلى فلكهـا، فى هـذه الظـروف الدوليـة أو تلـك، هـذا النفـر أو ذلـك مـن القيـادات السياسـية فى بلادنـا وتقاسـمت فيـما بينهـا مجتمعنـا السـياسى إلى مناطـق نفـوذ.. الأولى باسـم المبـادئ الشـيوعية حينـا، وبأحتضـان أنـواع مـن الاشـتراكية الحكوميـة التجريبيـة أحيانـا أخـرى ؛ والثانيـة (القصـيرة العمـر) ببريـق التحـدى الجسـور للامبراطوريـة البريطانيـة فى حربـين عالميتـين، والـشروع فى تصفيـة الحسـاب مـع اليهوديـه العالميـة، وقـوة الجيـوش الهتلريـة التـى وصلـت يومـا إلى مشـارف الاسـكندرية ؛ والثالثـة بأسـم الحريـة، والوعـد بالوفـرة الاسـتهلاكية، بقـوة التحالـف الاسـتراتيجى مـع الدولـة الاسرائيليـة أخـيرا.

لعبـت القـوى الكـبرى هـذه اللعبـة فى كل أنحـاء العـالم، ولكـن الوطـن العـربى هـو الأرض التـى دارت عليهـا أقـوى مشـاهد اللعـب وأشـدها ضراوة، وتتابعـت أكـثر فصـول دراما القـرن العشريـن مأسـاوية، وطحنـت اللعبـة الجهنميـة أكـثر مـن ثلاثـة أجيـال مـن قيـادات المجتمـع السـياسى فى بلادنـا، وخاصـة قيـادات الطبقـة المتوسـطة، ولم تجـن منهـا بلادنـا إلا مَـر الحصـاد.. وليـس مـن بـين المناضلـين السياسـيين مـن كل الاتجاهـات واحـد، ممـن بقـى مـن القتـال والتناحـر والاقتتـال، الا وفى ذاكرتـه مـن الجحيـم رؤى، وفى وجدانـه مـرض، وفى حلقـه مـرارة، وفى لحمـه الحـىَّ آثـار جـراح... ومـا يـزال امامنـا مـن المأسـاة فصـول.

... ...

كان عـام 1933، محطـة هامـة فى تاريـخ محـاولات الطبقـة المتوسـطة دخـول المجتمـع السـياسى بقيـادات منهـا، ولا مـن الأعيـان والوجهـاء، البكـوات والباشـوات فى ذلـك العـام : (1) أسـس محـام بسيط، هـو أحمـد حسـين، حـزب مصـر الفتـاة ؛ و (2) انتقـل مـدرس لغـة عربيـة بسـيط، هـو حسـن البنـا، مـن الاسـماعيلية إلى القاهـرة، ومعـه قيـادة جماعـة دينيـة ناشـئة كانـت قـد تكونـت قبـل ذلـك ببضـع سـنوات، وبـدأ تحولهـا إلى أكـبر تشـكيل دينـى سـياسى مـن نوعـه فى بلادنـا، و (3) بـدأ فى القاهـرة أيضـا نشـاط "جماعـة سـلام"، تتعقـب الأنشـطة شـبه الفاشـيه الموالـية لألمانيـا وايطاليـا،

وتناهضها فكريا ودعائيا، ومن هذه الجماعة نبتت وتفرعت التنظيمات الشيوعية التى قادت اليسار منذ نذر الحرب العالمية الثانية.

هذه التشكيلات الثلاث هى التى أفرخت، وما تزال، عشرات (وربما مئات) من تشكيلات وتنظيمات الطبقة المتوسطة فى بلادنا.

ومما يلفت النظر أن عام 1933 لم يجذب انتباه كل من كتب فى تاريخ مصر. ولكن، لا عجب فاذا كانت محاولات الطبقة المتوسطة دخول المجتمع السياسى بقيادات منها هو العامل الذى يعطى هذا العام أهميته فان هذه الأهمية لا تبرز إلا باستكمال الطبقة المتوسطة وعيها بذاتها وبتاريخها، الا إذا وصلت الطبقة إلى قدر من النضج يجعلها تنبت مفكرين قادرين.. دون أن تحجب الرؤية كثرة ما تحويه الطبقة من شرائح وفئات، وتنوع ما يجذب طلائعها من مذاهب وفكريات، توزع نشاطها بين عدد كبير من الأحزاب والتنظيمات...

وأن يحدث كل هذا عام 1933 لم يكن صدفة. فهذا هو العام الذى وصل هتلر فى أوائله إلى السلطة فى ألمانيا، وبدأ العد التنازلى لنشوب الحرب العالمية الثانية، ومعروف أن وصول هتلر إلى الحكم، والضجيج الدعائى الذى أثاره، وشروعه فورا فى تحدى النظام العالمى الذى أرست دعائمه معاهدة فرساى، ونشاط طابوره الخامس... شجع النزوع الفاشى لدى فئات عريضة من الطبقة المتوسطة الأوربية، التى كانت قد طحنتها الأزمة الاقتصادية العالمية، وخابت آمالها فى المبادئ الليبرالية ومؤسساتها الديمقراطية، والتى كانت - فى نفس الوقت - تخشى على مقوماته القومية من الشيوعية العالمية، ولم يقتصر الاشعاع الفاشى على أوروبا، وإنما تعداها إلى أطرافها وفنائها الخلفى فى الشرق الأدنى والشمال الافريقى، فاذا أضفنا التحدى الهتلرى لبريطانيا وفرنسا وتجاوب المشاعر الوطنية والقومية فى بلادنا مع هذا التحدى، أمكننا أن نفهم أسباب النفوذ الحقيقى الذى كان للفاشية الأوربية على جانب هام من قيادات الطبقة المتوسطة، وتجسيد ذلك النفوذ فى ظهور تشكيلات وأحزاب شبه فاشية فى كثير من بلاد المنطقة.

ولا نقول "شبه فاشية" لرغبة فى تميز تعبيراتنا عن المألوف، وإنما لأن ثمة خلاف نوعى بين هذه الأحزاب والتشكيلات فى البلاد التابعة، وبين نظيراتها فى بلد صناعى متطور كألمانيا. الفاشية هناك تعبير عن الدوائر الأكثر عدوانية لرأس المال الاحتكارى، لكبار ملوك الصناعة ورجال البنوك، وهى أيديولوجية شوفينية

دولـة كـبرى، وظيفتهـا تعبئـة قـوى الدولـة المعنيـة مـن أجـل التوسـع الامبريـالى بالحـرب والعـدوان، وليـس عندنـا شيء مـن هـذا أو مـن ذلـك، فقـد كانـت هـذه التنظيـمات عندنـا دائمـا تنظيـمات طبقـة متوسـطة، صحيـح أن فى التاريـخ محـاولات، مـن داخلهـا ومـن خارجهـا، لربطهـا بالـسراى حينـا أو ببعـض زعامـات الأعيـان أحيانـا أخـرى ـ مثـل محـاولات إسـماعيل صدقـى ـ ولكنهـا محـاولات ظرفيـة قصـيرة العمـر، بـاءت عمومـا بالفشـل، وظلـت هـذه التنظيـمات معظـم تاريخهـا ليـس فقـط خـارج المؤسسـة الحاكمـة، وانمـا فى موقـع الخصومـة والتربـص، وفـترات التهـادن أو التعـاون، ومحـاولات الاسـتغلال المتبـادل بينهـا وبـين السـلطة، كانـت محـدودة مشـوبة بالحـذر والمحاذيـر، تنتهـى بوقيعـة وقطيعـة، وأحيانـا بكارثـة، والتجليـات الشـوفينية شـبه الفاشـية فى بلادنـا ليسـت تعبـيراً عـن إتجـاه امبريـالى توسـعى عـدوانى، وإنمـا هـى تعبير عـن مشـاعر وطنيـة، أيـا كانـت الخلفيـة الايديولوجيـة لهـذه المشـاعر، وأيـا كان تقديـر الآخريـن لجدواهـا وحصيلـة تأثيرهـا عـلى الحركـة الوطنيـة، والتعاطـف الـذى أبدتـه هـذه التنظيـمات مـع هتلـر وموسـولينى أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة لم يكـن مـن نـوع ذلـك التواطـؤ الـذى أقـدم عليـه الكويسـجليون الأوروبيـون مـع الغـزو الهتلـرى، أولئـك الذيـن دفعهـم الخـوف مـن الثـورة البروليتاريـة إلى الخيانـة الوطنيـة.. لا.. وانمـا التعاطـف عندنـا كانـت دوافعـه وطنيـة مبـاشرة، تسـتند إلى فكـرة أن ـ عـدو عـدوى صديقـى -. كـما كان التعبـير عـن ذلـك التعاطـف سـاذجا وبسـيطا، دعائيًـا وغوغائيًـا وسـطحيا ومحـدود الأثـر، ولم يكـن أيـسر عـلى الانجليـز وأجهـزة الأمـن "المصريـة" التـى كانـت تحـت إمرتهـم، مـن قمـع نشـاط هـذه التنظيـمات والتشـكيلات، باعتقـال حفنـة مـن قيـادات مـصر الفتـاة والأخـوان المسـلمين، وتفريـق مظاهـرة (وربمـا أكـثر) تهتـف : تقـدم يارومـل، وقـت أن وصـل الجيـش الألمـانى إلى العلمـين.

أمـا التحـركات التـى كانـت عـلى قـدر مـن الخطـورة ـ وان يكـن محـدوداً ـ فقـد جـاءت مـن جانـب الـسراى. الملـك فـاروق وبعـض رجالـه المقربـن، مثـل عـلى ماهـر باشـا. أولئـك الذيـن قـدروا أن يكـون النـصر للألمـان والايطاليـين، وحاولـوا ان يعملـوا حسـابا ليـوم دخـول هتلـر القاهـرة وهـم متلبسـون بخدمـة الجيـش البريطـانى، وكانـت فرصـة أن يلبـس فـاروق مسـوح الوطنيـة، وأن تتمكـن الـسراى مـن اسـتمالة جانـب هـام مـن الـرأى العـام المعـادى للانجليـز، خاصـة بـين أتبـاع الجماعـات شـبه الفاشـية.

وحدثـت - فى هـذا الجـو - حركـة بـين الضبـاط الشـبان، ظهـرت أسـماء منهـم فيما بعـد فى قائمـة الضبـاط الأحـرار، التفـوا حـول ضابـط كبـير معـروف بعدائـه للانجليـز، هـو عزيـز المـصرى باشـا، حاولـوا الاتصـال بالألمـان ليسـهلوا عمليـة تمـرد عسـكرى يمكـن أن يقـوم بـه الجيـش المـصرى.

هـذه التحـركات، خاصـة بعـد أن وصلـت إلى ضبـاط فى الجيش، هى التى استدعت مـن سـلطات الاحتـلال أن تتحـرك لتتخـذ أشـد اجراءاتهـا شراسـة منـذ منحـت بريطانيـا مـصر اسـتقلالا ونصبـت عليهـا ملـكا فى فبرايـر 1922، وذلـك هـو حصـار الدبابـات البريطانيـة قـصر عابديـن، وفيـه فـاروق مجتمعـا بـكل رجـال الحكـم، وفـرض حكومـة وفديـة برئاسـة مصطفـى النحـاس باشـا فى فبرايـر 1942. ولأن الانجليـز كانـوا يعرفـون دوافـع فـاروق وحـدود قدراتـه، فقـد اكتفـوا باذلالـه دون أن ينحـوه، لعلمهـم إنـه سيعود أكـثر طاعـة واسـتخذاءً حـين تتغـير اتجـاه الريـاح الدوليـة لصالحهـم، بـل إنـه سـيعود يخدمهـم وفى جعبتـه رصيـد وطنـى بعـد حصارهـم قـصره، وفى سـجل الوفـد والنحـاس صفحـة حالكـة بعـد فرضهـم إيـاه... وهكـذا تداخلـت كثـير مـن الخطـوط واختلطـت الأوراق وأسـهمت مفارقـات 4 فبرايـر فى جعـل السـاحة السياسـية فى أواخـر الحـرب واعقابهـا المبـاشرة ـ حتـى النهـوض الثـورى للجماهـير فى 1946 ـ تتميـز بقـدر مهـول مـن الخلـط والتشـويش والارتبـاك، ولعـل أهـم أعـراض هـذا الارتبـاك أنـه فى الـصراع الـذى تصاعـد بـين الوفـد والقـصر، بـين النحـاس وفـاروق، اتخـذت نسـبة كبـيرة مـن جمهـور الطبقـة المتوسـطة وقيادتهـا، خاصـة فى التشـكيلات شـبه الفاشـية، موقفـا متعاطفـا مـع الملـك... ولم يـأت الشـفاء مـن بعـض تلـك الأعـراض إلا بفضـل النهـوض الثـورى الجماهـيرى فى فبرايـر1946، والـدور الـذى لعبتـه - حينـذاك - اللجنـة الوطنيـة للعـمال والطلبـة.

التحــركات الأخــرى التــى عمــل الانجلبــز حســابا لخطورتهــا منــذ نــذر الحــرب العالميـة الثانيـة جـاءت مـن جانـب بعـض الجاليـات الأجنبيـة، وكان فى مـصر حينـذاك أكـثر مـن نصـف مليـون مـن الاجانـب (بينـما عـدد سـكان مـصر حينـذاك، فى 1933، كان أقـل مـن 15 مليـون، اى اقـل مـن ثلـث عـدد سـكانها حاليـا (1882)، وكانـوا يتمتعـون بامتيـازات موروثـة عـن المعاهـدات غـير المتكافئـة التـى فرضتهـا الـدول الأوروبيـة عـلى الدولـة العثمانيـة، وقـت ان كانـت مـصر تابعـة لهـا.

وعـن طريقهـم تسـلل الاسـتعمار الأوروبى إلى مـصر فى عهـد سـعيد وإسـماعيل، ثـم كانـوا حصـان طـروادة الـذى سـهل عمليـة الاحتـلال البريطـانى فى عـام 1882، وبعـد الاحتـلال، تزايـد عددهـم زيـادة كبـيرة، وأصبحـوا مـن أهـم ركائـزه، فى الادارة والاقتصاد والغـزو الثقـافى الحضـارى، وحـين أعلنـت بريطانيـا تصريـح 28 فبرايـر 1922 الـذى منحـت بموجبـه مـصر اسـتقلالا، تمسـكت ببقـاء الامتيـازات، فهـى إحـدى التحفظـات الأربـع الشـهيرة التـى جعلـت ذلـك الاسـتقلال شـكليا، وبموجـب هـذه الامتيـازات، كان رعايـا الـدول الأوروبيـة يتمتعـون بنـوع مـن الحصانـة تجـاه القانـون والقضـاء المـصرى، فقـد كانـت قبضـة بريطانيـا مـا تـزال محكمـة عـلى الجاليـات الأجنبيـة، وكانـت مـا تـزال قـادرة عـلى توظيفهـم تمامـا فى خدمـة سـلطة الاحتـلال. ولكـن، بعـد دخـول الامبراطوريـة البريطانيـة فى طـور التدهـور والانحـلال، ووصـول هتلـر إلى الحكم وتوسـع موسـولينى الاسـتعمارى فى أفريقيـا، أصبحـت الجاليـة الايطاليـة الكبـير ة العـدد طابـورا خامسـا حقيقيـا فى قلـب مـصر، ولأن مـد الفاشـية الأوروبيـة فى الثلاثينـات كان فى صعـود، فـان التعاطـف عـلى الفاشـية ومخاطـر العمـل لخدمتهـا لم يكـن قـاصرا عـلى الايطاليـين وحدهـم، وإنمـا كان قويـا ومتغلغـلا فى صفـوف عـدد كبـير مـن رعايـا الـدول الأوروبيـة الأخـرى فى مـصر.

وفى مواجهـة هـذا الخطـر، عمـدت بريطانيـا إلى العمـل عـلى جبهتـين : جبهـة رسـمية دبلوماسـية، والأخـرى عقائديـة "جماهيريـة".

فى المفاوضـات المصريةالبريطانيـة التـى انتهـت بتوقيـع معاهـدة 1936، تسـاهلت بريطانيـا فى موضـوع الامتيـازات الاجنبيـة، وقبلـت المطلـب الوطنـى القديـم بالغائهـا فى اتفاقيـة خاصـة ملحقـة بمعاهـدة 1936، هـى اتفاقيـة مونتريـه (1937).

بـل كانـت الامتيـازات هـى التحفـظ الوحيـد الـذى تراجعـت بشـأنه بريطانيـا مـن بـين التحفظـات الأربـع الشـهيرة.

هذا أولا.

وثانيـا : تسـاهلت بريطانيـا، بـل شـجعت، أشـكالا مـن النشـاط "الجماهـيرى" المعـادى للفاشـية بـين الجاليـات الأجنبيـة، ونهـض بهـذه المهمـة مجموعـة مـن الأجانب أو الاجانـب المتمصريـن، غالبيتهـم مـن اليهـود الماركسـيين، الذيـن اجتمـع لديهـم حافـز الخـوف مـن هتلـر مـع القـدرة عـلى اسـتخدام الماركسـية، التـى أثبتـت انهـا اقـوى ترسـانة فكريـة مناهضـة للفاشـية، خاصـة بـين الطبقـات العاملـة والشـعوب المقهـورة

والأقليات المضطهدة، وكانت النوادى اليهودية فى القاهرة والاسكندرية، وأشهرها نادى "المكابى" هى قواعد انطلاقهم، وكانت لافتتهم المرفوعة هى الاسهام فى الجهود العالمية لانقاذ السلام من خطر حرب عالمية يعد لها النازيون الألمان والفاشيون الايطاليون، وجرى تجنيد عدد متزايد من الشبيبة الأجنبية من بين طلاب المدارس الأجنبية، وخاصة مدارس الليسيه الفرنسية، وبدأت الأفكار الماركسية تنتقل إلى الطلاب المصريين فى تلك المدارس، وأنضم إلى الحركة عدد من أبناء الطبقات المتيسرة والعليا... وإذامتدت فترة الحضانة واستطالت، ابتداء من 1933، فان طلاب الثانويات وصلوا إلى الجامعات والمعاهد العليا، لتنتقل معهم الماركسية إلى عدد متزايد من طلاب الجامعات المصرية وخريجيها... وتأسست بضعة من النوادى الثقافية "التقدمية" وصدر عدد من المجلات والنشرات المحدودة التوزيع.. وفى الأثناء كانت الدعاية الماركسية تنتشر بين فئات من "العمال" فى فروع مختارة من الخدمات، مثل الفنادق والسينما والمحلات التجارية الكبرى، التى كان للأجانب (وخاصة اليهود) نفوذ ملحوظ بينهم، ومن جهة اخرى، عاد عدد من العمال المصريين المخضرمين، خاصة فى المواصلات والمرافق والنسيج والصناعات الغذائية، ممن شهدوا أو اشتركوا فى النضال القصير العمر للحزب الشيوعى المصرى الذى كان قد تأسس عام 1922 ـ وحلته حكومة سعد زغلول باشا عام 1924 - عادوا يلتقطون الخيط من جديد، وينشطون فى الحركة النقابية والسياسية، وتلتقى جهودهم مع جهود المثقفين التقدميين المصريين للتواصل مع الفكر الماركسى والانضمام إلى التنظيمات الشيوعية التى تشكلت، وساعد على ذلك تعاظم معدل نمو الصناعة المصرية بعد نشوب الحرب العالمية، وتعاظم عدد العمال وتركزهم، واعتماد المجهود الحربى البريطانى على العمالة المحلية لسد كثير من الاحتياجات الضرورية... ونتيجة لذلك، السماح بقدر أكثر من الحرية النقابية.

ثم جاء الوقت الذى تزامن فيه هذا النشاط المتنامى مع التحول الذى حدث فى مسار الحرب العالمية عام 1943، عام ستالينجراد والعلمين، وانتقال هتلر من الهجوم إلى الدفاع، وسير الأوضاع فى إيطاليا نحو الانهيار السريع، وبروز دور الاتحاد السوفيتى، والمقاومة الرائعة التى تجلت فى دفاع السوفييت عن بلادهم ضد الغزو النازى ـ بعدأن رأى الناس هتلر يخضع كل بلاد اوروبا الرأسمالية فى أقل من عام -... وتغيرت لهجة الحديث عن الاتحاد السوفييتى فى الصحف والاذاعة المصرية ـ بأوامر من بريطانيا طبعا ـ وفعلت دعاية الحلفاء فعلها فى النيل من

تعاطف الراى العام مع هتلر... وهكذا تحول جانب كبير من العطف الذى تحظى به ألمانيا، تحول نحو الاتحاد السوفيتى، باعتباره القوة الكبرى المرشحة - وهى منتصرة - لمناهضة خصمنا التاريخى.

ومع توفر كل تلك الظروف المواتية التى جعلت حظوظ الجناح اليسارى لطلائع الطبقة المتوسطة أفضل من حظوظ غيرها التى كانت متعاطفة مع الفاشية المهزومة، ومع أن الحركة الشيوعية التى بذرت بذورها فى أواسط الثلاثينات أسستها حفنة من الشباب اليهودى ممن كانوا يترددون على نفس الأندية وتربطهم روابط شخصية مباشرة... فان "الحركة" تأسست منقسمة موزعة بين عدد من التنظيمات المختلفة، المتنافسة المتنابذة، وذلك دون أسباب واضحة أو مبررات مقنعة، ومن وقتها ظل الأنقسام والتمزق مرضا مزمنا من أمراض الحركة، وعلى الرغم من تعاظم عدد الشباب المصرى الذى انجذب نحو "الحركة"، فان التحامها بالنضال النقابى والكفاح الوطنى ظل بطيئا متعثرا، وظل "تمصير الحركة" مطلبا داخليا فى تلك التنظيمات إلى أن ساعد النهوض الثورى عام 1946 فى تحقيقه، بفيض الشباب الثورى الذى تدفق يدق أبواب التنظيمات ويقتحمها اقتحاما، ومع ذلك ظلت غالبية القيادات والكوادر المسئولة من الأجانب، واليهود خاصة، إلى أن رحل عدد كبير من هؤلاء بعد نشوب الحرب العربية الاسرائيلية الأولى (1948 - 1949)، ولكن فريقا من هؤلاء ظل يمارس من باريس نفوذا قويا على بعض القيادات المصرية، ويدير كثيرا من الشئون على البعد، وظل تخليص "الحركة" من ذلك النفوذ مطلبا داخليا شبه دائم، وكما كانت التشكيلات والأحزاب التى تعاطفت مع ألمانيا وايطاليا عندنا "شبه فاشية"، كذلك التنظيمات والأحزاب التى رفعت راية الماركسية وتعاطفت مع الاتحاد السوفيتى عندنا "شبه شيوعية"، فهى - وإن تشبهت بنظيرتها الأوربية فى بعض المظاهر والرطانة والشكليات، إلا أنها تختلف عنها فى الأساسيات : فى التكوين العضوى والنهج الفكرى والممارسات العملية... الأمر الذى لا يخرجها عن اطار طلائع طبقتنا المتوسطة الممزقة بين الايديولوجيات المتناقضة بحثا عن الذات، ومرة أخرى يرجع هذا إلى الاختلاف النوعى بين مجتمعنا والمجتمعات الأوربية، فى التركيب الاجتماعى الاقتصادى والخلفيات الحياتية الثقافية.

فالأحزاب الشيوعية هناك هى نبت مجتمع أنجز ثورته الصناعية، وساد فيه أسلوب الانتاج البورجوازى - حتى فالزراعة وبالتالى تم الاستقطاب الاجتماعى بين البورجوازية من جانب والبروليتاريا من جانب آخر. والبروليتاريا هناك هى الطبقة المستغلة، الطبقة الدنيا بمقاييسهم، كما أنها الطبقة التى عليها تقع اعباء ما يتعثر فيه النظام من ازمات وما يثير من حروب... وليس عندنا شيء من هذا فنحن مجتمع لم ينجز ثورة صناعية بأى مقياس. والصناعة عندنا، فضلا عن كونها صناعة تابعة تستمد كثيرا من اسباب وجودها واستمرارها من الخارج، فانها لا تشكل الا نسبة ضئيلة من الدخل القومى ونسبة أشد ضآله من الفائض الاقتصادى. والعمال الفنيون فى الصناعة "الحديثة" عندنا، (الذين يمكن مقارنتهم، من بعض الوجوه بـ "البروليتاريا" فى البلاد الصناعية المتقدمة، والذين يحدث وجودهم خداع نظر للبعض فيتصورونهم القاعدة الاجتماعية لشيوعية محلية لا تختلف اختلافا نوعيا من الشيوعية فى البلاد الصناعية، ومن ثم يهتفون : هذه طبقتنا العاملة التى نحن طلائعها - شيوعيوها..) نقول: إن هؤلاء العمال، علاوة على أنهم لا يشكلون الا نسبة ضئيلة من مجموع السكان، فانهم ولا شك فئة محظوظة بالنسبة لغالبية الناس فى بلادنا، بالنسبة إلى فقراء الريف وفقراء المدن عندنا : العمال الزراعيون، والفلاحون شبه المعدمين الذين يملكون ملكيات صغيرة والعمال غير الفنيين فى المدن، سواء فى المصانع الكبيرة أو فى الورش والصناعات والخدمات الحرفية، واعداد كبيرة من الرعايا السائبين الذين يعملون أى عمل نظير أى أجر... هؤلاء الفقراء ـ وان كانوا أقل قدرة على التعبير عما بهم ـ هم الذين يتحملون أفدح اعباء ما يفرزه مجتمعنا من سوءات.. وليست "بروليتاريانا".

إن العمال الفنيين عندنا، فالصناعة الحديثة ـ التى هى ليست حديثة إلا بمقاييسنا نحن المتواضعة ـ كما فى كثير من الصناعات الحرفية الآن، هم جزء لا يتجزأ من الطبقة المتوسطة فى بلادنا، إنهم شريحتها المشتعلة بالعمل الانتاجى اليدوى أو البدنى المباشر، غير انه وجدت ملابسات فكرية ونفسية حجبت رؤية هذه الحقيقة حتى الآن : كان مثقفو الطبقة المتوسطة فى بلادنا. انهم شريحتها المشتغلة بالعمل الانتاجى اليدوى أو البدنى المباشر، غير أنه وجدت ملابسات فكرية ونفسية حجبت رؤية هذه الحقيقة حتى الآن : كان مثقفو الطبقة المتوسطة ومتعلموها وموظفوها ومهنيوها ينظرون نظرة استعلاء للعمل اليدوى

أو البدنى، الأمر الذى كان يصور لهم أنهم طبقة أعلى كثيرا من العمال، بما فى ذلك العمال الفنيين، والغالب أن كان العمال من جانبهم يقابلون هذا الاستعلاء بروح استهانة بأمر هؤلاء "الأفندية" وميل تلقائى للحط من قدرهم، ومما كان يزيد الفاصل النفسى الاجتماعى بين الجانبين إن غالبية العمال الفنيين هم فئة صاعدة من أعماق الرعية إلى المراتب الاجتماعية المتوسطة، بينما غالبية الفئات الأخرى (الموظفون والصغار من بين الملاك والمهنيين وأصحاب الحرف..) هم من أصول طبقة متوسطة، بل بينهم نسبة متزايدة من أصول أعلى - أبناء عائلات أعيان تدهورت بهم الحال، وفيهم ميل تلقائى للتعالى، كذلك كانت الفئات المتوسطة الأخرى تتميز على العمال بتوفر قدر أكثر من الضمانات المادية (وظيفة مستقرة، دكان، تجارة صغيرة، عيادة أو مكتب مهنى، فضلة من ملكية زراعية أو عقارية فى المدينة..). وكان هذا الاعتبار يتضح بصفة خاصة عندما كان أحد العمال، مهما كان كسيبا، يحاول مصاهرة أسرة من أسر الموظفين أو المهنيين، كذلك كانت الفئات الأخرى تتميز بنمط استهلاكى أكثر حداثة وتمدنا، كما كانت متعلمة، وذات تكوين ثقافى مختلف - ومن ثم يختلف أسلوبها فى الحديث، وفى العلاقات الأسرية، وفى قضاء أوقات الفراغ، وفى المتع والاهتمامات الثقافية...

وقد استخدمنا فعل الماضى الناقص "كان" طيلة الفقرة السابقة، لأن الزمن والتطور فعل فعلهما فى تقليص هذه الفواصل، بل قضى على بعضها، وكاد أن يعكس البعض الاخر، ففى الستينات، بعد التأميمات، تحولت الأغلبية الساحقة للعمال الفنيين فى الصناعة الحديثة إلى موظفين فى الدولة وأصبحوا اليوم ولهم وظيفة مستقرة ومعاش بعد التقاعد، وأصبحت الأحوال المادية لغالبيتهم لا يقل مستواها عن مستوى موظفى الأعمال الكتابية والادارية، أن لم يكن أفضل. وفى عصرنا هذا، البترولى، وبعد فتح سوق العمل أمام المصريين فى البلاد البترولية، كادت الأوضاع المادية أن تصبح معكوسة. وفى الأثناء، تدنى مستوى التعليم، العام والجامعى على السواء، كما تجمدت الحركة الثقافية وقصرت عن ملاحقة العصر، إن لم تكن قد تدهورت وانحطت، بحيث لم تعد ثمة فروق جوهرية بين المستوى الثقافى والعقلى العام للموظف أو المثقف المتوسط وبين العامل المتوسط، وساعد على ذلك انخراط نسبة متزايدة من خريجى التعليم الفنى والمتوسط، بل والعالى أحيانا، فى صفوف العمال، وساعدت أيضا وسائل الاعلام والاتصال الجماهيرية، وخاصة التليفزيون، فى التقريب بين الفئات العمالية وغير

العمالية للطبقة المتوسطة، وإن يكن تقاربا يميل بالمستوى العام نحو الهبوط والسطحية والركاكة. كذلك تقاربت أنماط الاستهلاك، وإن يكن نحو ما هو مبدد وغير مناسب، وفى هذا المجال أيضا تقهقر الموظفون وصغار المهنيين تقهقرا بائسا، وتهدمت معنوياتهم، وكاد استعلاؤهم السابق أن ينقلب إلى احساس مرير بالتعاسة، واندفاع مريض للحقد والحسد.

ولكن، على الرغم من التقارب الواضح الذى حدث بين العمال الفنيين وسائر فئات الطبقة المتوسطة منذ الستينات، فى الاوضاع المادية والحياتية والمستوى الثقافى والتعليمى، إلا أن ذلك لم يفض إلى تقارب نفسانى مناظر، ولا أدى إلى توحيد سياسى للجناحين، العمالى وغير العمالى للطبقة المتوسطة والمسئولية فى ذلك تتحملها القيادات السياسية للطبقة المتوسطة، وخاصة اليسار التقدمى، شبه الشيوعى، الذى ما يزال يصر على التشبث بأوهامه الايديولوجية، إن أشباه الشيوعيين فى بلادنا لم يتنبهوا بعد إلى أن ألفاظا مثل البورجوازية والبورجوازية الصغيرة والبروليتاريا، ودكتاتورية البورجوازية ودكتاتورية البروليتاريا... هذه الألفاظ حين جاءتنا من أوروبا لم تجلب معها الواقع الاجتماعى والتاريخى الذى أنبتها، إن تجاهل هذه الحقيقة الواضحة أدى إلى أشكال من الوعى الزائف التى ساعدت، وما تزال، على التباعد بين العمال الفنيين فى بلادنا وبين سائر فئات الطبقة المتوسطة، لقد ظلت الأحزاب والتنظيمات شبه الشيوعية فى بلادنا، لأكثر من ستين عاما، نقلا عن الماركسيين الأوروبيين، تردد نظريات تذهب إلى أن العمال الصناعيين عندنا يشكلون طبقة اجتماعية متميزة عن سائر الطبقات، وأنها الطبقة المنوط بها مهمة قيادة قوى التقدم فى بلادنا للقيام بثورة (أو أكثر من ثورة) من أجل انجاز التحول الاشتراكى، ومن بعد ذلك المجتمع الشيوعى... وأن ثورتنا الاشتراكية جزء من الثورة الاشتراكية العالمية، وأن مصر الاشتراكية ستكون جزءًا من المنظومة الاشتراكية العالمية التى يقودها الاتحاد السوفيتى.. إلى آخر هذا الكلام - الذى قالوا: إنه هو آخر ما وصل اليه التفكير العلمى.

ومن بين النتائج الضارة التى ترتبت على هذه الأوهام الفكرية أنها سهلت على اليمين المحافظ، المتحالف مع قوى السيطرة الغربية، مهمة اثارة الذعر بين سائر فئات الطبقة المتوسطة وطلائعها، وخاصة الطلائع المنخرطة فى التشكيلات الدينية السياسية، التى هى أيضا مرتع لتركيبة مناقضة ومتناقضة من الأوهام...

وهكـذا أسـهمت أشـكال الوعـى الزائـف فى عرقلـة جهـود القـوى الوطنيـة مـن أجـل توحيـد صفوفهـا وتعبئـة قواهـا فى نضـال مفيـد مـن أجـل أهـداف واضحـة وممكنـة، كـما قدمـت تبريـرا سـهلا لإصـدار مجموعـة مـن القوانـين المقيـدة للحريـات، ولشـن سلسـلة مـن حمـلات الارهـاب التـى وقـع عبؤهـا عـلى كاهـل الطبقـة المتوسـطة، وخاصـة عـلى الحركـة العماليـة، وعـلى الطلائـع اليسـارية والدينيـة معـا.

كذلـك أدت الادعـاءات شـبه الشـيوعيه إلى تعميـق الهـوة الفكريـة والنضاليـة بـين طلائـع العـمال الصناعيـين فى بلادنـا وسـائر طلائـع الطبقـة المتوسـطة، فكـم مـن محاولـة لربـط النضـال السـياسى للعـمال بنضـال الفئـات المتوسـطة الأخـرى أفسـدتها اجتهـادات المنظريـن أشـباه الشـيوعيين، أولئـك الذيـن يـرون أن هـذا الربـط لابـد أن يتـم فى اطـار "جبهـوى"، يتولـون هـم فيـه (باعتبارهـم ممثـلى الطبقـة العاملـة.. ؟!) دور القيـادة... ويذهبـون إلى أن أى اطـار تنظيمـى أو نضـالى مختلـف، لا يضمـن لهـم الـدور القيـادى، ليـس إلا نوعًـا مـن الانتهازيـة أو الانحـراف يـؤدى إلى تسـليم الطبقـة العاملـة لخصومهـا البورجوازيـين، ويميـع نضالهـا ويحرفهـا عـن أهدافهـا - ومـن ثـم يفـضى إلى خيانـة (موضوعيـة) لقضايـا الثـورة والاشـتراكية والأمميـة، وبـين مثـل هـذه المقـولات المتشـددة شـبه الثوريـة وحقائـق الحركـة السياسـية والواقـع الاجتماعـى، ومـع عجـز الممارسـين التجريبيـين عـن تقديـم بديـل ايديولوجـى مقنـع، تخبـط آلاف الزمـلاء والرفـاق، وتبادلـت عـشرات التنظيـمات والتكتـلات الشـكوك والاتهامـات... "أنتـم مثقفـون تتجاهلـون الواقـع"... "بـل أنتـم تتجاهلـون النظريـة وتخونـون القضيـة وتتنكـرون للأمميـة"... إلى آخـر هـذا الـكلام... وهكـذا، فى ضبـاب الوعـى الزائـف تـاه ثلاثـة أجيـال مـن الشـيوعيين والتقدميـين، وتبـددت جهـود الأغلبيـة السـاحقة مـن خـيرة مناضـلى هـذا الجنـاح اليسـارى لطلائـع الطبقـة المتوسـطة، وأهـدرت تضيحاتـه...

وحـين نقـول "الأغلبيـة السـاحقة" فاننـا نعنـى ذلـك العـدد الـذى لا يحـصى مـن المناضلـين اليسـارين المخلصـين مـع أنفسـهم، هـؤلاء الذيـن أخـذوا هـذه المقـولات النظريـة مأخـذ الجـد، وإنمـا دوختهـم المفارقـات الصارخـة بينهـا وبـين الواقـع، ولم يهتـدوا إلى مخـرج فكـرى مقنـع، ومـن ثـم عجـزوا عـن المحافظـة عـلى وضـوح الرؤيـة وراحـة الضمـير، ففقـدوا قدراتهـم النضاليـة وفـتر حماسـهم الثـورى.

ولكـن - وهـذا يحـدث فى كل البـلاد وفى كل العصـور وفى كل الدعـوات العقائديـة - وجـدت دائمـا حفنـة قليلـة العـدد مـن "المحترفـين التقدميـين" الذيـن تدربـوا عـلى

ألا يقيموا اعتبارا للاتساق بين الادعاءات العقائدية، والتحرك السياسى، ولم تمنعهم المفارقات الصارخة بين الفكر والواقع من الدخول فى جبهات وتحالفات وتآلفات ليسوا فيها قادة، ولا حتى مجرد شركاء على قدم المساواة، وإنما غالبا (إن لم يكن دائما) ماقبلوا أن يكونوا أتباعا ومنفذين، وملتزمين من جانب واحد. بل وصل بهم الأمر يوما - ببساطة - إلى القبول بالغاء وجودهم ذاته (فى 1965)... ومن بين المحترفين التقدميين تخصصات، منهم المتخصصون فى "التنظير"، أى التلاعب بالنصوص، والاستشهاد بالتجارب التاريخية، لإثبات صحة اى موقف يتخذون، حتى لو كان متناقضا مع الموقف السابق والموقف اللاحق معا، وتمشى كل المواقف مع النصوص الواردة فى المراجع المعتمدة... وإن أعوزتهم النصوص أو ضاق أمامهم الوقت، فلا مانع من كتابة "نقد ذاتى" سريع، يصاغ وفقا للمبادئ النظرية الثابتة طبعا... وذلك لتدارك أوضاع تنظيمية متدهورة، أو ارضاء لحليف جبهوى ذى نفوذ، أو للحاق ببعض المكاسب الحزبية، أو لحفظ ماء وجه بعض القادة، أو للأيقاع بآخرين، أو مراعاة لضرورات أمنية أو لرأى حزب شقيق...

... لقد أسهم الاحتراف التقدمى بالنصيب الأوفى فى المحنة الدائمة للطلائع اليسارية والحركة العمالية، وكان من اخطر آفاتها المزمنة.

... ...

وربما كانت الحركة الوطنية المجيدة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، عام 1946، هى المناسبة الوحيدة التى تمكن فيها العمال فى بلادنا من الاشتراك فى الحركة السياسية العامة بقيادة منهم، هى أصدق تعبيرا عنهم من كل من ادعى تمثيلهم، وكان ذلك فى اطار "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة"، التى هى - فى التاريخ المعاصر - أصدق قيادة عبرت، فى وقتها، عن الارادة السياسية للطبقة المتوسطة، وحققت أكبر قدر من وحدتها بارداتها الحرة، بجناحيها العمالى وغير العمالى، واتجاهاتها الدينية الاصلاحية، والعلمانية اليسارية، والوسطية التوفيقية، كان أعضاء اللجنة ينتسبون إلى كل الاتجاهات الفكرية السياسية للطبقة المتوسطة، ولكنه كان انتسابا ضعيفا وهامشيا فى الغالب، كان انجذابا للمبادئ والأفكار العامة، الوطنية والاشتراكية والدينية، أكثر منه التزاما حرفيا بهذا التنظيم أو ذاك، ومن ثمَّ كانوا أقل تأثرا بالكهانة العقائدية والأساليب التآمرية التى ميزت الزعامات التى كانت كامنة فالظل، فى مكامنها الحزينة والتنظيمية بعيدا عن الأعين. كان اعضاء

اللجنة من الشباب القيادى الذين خلقتهم اللحظة التاريخية الثورية، واختارتهم الجماهير العمالية والطلابية اختياراً مباشرا، ولم يكن صدفة أن لم يكن من بينهم أحد من القلب الكهنوتى للأحزاب والتنظيمات العقائدية، ومن بين الظروف المواتية الأخرى أن كان الطابع العام للانتفاضة الوطنية عفويا تلقائيا، بسيطا وصادقا، ومعبرا تعبيرا مباشرا عن الوجدان الشعبى والوعى الوطنى الجمعى، حيث تفرض الجماهير حضورها باندفاعها، وتلهب الجو بحرارتها، وتحمى القيادات التى اختارتها، وحيث تستطيع هذه القيادات أن تبادر بأشكال من التنظيم والأثارة شديدة الفعالية، كذلك كان تطور الأحداث سريعا متلاحقا انفجاريا، فوجئ به الجميع، فقد بدأ التحرك الجماهيرى بداية متواضعة باجتماع وطنى للطلبة فى حرم جامعة القاهرة صبيحة يوم 9 فبراير 1946 - يوم كوبرى عباس - كوبرى الجامعة حاليا -. ولكنها تصاعدت بمعدلات خرجت على كل التوقعات بعد خروج الطلبة فى مظاهرة، ثم الصدام مع البوليس - الذى كان تحت قيادة انجليزية -، وفتح الكوبرى أثناء مرور المظاهرة عليه، وسقوط عدد كبير من الشباب فى نهر النيل، واصابة المئات، والقاء القبض على مئات آخرين.. انفجر الموقف، استقطب حادث الكوبرى وجدان الأمة فى لحظة، فاندفعت تعبر عن الغضب والاستعداد للتضحية، ولم يكن فى الساحة سوى تلك الحفنة من الشباب الوطنى الذى ألهمته اللحظة النادرة إن الخلافات العقائدية ليست الا قشرة تخفى حنينا جارفا للقاء والفداء، بلا شروط أو حواجز، وراحوا ينظمون الجماهير التى سعوا إليها وسعت اليهم، ويحاولون أن يخلقوا من الطوفان المتفجر تيارا هادفا، قادرا على تجاوز العجز الذى وصلت اليه القيادات التقليدية للثورة الوطنية التى بقيت من ثورة 1919، كانت المهمة - ولا شك - أكبر من قدرة هؤلاء الأطفال، ولكنهم قاموا بأقصى جهد يستطيعه أطفال فى عمر الزهور وتجربة تحسب بالشهور... وحققوا أكبر النتائج المتصورة. لقد خلقت اللحظة التاريخية من هؤلاء الأطفال العملاق (المجهول) الذى هز أركان النظام، وأصابه اصابات لم يقم بعدها.. إلى أن أجهزت عليه - بعد سنوات قليلة - حركة شباب الجيش فى 23 يوليو، كانت حركة 1946 هى الكوبرى بين ثورة 19 وثورة 52. ومن المصادفات التاريخية ان كان حادث الكوبرى هو مفجرها، هكذا يرمز القدر - أحيانا - لمساره.

وصلت الحركة - حركة 1946 - إلى الذروة يوم 21 فبراير - يوم الجلاء - يوم أول اضراب سياسى شامل من نوعه فى بلادنا، شمل الاضراب كل المصانع والمدارس

والمعاهد والجامعات والمرافق، وطافت المظاهرات الوطنية فى شوارع كل العواصم والبلدان الصغيرة وغالبية القرى. وهو أيضا يوم أكبر صدام دموى من نوعه بعد ثورة 1919، بين المتظاهرين وجيش الاحتلال فى القاهرة... وبين يوم الكوبرى ويوم الجلاء، ولدت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة (مساء يوم 18 فبراير) بعد اتصالات سريعة بين ممثلى اللجان التنفيذية الطلابية المنتخبة، وممثلى نقابات "عمال مصر" (114 نقابة)، وهى اتصالات سقطت فيها الحواجز الطبقية الموهومة بين الجانبين، كما سقطت الفواصل العقائدية المفتعلة بين الجميع.

وذلك التاريخ (18 فبراير) هو تاريخ صياغة النداء الذى وجهته اللجنة الوليدة للأمة المصرية بالاضراب الشامل ـ بعد ذلك بأقل من ثلاثة أيام - وكانت الاستجابة من الأمة شاملة. وظلت الجماهير على حالها من التوتر الثورى، لتصل الحركة إلى ذروتها التالية، بالاضراب الشامل الثانى الذى دعت اليه اللجنة يوم 4 مارس -يوم الشهداء- وهو يوم الصدام الدموى الكبير بين الجماهير وقوات الاحتلال فى الاسكندرية.

فى ذلك التتابع الصاعق للأحداث، أخذ الجميع على غرة، بدءا من سلطة الاحتلال، ومرورا بالقصر وأحزاب الأعيان التقليدية، ووصولا إلى أحزاب وتنظيمات الطبقة المتوسطة، الدينية والماركسية وشبه الفاشية.

وكانت الحركة الوطنية الثورية فى 1946، من بين العوامل الداخلية، هى العامل الحاسم الذى أثر فى مصير تلك القوى كلها، وظلت آثارها وتداعياتها هى الرصيد الثورى الذى عاشت عليه مصر.. إلى أن تجاوزتها الموجة الثورية الوطنية التالية بعد 8 اكتوبر 1951، بعد ان ألغى النحاس باشا المعاهدة التى كان قد وقعها سنة 36، هذا، بينما الظروف العالمية كانت مواتية، فقد كانت الامبراطورية البريطانية قد دخلت فى دور التصفية النهائية.

الصدام الدموى بين الجماهير الوطنية وقوات الاحتلال فى القاهرة والاسكندرية، فى فبراير ومارس 1946، ترتب عليه - فيما ترتب - جلاء القوات البريطانية عن معسكراتها فى العاصمتين وبعض مدن الدلتا والوادى، فى العام التالى، 1947، لتتمركز فى قاعدتها فى منطقة قناة السويس وحدها، وتلك هى المرة الأولى، منذ بدء الاحتلال عام 1882، التى انسحبت فيها قوات الاحتلال من مواقع لها فى داخل مصر وتراجعت أمام الغضب الشعبى والهياج الجماهيرى - الأمر الذى لم

تحققه ثورة 1919 نفسها، ولم تتجاوزه الحركة الوطنية بعد ذلك الا باجلاء القوات البريطانية نهائيا من منطقة القناة عام 1956.

هذا أولا.

ويأتى بعد ذلك الملك.. الذى فقد فى أيام قليلة حصاد المغالطات التاريخية والحملات الاعلامية التى قادها الأخوان مصطفى وعلى أمين، وانشئت من أجلها دار صحفية كبرى، هى اخبار اليوم، مستثمرين الرصيد الزائف ليوم 4 فبراير 1942.. لسوء طالع فاروق أن جاء عيد ميلاده السادس والعشرين، 11 فبراير 1946، وقت أن كانت الموجة الثورية فى لحظات صعودها الصاعق غداة يوم كوبرى عباس، فى ذلك اليوم حطمت الجماهير الطلابية جميع الزينات والأضواء التى أقيمت فى الجامعة احتفالا بالمناسبة، كما حطمت جميع الرموز الملكية الأخرى، مثل الصور والتماثيل... وسرعان ما انتقلت العدوى إلى الجماهير الشعبية الأخرى فى الأيام التالية، فلم تبق على شئ منها أينما صادفتها... وفى مصر، اذا هبط الفرعون من عليائه مرة، فمن الصعب أن يعود إلى مكانه مرة أخرى، وهكذا، من وقتها وفاروق، ومؤسسته فى عابدين، على المنحدر الذى انتهى بخلعه فى يوليو 1952.

وتأتى بعد ذلك أحزاب الأعيان.

كانت هذه الأحزاب، أثناء الحرب، قد جمدت كل نشاط فيه شبهة معاداة للانجليز، بل انها راحت تتنافس على ارضاء الحليفة الكبيرة، واثبات حسن النية والاخلاص فى التعاون لنصرة قضية الحلفاء، ـ فى ذلك قبل النحاس باشا الحكم بالطريقة غير المشرفة التى حدثت يوم 4 فبراير... وبعده بثلاث سنوات أقدم أحمد ماهر باشا، الذى خلفه فى حكومة من أحزاب الأقلية، على إعلان الحرب على ألمانيا - الأمر الذى كلفه حياته.. ـ وظلت قيادات هذه الأحزاب تزعم انها ترجئ اتخاذ أى موقف وطنى إلى يوم انتهاء الحرب.. فلما انتهت هذه الحرب أيضا بأنتصار الحلفاء فى ربيع 1945، ظهرت هذه الأحزاب أمام الأمة وكأنها فوجئت، ظل المصريون شهورا ينتظرون أن تتحرك الحكومة، أو أن تقول كلمة.. ولكن لا شئ، ولم يملك الناس انفسهم من المقارنة بين هذا الصمت المتهالك وبين موقف سعد زغلول ورفاقه عندما انتهت الحرب العالمية الأولى، وقت أن كان اولئك الزعماء مجرد أفراد ـ فلم يكن الوفد قد تكون بعد ـ وكانت بريطانيا ما تزال هى الامبراطورية المرهوبة. وتعالت أصوات الصحافة الوطنية المعارضة،

التـى قـام بالـدور الأسـاسى فيهـا يسـار وفـدى نشـيط ـ كان محمـد منـدور وعزيـز فهمـى هـما أبـرز عنـاصره ـ كـما بـدأت التحـركات الطلابيـة الأولى فى صيـف 1945، بمبادرة مـن حفنـة طـلاب ـ شـكلوا فيـما بعـد نـواة اللجنـة الوطنيـة للعـمال والطلبـة -... تحـت هـذه الضغـوط، اخـيرا - وبعـد عـشرة شـهور مـن انتهـاء الحـرب، تقدمـت حكومـة النقـراشى باشـا بمذكـرة هزيلـة تطالـب بريطانيـا بفتـح بـاب المفاوضـات حـول اعـادة النظـر فى معاهـدة 36.. تلـك المذكـرة التـى أثـار نشرهـا غضـب الـرأى العـام، فتجمـع الطلبـة تجمعهـم الشـهير يـوم 9 فبرايـر، وخرجـوا فى مظاهرتهـم التـى اشـتبكت مـع البوليـس فى موقعـة الكوبـرى... وهكـذا انفجـر الموقـف. وسـقطت الحكومـة بعـد يـوم واحـد، فى 10 فبرايـر.. ولم تجـد الرجعيـة المتواطئـة مـع الاحتـلال، والأحـزاب المفلسـةالتى كانـت تشـكل الحكومـة وتحتـل غالبيـة مقاعـد البرلمـان، لم تجـد الا فـردا بغـير حـزب، هـو إسـماعيل صدقـى، تـوكل اليـه مهمـة قيـادة السـفينة الجانحـة فى العاصفـة.

ومـن وقتهـا أيضـا وهـذا الفريـق مـن السياسـيين دخـل مـع الملـك وقـصره فى طـور العـد التنـازلى نحـو النهايـة.

وفى المقابـل، لم يتحـرك الوفـد. ظلـت قيادتـه تقـف موقـف المتفـرج، مكتفيـة بحمـلات صحفيـة، غالبيتهـا بمبـادرات شـخصية تقـوم بهـا عنـاصر يسـارية ليسـت فى صلـب قيادتـه. وكان لسـان حـال الحـزب ألا حـل للقضيـة الوطنيـة، التـى تلخصـت حينـذاك فى شـعارى الجـلاء ووحـدة وادى النيـل، إلا بعـودة الوفـد إلى الحكـم، ليـشرع فى حلقـة جديـدة مـن مفاوضـات كان النـاس قـد كفـروا بجدواهـا.

وفى التحـركات الطلابيـة الأولى، فى صيـف وخريـف 1945، لم يعـن الوفـد الا بارسـال اثنـين أو ثلاثـة "مراقبـين". فلـما انفجـر الموقـف يـوم الكوبـرى،

فوجئـت القيـادة الوفديـة، بـل فوجئـت مـصر كلهـا، بـأن فى الشـارع المـصرى حركـة سياسـية جماعيـة كاسـحة الوفـد بعيـد عـن قيادتهـا، عاجـز عـن ملاحقتهـا، والمحـاولات المتعجلـة التـى قـام بهـا الطلبـة الوفديـون، الذيـن لم ينشـطوا إلا متأخريـن، لم تفلـح فى السـيطرة عـلى الحركـة الطلابيـة، وظلـت الحركـة عـلى اسـتقلاليتها وعزوفهـا عـن إنتهـاج الخـط الحـزبى الـذى كان الوفـد يحبـذه. هـذا، بينـما القيـادات العماليـة التي اشـتركت، فيـما بعـد، في اللجنـة الوطنيـة للعـمال والطلبـة، كانـت بعيـدة تمامًـا عـن أى نفـوذ وفـدى.. واضطـر الطلبـة الوفديـون، فى اللجنـة التنفيذيـة للجامعـة، اضطـروا إلى

التعاون مع اليسار الماركسى من أجل أن يحصل مرشحهم (عبد الرؤوف أبو علم ـ كلية الزراعة) على أصوات مساوية لأصوات مرشح اليسار (لطيفة الزيات ـ كلية الآداب) ـ 47 صوتاً، وهو عدد يقل قليلاً عن عدد الأصوات التى حصل عليها مرشح الأخوان المسلمين (جمال السنهورى ـ كلية الحقوق) ـ 50 صوتاً. بينما حصل المرشح المستقل (فؤاد محيى الدين ـ كلية الطب) على أكبر عدد من الأصوات، معبراً بذلك عن النزوع الاستقلالى الغالب على الحركة الطلابية، والحركة الوطنية عمومًا، وإحساسًا بهذا النزوع الاستقلالى، فضلت القيادات الطلابية الأكثر نفوذًا والأكثر تعبيرًا عن الاتجاهات العقائدية أو الحزبية أن لا تكون فى موقع الصدارة، وأبرزهم حينذاك (مصطفى مؤمن عن الأخوان ـ كلية الهندسة)، و(مصطفى موسى عن الوفد ـ كلية الهندسة)، و(سعد زهران عن اليسار ـ كلية العلوم).

لم ينس الشباب الوفدى دروس حركة 46، ومن أهمها أنهم بدأوا يتبينون أن الفروق أخذت تضيق بين القيادة الوفدية فى مجموعها وبين سائر قيادات أحزاب الأعيان الأخرى، بحيث لم تعد هذه الفروق جوهرية. ولم تعد شخصية النحاس باشا قادرة على منع تكتل تيار يسارى متميز فى جسم الوفد، فقد كان مصطفى النحاس، من بين قادة الوفد التاريخيين الكبار، أقربهم إلى وجدان الجماهير، وأكثرهم تجاوبًا مع الطبقة المتوسطة واستجابة لمطالبها، كما كان الرجل ـ وهذا من أسرار قوته كزعيم لا ينازع للوفد ـ من أقدر القيادات على المحافظة على تقاليد زعامة الأعيان للريف، ومن ثمّ، فقد تمكن دائمًا من المحافظة على الوحدة ـ الصعبة على الفهم أحيانًا ـ بين الجناحين الكبيرين للوفد : كبار الملاك الزراعيين، والطبقة المتوسطة الريفية والمدينية معًا، وتلك القدرة كانت هى السر فى تفوق الوفد فى جميع الانتخابات التى لم تتدخل الإدارة والشرطة لافسادها إفسادًا تامًا، لذلك فإن النحاس، بقدر ما كان قويًا ومحبوبًا فى حزبه وشعبه، كان هدفًا لأحقاد وحملات شخصية لا تتوقف من جانب أحزاب الأقلية التى عبثا حاولت أن تتفوق على الوفد فى الريف، وكذلك من جانب أحزاب الطبقة المتوسطة التى كانت تغبطه على القدرة على احتواء فئات اجتماعية تعتبرها جمهورها الطبيعى.

ولكن غلبت العوامل التى جعلت قبضة الوفد على الطبقة المتوسطة تضعف، وبذرت، فى 1946، بذور ما عرف فيما بعد بأسم الطليعة الوفدية، وهى

تكتل يسارى فى جسم الوفد تزعمه مصطفى موسى، ونشط خاصة بعد أن تآكل نفوذ النحاس باشا مع الزمن، وطغى الاتجاه المحافظ الممالئ للسراى الذى مثله فؤاد سراج الدين، وشرع يزحف حثيثًا للسيطرة على القيادة الوفدية فى حكومته الأخيرة، 1950 - 1952.

أما الحزب الوطنى فقد أوصلته التطورات إلى أن أصبح أقل أحزاب الأعيان شأنًا عند إنتهاء الحرب العالمية الثانية. كان الوفد، عند تأسيسه، قد اجتذب عددًا من أهم قادته فى غمرة ثورة 1919 ـ من بينهم مصطفى النحاس نفسه ـ وكذا حافظ عفيفى، آخر رئيس لديوان الملك فاروق ـ وإنما ظلت فى الحزب بقية متمسكة بشعار "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"... إلى أن تغلب فى القيادة جناح، بقيادة حافظ رمضان باشا، قبل الاشتراك مع زعامات الأحزاب الأخرى التى وقعت معاهدة 1936. واستمر خط الحزب فى الهبوط إلى أن قبل التكتل، ضد الوفد، مؤتلفًا مع أحزاب الأقلية الموالية للقصر.

فلما جاء النهوض الوطنى عام 1946 برزت حفنة من شباب الحزب تحاول إحياء التقاليد الراديكالية المعادية للانجليز. وتم عزل حافظ رمضان وأشياعه، ولكن لم تجد أية محاولة لاحياء الحزب ليعود ذا نفوذ وتأثير ذى وزن.. إلى أن كان المد الثورى التالى، فى 1951، حيث تمايز جناح راديكالى باسم "اللجنة العليا الحزب الوطنى" بزعامة فتحى رضوان، أعاد الاعتبار إلى اسم الحزب، وأصدر صحيفة "اللواء الجديد" التى ساهمت بدور هام فى تعبئة الجماهير ضد النظام القائم.

وكان حزب مصر الفتاة أكثر الأحزاب غيابًا عن الساحة عند إنتهاء الحرب العالمية. فلم يكن قد أفاق من الشلل الذى أصابه بهزيمة ألمانيا وإيطاليا، مع تغيب أهم قياداته فى المعتقل معظم سنوات الحرب. ولم يعد الحزب إلى الحياة إلا فى تاريخ متأخر من عام 1947. ساعد على ذلك النهوض الوطنى المعادى لبريطانيا، فعاد ـ كشأنه دائمًا ـ يرفع رايات النضال ضد الاحتلال والفساد، وظهر له دور وطنى وقومى فى الدعوة للتطوع، ثم بإرسال متطوعين فعلاً، للإشتراك فى الدفاع عن فلسطين فى الفترة 1947 ـ 1949. كذلك كان موقفه من السراى قد نضج، بعد أن أزالت حركة 1946 كل الأوهام حول فاروق والسراى، ولكن قيادة الحزب عمدت إلى التلويح، فى وجه بريطانيا، بالالتجاء إلى معونة الولايات المتحدة، غير

أن هـذه اللعبـة لم تسـتمر طويـلاً، خاصـة بعـد أن إتضـح الدعـم الأمريـكى لإسرائيـل... فاتجـه الحـزب بعـد ذلـك إتجاهًـا لا لبـس فيـه نحـو اليسـار، وأسـمى نفسـه الحـزب الاشـتراكى، وقامـت بينـه وبـين تشـكيلات مـن اليسـار الماركسـى صـلات، والتقـى معهـا فى نقـاط برنامجيـة هامـة، ولعبـت صحافـة الحـزب، فى العـام السـابق عـلى حريـق القاهـرة، الـدور الأول فى تعبئـة الوجـدان الشـعبى ضـد الانجليـز والقـصر والأحـزاب الحاكمـة، كذلـك اشـترك الحـزب بـدور هـام فى حركـة المقاومـة المسـلحة، التـى قتلـت وهـى فى المهـد ـ ولم تسـتمر سـوى أسـابيع، بعـد إلغـاء المعاهـدة فى أكتوبـر 1951 إلى حريـق القاهـرة، فى ينايـر 1952 ـ ولكـن، عـلى الرغـم مـن التوزيـع الواسـع لصحافـة الحـزب، والشـعبية الكبـيرة التـى كسـبها فى أقـل مـن عامـين، إلا إن كـثرة تغـير مواقـف الحـزب، وشـطحاته ومفاجآتـه غـير المحسـوبة، جعلـت الاسـتقامة السياسـية لقيادتـه موضـع تسـاؤل فى المجتمـع السـياسى.

بقيت التشكيلات العقائدية، الدينية والماركسية.

نعـود نؤكـد أن القـادة الشـبان للحركـة الطلابيـة عـام 1946، وأعضـاء اللجنـة الوطنيـة للعـمال والطلبـة، الذيـن عـرف عنهـم إنتـماء عقائـدى، دينـى أو ماركسـى، لم يكونـوا عنـاصر قياديـة فى داخـل تنظيماتهـم، ولم يكـن ذلـك صدفـة، فقـادة الإخـوان حينـذآك لم يكونـوا عـلى قـدر مـن التسـامح يجعلهـم قادريـن عـلى التضامـن مـع قيـادات ذات إنتـماء ماركـسى، كانـوا يضيقـون بمـن يختلـف معهـم ويهرعـون إلى السـلاح الخطـر المألـوف : الإتهـام بالكفـر والالحـاد... ومـن الجانـب الآخـر، فى قلـب التنظيـمات الماركسـية وعـلى قمتهـا، قيـادات أجنبيـة أو شـبه أجنبيـة يغلـب فيهـا اليهـود. وهـؤلاء مـا كانـوا ليستسـيغوا، أو ليعرفـوا، كيـف يمكـن أن يضعـوا أيديهـم فى أيـدى قيـادات يصفونهـا بــ "الفاشـية"... الحـق أن تلـك الزعامـات التـى كانـت كامنة فى الظـل، مـن الجانبـين، هـى التـى غرسـت بـذور الإنقسـام والتمـزق المأسـاوى فى صفـوف طلائـع الطبقـة المتوسـطة، بـين الاتجاهـات الدينيـة والعلمانيـة، وبـين الجنـاح العـمالى وغـير العـمالى، وبـين الطلائـع النسـائية والرجاليـة... ومازالـت الطبقـة المتوسـطة تجنـى مـن الثـمار المـرة لتلـك البـذور الضـارة حتـى اليـوم.

أمـا القـادة الشـبان الذيـن أثمرتهـم الحركـة الوطنيـة والانتفاضـات التلقائيـة فلـم يكونـوا إلا عـلى هامـش التشـكيلات العقائديـة، لم يكـن يزيـد العمـر العقائـدى لأى واحـد منهـم عـن عـام أو إثنـين. وكانـوا ينحـدرون مـن نفـس الأصـول الاجتماعيـة،

وتجمعهم هموم حياتية ومشكلات نضالية متشابهة، فى مدرجات الجامعة، كما فى خط الإنتاج، هؤلاء الشبان ألهمتهم ما فى الإسلام أو فى الاشتراكية من مثل عليا أخلاقية وحضارية وإنسانية، وملاحم نضالية، دون أن ينحدروا إلى ظلمات التعصب العقائدى أو ضيق الأفق الحزبى، هؤلاء الشبان هم الذين حققوا فى تلك الأسابيع المعدودة من عام 1946، ربما للمرة الوحيدة فى تاريخ مصر المعاصر قيادة منزهة عن الغرض، قادرة على توحيد الطبقة المتوسطة بإرادة حرة نابعة من ضمير وطنى، وبتجرد وطهارة لا تتوفر إلا لشباب فى عمر الزهور، وبالإستناد إلى جماهيرها الطبيعية التى غمرت الشارع السياسى بنار ثورية ظلت حرارتها واشعاعاتها تغذى الحركة الوطنية سنوات عديدة، وستظل ذكراها باقية فى الوجدان الجمعى للأمة، ما بقيت هذه الأمة.

ومن المفارقات التاريخية النادرة أن هؤلاء الشبان الصغار حققوا تلك المعجزة، على نحو ما، فى غفلة من زعاماتهم العقائدية.

الزعامات العقائدية التى كانت كامنة فى الظل فوجئت بالإنفجار الثورى فى 9 فبراير، بعد موقعة الكوبرى.. وفقدت مجرد القدرة على متابعة الأحداث فى الأيام التالية التى كانت المبادرة السياسية الكاملة فيها، على نطاق مصر كلها، قد أصبحت فى أيدى القيادة الطلابية أولاً، ثم فى أيدى اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بدءًا من 18 فبراير، وربما كان أكثر ما فاجأ الزعماء العقائديين الكبار، الكامنين فى الظل، هو بروز قيادات للشارع السياسى المتفجر لم تكن فى الحسبان، وأن عددًا لا بأس به من هذه القيادات الشابة - ويا للعجب - محسوبون على هذه الزعامات العقائدية، منتسبون أو متعاطفون على تنظيماتهم وتشكيلاتهم، دون أن يكون للزعماء رأى فيما يفعل هؤلاء الشبان، وفيما يدعون إليه من اضرابات أو ما يكتبون من بيانات ويطبعون من منشورات، وما يقودون من مظاهرات واجتماعات.. بل دون أن يكون لدى الزعماء مجرد علم !!..

بعد ذهول الصدمة الأولى، ووصول الحركة الوطنية إلى ذروتها التارخية فى يوم الجلاء يوم 21 فبراير، أدركت الزعامات العقائدية، الكامنة فى الظل، مدى خطورة الموقف، فتفرغت لتكريس كل جهدها لمحاولة الإمساك ببعض الزمام فى أحداث خرجت على كل التوقعات، وأخلّت بكثير من المعايير والحسابات، ولم يكن لها من وسيلة إلا محاولة إحكام القبضة على أطرافها "المتطرفة" والشاردة، وقد تم

للزعامات ما أرادت بسهولة مع الأسف، فما كان هؤلاء الشبان الحديثو العهد "بالسياسة"، بكل ما كان يتملكهم من رهبة تجاه زعامات تحيط نفسها بهالة من الغموض أو القدسية... ما كان لهؤلاء الأطفال أن يكونوا فى وزن زعامات عتيدة مدربة... وبقدر ما عادت الزعامات العقائدية الكامنة فى الظل تحكم قبضتها على شبابها الشارد، بقدر ما دبّ الشقاق والانقسام والتمزق فى صفوف القيادة الطلابية واللجنة الوطنية.

لم تفلح القيادات الشابة فى جذب التنظيمات والتشكيلات العقائدية لخدمة الحركة الجماهيرية، وتوظيف الإمكانيات الكبيرة لتنظيماتها لتغذية الحركة الوطنية واستمراريتها، على العكس. نجحت الزعامات العقائدية، الكامنة فى الظل، فى فرض "خطها"، فى تحويل الطاقات البشرية والمادية لتشكيلاتها وتنظيماتها من أجل الحصول على مكاسب حزبية أو حلقية ضيقة، ولو على حساب التشكيلات الأخرى... أى بالنيل من وحدة القيادة السياسية للحركة الوطنية. أو - باختصار - بالقضاء على الحركة نفسها.

بدلاً من دعم الالتحام بالحركة الجماهيرية، ومساندة القيادات الشابة التى اختارتها الجماهير، إتجهت الزعامات العقائدية، الكامنة فى الظل، إلى عقد اتفاقات وصفقات سياسية خارج الحركة الجماهيرية، وبعيداً عن قيادتها الشابة، بل من خلف ظهورها.

شرعت صحف الأخوان ومنتدياتهم تشيع فى شبابها ذعرًا من التعاون مع اليسار، وقبلت قيادتهم الدخول فى مفاوضات مع إسماعيل صدقى باشا تمخضت - فيما تمخضت - عن الإشتراك مع بعض التشكيلات الهزيلة شبه الحكومية فى تكوين ما سمّى اللجنة القومية، التى شرعت أجهزة الإعلام الحكومية تذيع بياناتها صباح مساء، ولم يكن لها من مهمة إلا إشاعة البلبلة فى صفوف الجماهير وصرفها عن الالتفاف حول اللجنة الوطنية أو الاستجابة لنداءاتها، وكذا إشاعة الانقسام فى صفوف القيادات الطلابية، والشقاق فى صفوف اللجنة الوطنية وفروعها التى بدأت تتشكل تلقائيًا، وأعقب ذلك، دون إبطاء، انسحاب الإخوان من اللجنة الوطنية للعمال والطلبة أولاً، ثم عرقلة نشاط القيادة الطلابية، وشلها تماما فيما بعد.

وكانت إثارة الذعر من اليسار مهمة سهلة نسبيًا، أما الطلبة والشباب الوفديون، الذين تمسكوا بالنضال تحت راية اللجنة الوطنية، وتعاونوا تعاونًا جادًا مع اليسار الماركسى، وازدادوا عزمًا وتصميمًا على المضى فى الحركة خاصة بعد تولى إسماعيل صدقى رئاسة الحكومة.. نقول إن هذا الفريق من قيادة حركة 1946 لم يكن من السهل إتهامه بالكفر والإلحاد، ومن ثمّ كانت المعركة ضده لابد وأن تتخذ طابعًا سياسيًا واضحًا بلا تمويه، الأمر الذى كلّف قيادة الإخوان الكثير، لقد كانت المعركة التى شرعت الجماعة تشنها ضد الشباب الوفدى من بين أهم العوامل التى أدت إلى حدوث أول إنقسام كبير فى صفوف الإخوان فى العام التالى، 1947، والذى إنشق فيه على الجماعة فريق كبير على رأسه وكيل الجامعة نفسه، أحمد السكرى. فقد كانت نسبة غير قليلة من قواعد الأخوان المسلمين تتشكل من جمهور طبقة متوسطة متعاطفة تاريخيًا مع الوفد أو مؤيدة له، وكانت تتصور الإخوان جماعة دينية بعيدة عن السياسة، وفوجئت بذلك الموقف ولم تستطع له هضمًا أو تفسيرًا، فآثرت الابتعاد. وزال كل لبس بعد قليل، بعد أن أسرعت حكومة صدقى باشا تستثمر الإنقسام والشلل الذى أصاب قيادة الحركة الوطنية فإلتقطت أنفاسها، وشرعت تشن حملة قمعية متصاعدة ركزت فيها خاصة على الشباب الوفدى واليسار الماركسى، بدأت أولاً - فى شهر أبريل - بمنع اجتماع سياسى دعت إليه اللجنة الوطنية فى ذكرى توقيع معاهدة 1899 الخاصة بالسودان، مع اعتقال عشرات من القيادات الطلابية التى دعت إلى هذا الاجتماع فى جامعة القاهرة، وهكذا إستعادت الرجعية الموالية للاحتلال عنصر المبادرة، فلما جاء الصيف، والجامعة فى عطلة، والحركة فى انحسار تام، شنت حكومة صدقى أول حملة من نوعها فى تاريخنا السياسى المعاصر، أول حملة إعتقالات وإتهامات ومصادرة شاملة للحريات، ألقت فيها القبض على بضع مئات من الوطنيين (الوفديين واليساريين أساسًا) تحت لافتة مكافحة الشيوعية، وأغلقت أكثر من عشر صحف ومجلات وطنية معارضة، من بينها صحيفة يومية كبرى هى صحيفة "الوفد المصرى"، التى كان يرأس تحريرها الدكتور محمد مندور، هذا، بينما أطلقت لجماعة الأخوان المسلمين حرية النشاط والنمو الطليق، ومنحت قيادتهم تسهيلات كبيرة مكنتهم من إصدار صحيفة يومية.

غير أن ذلك الإتفاق الذى تمّ بين صدقى باشا وبعض قيادات الجماعة كان ضد طبائع الأمور.

فبغض النظر عن وعى أبطال اللحظة كانت قد جدّت حقائق لا تناسبها الممارسات السياسية المألوفة، كان الأعيان عمومًا، وخاصة فريقهم الأكثر ولاء للإنجليز والقصر، كانوا فى أزمة، بل كانت هى أزمة الأحتضار، وكانت الطبقة المتوسطة، من الجهة الأخرى، قد كبرت ونمت، ونمت معها تطلعاتها وطموحها. ولم تكن جماعة الإخوان المسلمين مجرد واحدة من جماعات الضغط التى تفرزها الطبقة المتوسطة فى لحظات المد الثورى، فيستطيع هذا الفريق أو ذاك من الأعيان أن يحتويها فيستخدمها سلاحاً ضد فريق آخر حين يريد، ثم يأمرها بالانسحاب من الميدان فتطيع لا. كذلك لم يعد الأمر فى داخل الإخوان رهنًا بإرادة حفنة محدودة العدد من القادة، مهما دلت ظواهر الأمور على قوة هؤلاء القادة وسلطاتهم غير المحدودة لا، وإنما خلقت القواعد الكبيرة العدد قواعد حركة داخلية، إن لم يستجب القادة لضروراتها فقدوا القدرة على السيطرة.

لقد نمت القوة العددية للجماعة فى الفترة 1946 ـ 1948 نموًا مهولاً، ربما لم تصل إليه الجماعات الإسلامية فى تاريخها الحديث كله، وحين بدأ الغزو الصهيونى لإغتصاب فلسطين بالحرب الشاملة ضد الفلسطينيين أولاً، فى 1947، ثم ضد الدول العربية بعد مايو 1948، كان للشباب المتحمس فى الجماعة موقف "متطرف" طبعًا (بالمقياس السلطوى الحكومى)، وإذ إتجه عدد متزايد من الشباب إلى التدريب على حمل السلاح، ومحاولة التطوع للاشتراك فى الدفاع عن فلسطين.. بدأ يدرك تواطؤ السلطة الحاكمة مع الخصوم الطبيعيين للإسلام ولفلسطين.. ومن ثمّ بدأت بعض أعماله تتجه للداخل، وهكذا اختل التداعى الهادئ للعلاقات الحسنة التى كانت قد سادت بين ذلك الفريق من الأعيان والجماعة، وبعد أن فشلت كل المحاولات "الودية" التى بذلت لتحجيم نشاط الجماعة، والسيطرة على جناحها المسلح الخفى، المتعاظم القوة، لجأت حكومة النقراشى باشا ـ دون أن تدرك الخطورة الكاملة لما تفعل ـ إلى إصدار أول قرار فى تاريخ الجماعة بحلها، الأمر الذى أعقبه ـ بعد أسابيع معدودة ـ اغتيال النقراشى باشا، وردّ خلفه، إبراهيم عبد الهادى باشا، بحملة إرهاب كاسحة ضد الجماعة، كان من ضحاياها ـ الشيخ المرشد العام ـ حسن البنا نفسه، فى فبراير 1949.

وقد نمت حملات الإرهاب الحكومى ضد الإخوان فى ظل الأحكام العرفية التى أعلنت عند نشوب الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، فى 15 مايو 1948،

وفى ظلها أيضًا فتحت المعتقلات ليتغيب فيها الوطنيون والديمقراطيون من كل الاتجاهات، مع تركيز خاص على الشباب الوفدى واليسار الماركسى.

والملاحظ أنه حين بدأت حكومة صدقى باشا الحملة ضد اليسار، باركت قيادة الإخوان هذه الحملة، وحاولت أن تستفيد منها، بل أنها إستفادت بالفعل، غير أن الأمور سرعان ما تطورت ليشمل الإرهاب الإخوان أنفسهم، بل ليكونوا هم هدفه الأول، والحق أن المأساة ليست قاصرة على قيادة الجماعات الدينية وحدها، فما من مرة بدأت السلطة الحاكمة حملة ضد الجماعات الدينية إلا وباركتها غالبية القيادات اليسارية، وحاولت أن تستفيد منها. غير أن الحملات سرعان ما تتسع لتنصب على رؤوس اليسار، وليكون نصيبه من الإرهاب، بالقياس إلى وزنه النسبى فى الساحة السياسية أشد وأنكى.

هكذا دخلت الجماعات الدينية والتنظيمات اليسارية سباقًا الكل فيه خاسرون، كل طرف يحاول أن "يستفيد" من الاستبداد السلطوى، متصورًا أن ذلك يدمر الطرف الآخر فيخلو له الجو، ولا يدرى أنه يساعد على تدمير ذاته هو أيضًا، كذلك هو سباق من أجل تضخيم غول الاستبداد السلطوى... بينما السلطة أيضًا - بالمنظور التاريخى الحضارى - هى الخاسرة فى هذا السباق الملعون، خاصة إذا كانت سلطة وطنية.

من بين دلالات هذا السباق الانتحارى بين تشكيلات الطبقة المتوسطة هو عدم توفر القدر اللازم من الثقة بالذات، ثقة الأطراف المعنية، فى السلطة وخارجها، فى قدرتها على التفوق فى جو ديمقراطى، بالعمل الصبور الواثق من أجل تثقيف جمهورها الطبيعى، وكسب ولائه بقوة الإقناع، والمثل الحسن، والقدرة على قيادة معارك سياسية ونقابية وتعاونية وحياتية ناجحة. إن النزوع الاستبدادى لطلائع الطبقة المتوسطة فى بلادنا، سواء فى الحياة السياسية العامة، أو تجاه السلطة، أو فى الحياة التنظيمية الحزبية الداخلية، لهو أكبر دليل على افتقار هذه الطلائع النضج السياسى، وعدم تحققها من أن قضية الديمقراطية كل لا يتجزأ، وأن لابد من الدفاع عن حق الجميع فيها... أن ذلك دليل على أن هذه الطلائع ماتزال غير مؤهلة لقيادة حياة ديموقراطية حقة... ومن ثمّ وجب أن تجعل الأولوية لإعادة تثقيف وتأهيل نفسها.

... ...

بقيت التنظيمات الشيوعية، وكانت غالبية القيادات من اليهود، الأجانب وأنصاف الأجانب، التى حارت واختلفت فى تفسير ما يحدث. قيل - فيما قيل - إن المراجع النظرية تشير إلى أن المرحلة الثورية التى تمر بها مصر هى مرحلة الثورة البورجوازية الديموقراطية، وهى ثورة وطنية تستهدف - أولاً - القضاء على السيطرة الإمبريالية... فهل ما كان يحدث - حينذاك - هو الثورة البورجوازية الديموقراطية ؟ لا. لماذا ؟ لأن الشروط غير متوفرة، فهذه الثورة تتطلب تحالفًا ثوريًا بين الطبقة العاملة والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية ذات التوجه الديموقراطى. وتقول النظرية بوضوح : إن الثورة يجب أن تكون تحت قيادة الطبقة العاملة وأن الشيوعيين هم الوحيدون الذين يمثلون الطبقة العاملة، ومن ثمّ فالقيادة يجب أن تكون للشيوعيين، ولكن الشيوعيين ليسوا موحدين فى حزب شيوعى قادر على قيادة الطبقة العاملة، هم مايزالون منقسمين إلى عدة تنظيمات وحلقات صغيرة معزولة عن جماهير العمال... يترتب على ذلك أنه لكى تتطور الحركة الوطنية (حركة 1946) إلى ثورة حقيقية، فلابد أولاً من توحيد الحركة الشيوعية، لابد من توحيد المنظمات الشيوعية، وكان أهمها حينذاك اثنتان : إسكرا، وقد سميت هكذا تيمنًا بالاسم الذى إختاره لينين لأول منظمة أسسها فى سان بطرسبرج، عاصمة روسيا، فى مستهل هذا القرن، وكانت تحت قيادة شوارتز، والمنظمة الثانية هى "الحركة المصرية للتحرير الوطنى" - ح م، اختصارًا - وكانت تحت قيادة هنرى كورييل، أشهر المشاهير فى تلك القيادات.

وتوحيد التنظيمات الشيوعية هو الخطوة الضرورية لتكوين الحزب الشيوعى الذى يمكن أن يدخل، بعد تكوينه، فى تحالف مع ممثلى الفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية... الخ الخ... هكذا كانت تدور المناقشات والمساجلات، وتكتب المقالات المطولات، وتقتبس الجمل والعبارات من الكتب والمجلدات بمختلف اللغات، ومنها - أحيانًا - اللغة العربية...

ولكن ماذا عن هذه الحركة التى يصطدم فيها عشرات الآلاف من المتظاهرين بقوات الاحتلال وقوات الأمن، ويسقط منهم الضحايا والشهداء بالعشرات ؟..

آه.. هذه الحركة حركة وطنية عظيمة.. حركة وطنية رائعة.. وهى دليل على أن الشعب المصرى شعب مناضل ويجب أن نحييه.. عاش كفاح الشعب المصرى.. وهذه الحركة ستخلد فى تاريخ الشعب المصرى باعتبارها جزءًا من الثورة

البورجوازية الديموقراطية.. خطوة على الطريق الثورى.. ولكنها ليست الثورة.. ولأن الشروط غير متوفرة لتحولها إلى ثورة فلا مستقبل لها.. كيف يمكن أن يكون مستقبل لثورة وطنية ديموقراطية - فى الظروف الراهنة لتطور الثورة البروليتارية العالمية - دون توفر قيادة واعية، دون وجود حزب شيوعى يقود نضال الطبقة العاملة، التى هى وحدها المؤهلة لقيادة الثورة...

هكذا كان يدور الكلام...

ولكن ماذا عن هذه اللجان التى تشكلت فى الجامعة، وماذا عن اللجنة الوطنية للعمال والطلبة التى تكونت فى لحظة، ووجهت نداء بالإضراب العام فأستجاب الناس لها.. بل أكثر من إضراب..

آه. هذه حركة تلقائية. واللجان تكونت بطريقة تلقائية. وهى ليست منظمة تنظيمًا كافيًا. ونسبة غير قليلة من أعضائها عناصر فاشية (يقصدون الأخوان) يجب كشفهم أمام الجماهير وعزلهم عنها، (وهكذا غذت القيادات التنظيمية عوامل الإنقسام والتمزق فى القيادات الطلابية واللجنة الوطنية).

ولكن فى هذه اللجان أغلبية ليست من جماعة الأخوان المسلمين...

آه. العناصر التقدمية التى فى هذه اللجان (يقصدون اليسار) ليست على درجة من التكوين، مازالت مبتدئة لا تعرف كيف يمكن أن تستفيد من النظرية الثورية فى توجيه الحركة وقيادتها.. دعوا هؤلاء الشبان الصغار يجربون أقصى ما يستطيعون فى تلك اللجان.. أما "كوادرنا" الأساسية فيجب أن تنشغل بما هو أهم.

بماذا ؟

بتجنيد العناصر الثورية التى أظهرتها الحركة (يقصدون الحركة الوطنية) وتنظيمهم فى التنظيمات الشيوعية ليكونوا أعضاء منظمين فى المنظمة الشيوعية وملتزمين بقرارات القيادات. وإن كان للحركة الوطنية من فضل يذكر (فى نظر هذه القيادات) فهى أنها أظهرت هذه العناصر الجديرة بالاهتمام والتجنيد للحركة (يقصدون الحركة الشيوعية)... هذه هى المهمة الأولى، وإلى جوارها يجب الكفاح من أجل توحيد الحركة الشيوعية، توحيد المنظمات منظمات كورييل وشوارتز ومارسيل إسرائيل... إلخ... وفى الأثناء يجب دعم الاتصالات بالشباب الوفدى بإعتباره الحليف الطبيعى، وإن أمكن تنسيق النضال الجماهيرى معه،

ولكن الاتصالات يجب أن تتم على مستوى عال، عن طريق "كوادر" قيادية قريبة من القمم (كورييل وشوارتز) لا عن طريق تلك العناصر غير الواعية التى فى اللجان الموجودة فى الجامعة أو التى كوّنت اللجنة الوطنية !!..

هكذا...

وقد تمّ بالفعل، فى الشهور التى أعقبت فبراير 1946، تجنيد وتنظيم عدد كبير من طلاب الجامعات والثانويات، ومن المثقفين، وكذلك كثير من العمال المستنيرين الذين برزوا فى الحركة الوطنية والنقابية. وربما لم يصل الشيوعيون - عددًا - إلى مثل ما وصلوا إليه فى 1946 - 1947. كذلك تمّ توحيد منظمتى شوارتز وكورييل فى أبريل 1947 فى تنظيم واحد من "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى" - حدتو، اختصارًا. وإنما أرجئ تكوين الحزب الشيوعى لأسباب، من بينها وجود منظمة، وربما أكثر، خارج حدتو، ولابد من توحيدها أولاً.

ولكن، بينما المنظمات تقوى نفسها، وتضاعف عددها، كانت الحركة الوطنية قد بدأت تنحسر، ثم تهبط إلى أدنى نقطة لها فى صيف 1946، فى عطلة الجامعة والمدارس، وكانت حكومة صدقى قد إلتقطت أنفاسها، ثم ملكت زمام المبادرة وشنت حملتها الشهيرة فى 11 يوليو من ذلك العام، ومن بين القرارات التى صدرت، فى إطار هذه الحملة، قرارٌ بحل اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، وكذا بحل مؤتمر نقابات عمال مصر، والحقيقة أن قرار حل كل من اللجنة والمؤتمر جاء تحصيل حاصل. فقد كانت توجيهات القيادات العقائدية الكامنة فى الظل، من كلا الجانبين، قد تكفلت بجعل التحلل والشلل يدب فى القيادات الجماهيرية جميعًا.

غير أن العناصر المصرية الجماهيرية الشابة، التى جذبتها المثل العليا الاشتراكية، وتعاطفت مع المنظمات الشيوعية حينذاك، أو ألحقت بقواعدها، هذه العناصر المصرية لم تكن فى مستوى فكرى يؤهلها لمساجلة القادة المحترفين، الذين يغلب عليهم العنصر الأجنبى اليهودى، المدربين على استخدام النظرية وتطوير نصوصها لخدمة توجهاتهم، ويتوفرون على إمكانيات هائلة، ولا يترددون فى استخدام الضغوط المادية والاغراءات الحياتية (خاصة بعد أن اشتدت وطأة الملاحقات البوليسية) كأسلحة يومية فى الصراعات التنظيمية التى بدأت تدب فى صفوف تشكيلاتهم السرية وشبه السرية، بسبب الإحساس المتعاظم من جانب

العناصر المصرية بعمق الهوة التى تفصلهم عن تلك القيادات، وبفداحة الخسائر التى ألحقتها توجيهاتهم بالحركة الوطنية.. وكانت صدمة لغالبية العناصر المصرية اليسارية أن تعرف لأول مرة، من الصحف السيارة فى أواخر 1946، أن عناصر أجنبية يهودية هى التى أسست التنظيمات الشيوعية، وهى التى تملك سلطة القرار فيها.

وفى أواخر 1947، بعد قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين، والتأييد الفورى الذى حظى به القرار من جانب تلك القيادات الأجنبية التى يغلب عليها العنصر اليهودى، بل وحماسها بالتمهيد للقرار، والإندفاع فى تزيين فكرة إقامة دولة صهيونية على أرض فلسطين، والاستعداد للاحتفال بمولد تلك الدولة... كل ذلك عمّق الهوة التى تفصل القيادات الأجنبية عن قواعدها المصرية، لذلك، وعلى الرغم من التكاثر العددى للتنظيمات، والوحدة بين منظمتى كورييل وشوارتز فى أبريل 1947.. فإن هذه الوحدة لم تصمد شهورًا.. ففى أوائل 1948 كانت حدتو قد أصيبت بالتشقق والتكتلات الداخلية، وأشهرها التكتل الذى قاده شهدى عطية الشافعى، بدءًا من فبراير 1948.

فلما قامت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، بعد إنهاء الإنتداب البريطانى على فلسطين وإنشاء الدولة الصهيونية فى 15 مايو 1948، وأعلنت الأحكام العرفية، وبدأت حملات الاعتقال على نطاق واسع، وعجزت القيادات عن مواصلة أى نشاط جدى أو توفير أى قدر من الحماية لتنظيماتها، سرعان ما تحولت التكتلات الداخلية إلى تمزق وتشرذم وتفتت لم يحدث له مثيل فى تاريخ الحركة الشسيوعية من قبل ولا من بعد. وهكذا، بعد أن تغيب بضع مئات من الشباب اليسارى فى السجون والمعتقلات، تبعثر بضعة آلاف من المناضلين، وتاهوا فى زحام الخلافات والانقسامات والمساجلات التى لم يهضموها ولم يعنهم من أمرها شيئًا.

وفى كابوس الملاحقات البوليسية ومتاهة التفتت والتشرذم التنظيمى، تفاقمت الأزمة الفكرية للشباب اليسارى المصرى. وكان بروز القضية الفلسطينية عاملاً إضافيًا ساعد على تفاقمها. صحيح أن القيادات المحلية للمنظمات الشيوعية حينذاك، التى كان يغلب عليها العنصر الأجنبى اليهودى، مسئولة ولا شك، ولكنها لم تكن وحدها، فقد ائتلفت فى ذلك عدة تأثيرات خارجية أخرى، ذلك أن الحركة الصهيونية العالمية، وفقًا لتقاليد اللعب على أكثر من حصان والظهور بأكثر من

وجـه، كانـت تقـف بقـدم فى المعسـكر الامبريـالى العالمـى، وبقـدم أخـرى فى معسـكر اليسـار العالمـى ـ الأوروبى.

وفى الأدبيـات السياسـية العربيـة التقدميـة وفـرة مـن الكتابـات والتحقيقـات الوثائقيـة حـول الارتبـاط التاريخـى بـين الصهيونيـة والامبرياليـة، بـدءًا مـن مؤتمـر "بال" فى نهايـة القـرن المـاضى حتـى التحالـف الاسـتراتيجى بـين إسرائيـل والولايـات المتحـدة الأمريكيـة فى أيامنـا هـذه، ولكـن لا توجـد كتابـات تذكـر عـن الارتبـاط بـين الصهيونيـة واليسـار الأوروبى مـن وجهـة نظـر عربيـة تقدميـة مسـتنيرة، بـل أن مجـال الكتابـة فى هـذا الموضـوع يـكاد أن يكـون حكـرًا عـلى نفـر مـن الصحفيـين المهيجـين مـن اليمـين المـوالى للغـرب الامبريـالى، عـلى نحـو سـطحى يلعـب عـلى المشـاعر الدينيـة والعنصريـة، ولا يهـدف إلى الكشـف عـن السـموم الفكريـة للصهيونيـة العالميـة ووسـائلها فى التسـلل، وإنمـا يرمـى إلى النيـل مـن اليسـار عمومـًا، العـربى والعالمـى معـًا، والتشـهير بـه.. وعـزل اليسـار العـربى عـن سـائر قـوى التحـرر الوطنـى والتوحيـد القومـى، وعزلنـا عـن مصـادر هامـة للتأييـد العالمـى.

أمـا تهـاون اليسـار العـربى فى الكشـف عـن التسـلل الصهيـونى فى صفـوف بعـض اليسـار الأوروبى، فهـو تعبـير عـن القصـور الفكـرى المزمـن، كـما هـو دليـل إضـافى عـلى إسـتمرار وقـوع اليسـار العـربى فى دائـرة التبعيـة الفكريـة لليسـار الأوروبى، ومـن ثـمّ عـدم حصانتـه ضـد السـموم الفكريـة التـى يمكـن أن تتسـرب إليـه مـن حيـث لا يأخـذ حـذره. يكمّـل هـذا القصـور الفكـرى موقـف "تكتيـكى" لكثـير مـن السياسـيين العمليـين العـرب، الذيـن لا شـبهة فى إخلاصهـم للقضايـا الوطنيـة والقوميـة، وإنمـا يـرون أن الحديـث عـن أيـة رابطـة بـين الصهيونيـة العالميـة واليسـار الأوروبى غـير مفيـد، حيـث أن اليسـار ـ مـن بـين القـوى السياسـية الفعالـة فى أوروبـا ـ هـو المصـدر الأسـاسى لمـا نحصـل عليـه مـن تأييـد لقضايانـا هنـاك.

ولكننـا نـرى أن تعمّـق تاريـخ التسـلل الصهيـونى فى صفـوف اليسـار الأوروبى، مـن شـأنه أن يجعلنـا أقـدر عـلى رؤيـة حـدود الدعـم الـذى يمكـن أن يأتينـا مـن ذلـك اليسـار، ويعفينـا مـن أعبـاء خيبـة الأمـل وعوامـل الإحبـاط التـى "تفاجئنـا" فى المنعطفـات الحرجـة، ومـن ثـمّ يمكـن أن نكـون أكـثر وعيـًا بمسـئولياتنا التـى لـن ينهـض بهـا أحـد سـوانا، والتـى يسـتحيل الهـروب مـن مواجهتهـا بتضخيـم أوهـام تأييد اليسـار الأوروبى لقضايانـا.

هذا أولاً:

وثانيًا: هناك الدور الذى درجت اليهودية العالمية على أن تلعبه عبر التاريخ، كلما مكنتها من ذلك الظروف، دور المضاربة على المنافسات والمنازعات بين الامبراطوريات العالمية، أى الإسهام فى دفع الامبراطوريات الصاعدة إلى الصعود، مع الإسهام فى دفع الامبراطوريات الهابطة إلى السقوط.. وذلك - طبعًا - طمعًا فى نيل رضاء الامبراطورية الصاعدة والفوز بمكافآتها، والاشتراك فى الاستيلاء على بعض الأسلاب والبقايا المختلفة من أنقاض الامبراطورية المنهارة.

هكذا، بعد أن أصبح للصهيونية السيطرة على اليهودية العالمية، فإنها لعبت أيضًا على أكثر من حصان امبريالى، وذلك فى ظروف عالمية كانت تشهد أفول نجم قوى إمبريالية متدهورة، فى مقدمتها بريطانيا، وصعود نجم السيد الجديد، الولايات المتحدة الأمريكية.

وعملية تغيير الولاء من سيد امبريالى إلى آخر، حتى لو كانت جميع الأطراف المعنية على وعى بضرورتها، ليست عملية بسيطة، ليست صفقة تبرم فى جلسة أو إنقلابًا يتم فى ليلة، خاصة إذا كانت على هذا النحو من التعقيد وبذلك المقياس المهول الذى تكشفت عنه السنون... ومن ثمّ كان التعقيد والإلتباس الذى ميّز مسار العلاقات بين الصهيونية وتلك القوى الكبرى. وكان العدوان الثلاثى، أو ما يسمونه حرب السويس (1956) هو المشهد الفاصل والختامى لذلك المسار، فمن بعده حسمت الأمور وإتسقت مع حقائق عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أصبح الولاء الأول، والأوحد، للولايات المتحدة دون سواها... ولكن، وصولاً إلى ذلك، كان المسار مشحونًا بالمفاجآت والمفارقات.

وربما كانت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، 1948 - 1949، - فيما كانت - من أبرز مشاهد التاريخ فى مفارقاتها.

كان الجيش المصرى، فى طريقه لمحاربة القوات الإسرائيلية حينذاك، يمر بالمعسكرات البريطانية فى منطقة القنال، حيث يسترخى عشرات الألوف من الجنود البريطانيين الذين، لو شاءوا، لفعلوا أكثر من مجرد قطع الطريق عليه. كذلك لم يكن صدفة أن كانت البلاد العربية التى ذهبت منها جيوش للقتال فى تلك الحرب، كانت كلها مناطق نفوذ بريطانية أو فرنسية، ولم يكن صدفة أن

لم تنطلق رصاصة واحدة ضد جندى إسرائيلى من جيش دولة عربية فى دائرة النفوذ الأمريكى.

هل كان رجال الدولة البريطانيون، وهم الاستعماريون المخضرمون الذين احتضنوا المشروع الصهيونى منذ كان جنينًا، وهم الخبيرون بوسائل الصهيونيين وما تنطوى عليه نواياهم من تقلب وغدر... هل كانوا يرون - فى ذلك التاريخ المبكر - الأبعاد الكاملة للأطماع الصهيونية غير المحدودة... ثم هل أصابتهم، وقد حانت ساعة الإمبراطورية، الرهبة من غول العسكرية الإسرائيلية وهو يخرج من القمقم، ومن ثمّ حاولوا (وان يكن بعد فوات الوقت) أن يحدثوا شيئًا من التوازن، فسمحوا للجيوش العربية بخوض تلك الحرب ؟ ومعروف أن غالبية تلك الجيوش جاءت من بلاد تابعة تبعية لا شبهة فيها لبريطانيا، بل أن واحدًا من أهمها، هو الجيش الأردنى، كان تحت قيادة انجليزية مباشرة (الجنرال جلوب).

كذلك ضرب بعض الحكام أكثر من عصفور آخر بنفس الحجر، فعلاوة على محاولة الحكام تحقيق كسب سياسى أمام شعوبهم بمحاربة إسرائيل، فإنهم أعلنوا الأحكام العرفية فى بلادهم، وكالوا ضربات موجعة للحركة الوطنية بكافة فصائلها واتجاهاتها، وتمكنوا - وإن يكن إلى حين - من مواجهة المد الثورى الوطنى الذى عمّ المنطقة منذ إنتهاء الحرب العالمية، والذى كانت بريطانيا فيه هى الخصم الذى يملأ الساحة بنفوذه السياسى وسيطرته الاقتصادية وجيوش احتلاله وقواعده العسكرية.

فهل بعد كل ذلك نعجب إذ تسرب الشك، فى أمر تلك الحرب، إلى قسم كبير من القيادات الوطنية الشابة، خاصة وأن المعتقلات مكتظة بينما الإذاعات تضج بالأناشيد الوطنية والابتهالات الدينية، والشوارع تكتظ بالاستعراضات العسكرية المتوجهة لفلسطين !!.

بل إن الشك، مع المسار المتعثر الفاشل الذى أتخذته الحرب، تجاوز الحكام ليمتد إلى القضية نفسها، ليس فقط لأن كل قضية يدافع عنها الحكام - أو حتى يتظاهرون بالدفاع عنها - هى موضع شك، وإنما أيضًا - وهذا هو الأهم - لعدم وضوح الرؤية الفكرية فى المسألة القومية حينذاك، خاصة فى مصر.

الباب الثالث

الحرب العالمية الثالثة

من المفارقات الكبرى فى تاريخ هذا القرن أن التحالف الذى هزم ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية إنفض قبل أن تنتهى الحرب، على الرغم من أن أقطاب هذا التحالف كانوا قد أقسموا على أن يدوم أجيالاً عديدة، ليبنى الحلفاء معًا عالمًا مبرءًا من همجية الفاشية وأهوال الحرب ومهانة الاستعمار ومذلة الفقر... بعد أن دفعت البشرية دماء أكثر من سبعين مليونًا من الضحايا، وأصيب بالتشويه والعاهات عدد يربو على هؤلاء، ودمرت مئات المدن وآلاف القرى والبلدان... بل إن ضمير البشرية يضيف إلى كل ذلك ضحايا وخسائر الحرب العالمية الأولى، كما يتحسب من أهوال حرب عالمية ثالثة يمكن أن يكون فيها القضاء التام على النوع البشرى، بعد أن وصلت أدوات الدمار ووسائل الإبادة إلى ما وصلت إليه فى المشاهد الأخيرة من الحرب الثانية.

ولكن، ويا للأسف، ما كانت أضعف الحوافز الأخلاقية، وضحالة الوعى الجمعى، وما كانت أوهى الأسس العقلانية وقصور البصيرة الإنسانية التى قام عليها ذلك التحالف القصير العمر، الذى فرضته العدوانية الألمانية واليابانية أكثر مما اختارته قيادات الديموقراطيات الرأسمالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والقيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى.. ذلك التحالف الذى فرض على الجانبين

فرضًا والحرب فى أوج أوراها، وقت أن كانت أداة الحرب الألمانية واليابانية تهدد كلاهما تهديدًا مصيريًا.

تدل الشواهد والأحداث على أن القيادة السوفييتية كانت أكثر حرصًا على الإبقاء على ذلك التحالف، صحيح أن ثمة دوافع سياسية وخلفية عقائدية وراء ذلك الحرص، حيث قدرت القيادة السوفييتية أنها يمكن أن تحقق، بإستمرار التحالف، مكاسب تربو على ما تقدم من تنازلات، ولكننا نرى، بغض النظر عن العباءة الإيديولوجية المتشددة التى يتلفع بها الكرملين.. أو الألفاظ المسيحية السمحة التى يتخفى وراءها البيت الأبيض، نرى أن ثمة عمقًا حضاريًا تاريخيًا لدى السوفييت لا يتوفر لنظرائهم فى العالم الجديد، إذ ليس فى تاريخ الصفوة الأمريكية التى تدير شئون الحرب والسياسة ذكرى دمار جمعى، ولا عانت على أرضها تراجيديا تعثر مدينة بنوها أو سقوط حضارة شيدوها... إنما كانت الصفوة البيضاء الحاكمة فى الولايات المتحدة، فى تاريخها الخاطف القصير، دائمًا متفوقة حضاريًا، منتصرة عسكريًا، واثقة جدًا فى حظوظها ومقدراتها، يعميها غرور القوة المتعاظمة وتفسدها لذائد النعمة السلهة... قضت - بين نزهة ومغامرة - على بقايا حضارة العصر الحجرى للشعب الهندى الأحمر، وسحقته... ثم خاضت، بعد حرب استقلال سهلة مع بريطانيا، سلسلة حروب توسع أكثر سهولة مع خصوم أهون شأنًا، دارت معاركها على أراض غير أرضها، وأصابت بالدمار أوطانًا غير وطنها، يعزز رأينا هذا التغير الكبير الذى أحدثته الحرب الفيتنامية فى الوعى الجمعى للأمة الأمريكية، ونظرة الأمريكيين لقضايا الحرب والسلام، فتلك هى الحرب الوحيدة التى عانت فيها الامبريالية التوسعية الأمريكية نوعا - من الهزيمة - على الرغم من أن المعارك دارت مرة أخرى على أرض غير أرض الولايات المتحدة، وأن ما أحدثته فى جسم الأمة الأمريكية لا يعدو أن يكون خدوشًا على السطح، بالقياس إلى الأمم العريقة فى العالم القديم، التى أثخنت الجراح أجسادها، واعتصرت قلوبها، وأثقلت رؤاها.. وأكسبت ضميرها الجمعى عمقًا وبصيرتها نفاذًا.. وأنجبت تجاربها على مر الأجيال أنبياء وحكماء وفلاسفة وقد يسين، هم الذين تفزع البشرية إلى رحابهم فى اوقات الضيق ولحظات الخطر...

أيًا كان الأمر، قدر أقطاب التحالف الغربى، خاصة بعد وفاة روزفلت المفاجئة فى أبريل 1945، وتنصيب هارى ترومان رئيسًا للولايات المتحدة، قدروا أن الاتحاد

السـوفييتى سـيكون هـو الرابـح إذا إسـتمر التحالـف الـذى كسـب الحـرب ضـد هتلـر، فقـد كان الاتحـاد السـوفييتى، قبـل الحـرب، دولـة اشـتراكية وحيـدة، معزولـة فقـيرة، والأحـزاب الشـيوعية المتعاطفـة معـه (فى الأمميـة الشـيوعية الثالثـة ـ الكومنترن)، كانـت ضعيفـة مضطهـدة مطـاردة.. وفى وقـت مـا مـن 1942، ظهـر وكأن هتلـر قـد قـضى عـلى النشـاط الشـيوعى فى أوروبـا، وكاد أن يقـضى عـلى الدولـة السـوفييتية نفسـها، حيـث كانـت فرقـه المدرعـة تـدق أبـواب موسـكو ولينتجـراد وسـتالينجراد... فـإذا بالتاريـخ يـدور دورة عنيفـة فى لحظـات خاطفـة... فى أقـل مـن ثـلاث سـنوات كان الجيـش الأحمـر قـد تمكـن مـن تدمـير الجانـب الأكـبر مـن أداة الحـرب الألمانيـة، وحـرر بـلاد أوروبـا الشرقيـة وجـزءًا كبـيرًا مـن ألمانيـا نفسـها، حيـث دارت أقـسى معـارك الحـرب العالميـة الثانيـة وأشـدها ضراوة، وفى السـباق الـذى جـرى لاحتـلال ألمانيـا مـع الجحافـل الأمريكيـة والبريطانيـة التـى نزلـت عـلى أرض القـارة فى صيـف 1944، كان الجيـش الأحمـر هـو الأسـبق، هـو الـذى احتـل برلـين وهـدم دار المستشـارية عـلى جثـة الفوهـرر... هـذا، بينـما الأحـزاب الشـيوعية فى أوروبـا الغربيـة ـ خاصـة فى بلديـن مـن أهـم بلادهـا، هـما فرنسـا وإيطاليـا ـ لعبـت دورًا قياديًـا فى حركـة المقاومـة، وفرضـت نفسـها شريكًـا فى الحكـم فى عـدد مـن أهـم بـلاد أوروبـا الغربيـة فى حكومـات "جبهـة شـعبية"، ضمـت القـوى السياسـية التـى تحالفـت لمقاومـة الاحتـلال النـازى، والتـى لم تكـن إلا تطبيقًـا محليًـا للتحالـف المعـادى للفاشـية عـلى الصعيـد العالمـى... وفى الجانـب الآخـر مـن الكـرة الأرضيـة، كانـت جيـوش الفلاحـين الصينيـين، تحـت قيـادة الحـزب الشـيوعى وزعامـة ماوتـسى تونـج، هـى القـوة العسـكرية الصاعـدة التـى تقـاوم العسـكرية اليابانيـة وتسـتنزفها، وأصبـح لهـا الغلبـة عـلى قـوات شـيانج كاى شـيك فى الريـف، وأصبحـت سـيطرتها عـلى مقـدرات الصـين كلهـا مسـألة وقـت فحسـب.

ولم يملـك كثـير مـن شـباب ذلـك الزمـان، شـباب البروليتاريـا فى البـلاد الصناعيـة المتقدمـة وشـباب الطبقـة المتوسـطة الصاعـدة فى المسـتعمرات والبـلاد التابعـة، لم يملكـوا أنفسـهم مـن المقارنـة بـين الدعايـات التـى كانـت تمـلأ أسـماعهم عـن الاتحـاد السـوفييتى قبـل الحـرب، ومـا قيـل عـن انهيـاره المؤكـد عنـد تعرضـه لأول ضربـة توجـه إليـه مـن الخـارج، وبـين آيـات البطولـة التـى تجلـت فى دفـاع الشـعوب السـوفييتيةعن وطنهـا ونظامهـا الاجتماعـى ضـد الغـزو النـازى، بينـما رأوا بـلاد أوروبـا الغربيـة تنهـار أمـام هتلـر فى شـهور... وفى نفـس الوقـت كانـت الشـيوعية الصينيـة تـضرب مثـلا لكيفيـة إنهـاء عـصر التبعيـة للسـيطرة الغربيـة بالحـرب الشـعبية الطويلـة الأمـد...

لم يحـدث فى التاريـخ أن كان الحلـم الشـيوعى الـذى بـشّر بـه ماركـس، وقـاد لينـين وماوتـسى تونـج كـبرى ثوراتـه فى أوروبـا وآسـيا، لم يحـدث أن كان ذلـك الحلـم أقـرب إلى الواقـع المعـاش كـما كان يبـدو لنسـبة هائلـة مـن النـاس فى تلـك الأيـام مـن أعـوام 1944 ـ 1945 ـ 1946، حلـم تحالـف حركـة البروليتاريـا الثوريـة فى البـلاد الصناعيـة المتقدمـة، والحركـة الوطنيـة فى المسـتعمرات والبـلاد التابعـة، كلاهـما تحـت قيـادة شـيوعية تسترشـد بالأيديولوجيـة الماركسـية، مـن أجـل إنجـاز مهمـة طـال عـلى البشريـة إنتظارهـا.. مهمـة إلغـاء إسـتغلال الإنسـان للإنسـان، واسـتعباد الأمـم للأمـم.. مهمـة إقامـة أسرة أمميـة إنسـانية متحابـة متضامنـة، تبنـى عالمًاجديـدًا، يقـرأ النـاس فيـه عـن أسـلحة الحـرب وأدوات الدمـار كـما يقـرأون اليـوم عـن وحـوش مـا قبـل التاريـخ.

كانت الشيوعية حينذاك ـ بحق ـ هى شباب العالـم...

... ولكـن ثبـت أننـا، نحـن شـباب ذلـك الزمـان، كنـا ـ فى غالبيتنـا ـ غارقـين فى عـالم الأحـلام، رومانسـيين فى زماننـا.

فما كان خصوم الحلم ضعفاء أو غافلين.

ولا كان دعاة الحلم مؤهلين..

مـا كان دعـاة الحلـم بالوضـوح الفكـرى والتجـرد الأخلاقـى والقـوة القتاليـة التـى تصوروهـا عـن أنفسـهم. مـا تمكنـت أبـدًا طلائـع البروليتاريـا فى البـلاد الصناعيـة المتقدمـة أن تكـون ثوريـة إلى درجـة توحيـد نضالهـا مـع طلائـع الحركـة الوطنيـة فى البـلاد التابعـة، ولا عـرف هـؤلاء وأولئـك كيـف.. ولا تمكنـت الطلائـع هنـا وهنـاك مـن المحافظـة عـلى صفـاء الأفـكار وطهـارة الصفـوف، بينـما تزاحـم عليهـم مـرضى السـلطة المتطفلـون والعمـلاء المغرضـون.

بإختصـار، لم تكـن البشريـة ناضجـة لتحقيـق حلـم عظيـم.. ولا نخالهـا اليـوم أكـثر نضجًا..

بـل إن البشريـة اليـوم، فى ثمانينـات هـذا القـرن المحمـوم لهـى، أكـثر مـن أى وقـت مـضى، أبعـد مـا تكـون عـن أى حلـم عظيـم أو أيـة رؤيـا ملهمـة.

منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، وبغـض النظـر عـن الذبذبـات الجزئيـة فى المسـار العـام، فـإن البشريـة فى جملتهـا عـلى المنحـدر..

بعـد أكـثر مـن جيلـين مـن التشـويش الفكـرى والاسـتنزاف المعنـوى والتدهـور الروحـى، تعيـش البشريـة اليـوم فـترة مـن أشـد الفـترات إظلامًـا.. تتعـثر فى الأزمـات وتتغـذى بالمخـاوف وتحيـا عـلى حافـة الخطـر.. تدفـع الزمـان يومًـا بيـوم فى معيشـة فاتـرة منهكـة.. والسـاحة خاليـة مـن أيـة قـوة قـادرة عـلى تعبئـة الطلائـع الخـيرة هنـا وهنـاك.. بـل دون أن تتمكـن الطلائـع نفسـها مـن تحديـد هويتهـا وحسـاب صلاحياتهـا ومعرفـة مـن معهـا ومـن عليهـا.. ودون أن يزعـم أى فصيـل القـدرة عـلى اقنـاع الآخريـن بحلـم عظيـم أو رؤيـا ملهمـة.. إذ ليـس بالخبـز وحـده يحيـا الإنسـان.. فـما بالنـا والخبـز الـضرورى، مثـل الأمـن اليومـى، مـا يـزال مشـكلة حقيقيـة بالنسـبة لسـكان أكـثر مـن نصـف هـذا الكوكـب، حيـث يعيـش غالبيـة النـاس مهانـة الحرمـان وكابـوس الاسـتبداد وأهـوال المذابـح والانقلابـات.. وحيـث لا تعـرف الطلائـع الخـيرة مـن أماكـن الراحـة والإسـتجمام إلا المنـافى والسـجون والمعتقـلات.. أو تـراب القـبر بعـد المـمات..

لنعد مرة أخرى إلى الحرب العالمية لنرى ماذا حدث فى التاريخ ؟

.. حـزم ترومـان وتشرشـل الأمـر، حتـى قبـل أن تنتهـى الحرب، عـلى إنهـاء التحالـف المعـادى للفاشـية والنازيـة، وأعلنـا ـ عـلى نحـو لا يدعـو إلى اللبـس ـ أن الأولويـة لـن تكـون ـ كـما كتبـوا فى مواثيـق الأمـم المتحـدة ـ لإقامـة عـالم مـبرأ مـن مخـاوف الحـرب ومهانـة الفقـر ومذلـة الاسـتبداد وهمجيـة الفاشـية ومظـالم الاسـتعمار.. وإنمـا لإيقـاف المـد الشـيوعى العالمـى، حتـى لـو أدى ذلـك إلى مواجهـة سـاخنة مـع الاتحـاد السـوفيتى، ومـع اليسـار الشـيوعى فى أوروبـا الغربيـة، ومـع الحركـة الوطنيـة فى البـلاد التابعـة.

غـير أن المسـار الـذى إتخذتـه الأحـداث كان شيئـًـا بـين بـين، لا هـو إسـتمرار التحالـف، ولا هـو المواجهـة السـاخنة عـلى نطـاق عالمـى.. ولا هـو ـ بداهـة ـ السـلام العالمـى القائـم عـلى المبـادئ السـامية التـى كتبوهـا.

عندمـا أعلـن عـن إنتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة بإستسـلام ألمانيـا فى مايـو 1945، ثـم بإستسـلام اليابـان فى أغسـطس مـن نفـس العـام، تحولـت العلاقـة بـين الغـرب والإتحـاد السـوفيتى إلى نـوع مـن الهدنـة المسـلحة، وأصبـح الشـغل الشـاغل للطرفـين، حتـى يومنـا هـذا، هـو سـباق لاختـراع وتكديـس مزيـد مـن أسـلحة الدمـار الشـامل، إسـتعدادًا لموجهـة عسـكرية شـاملة، ورسـمت مواقـع الجنـود الأمريكيـين فى مواجهـة

الجنود السوفييت، الحدود الفاصلة بين المعسكرين، على خط أحمر يقسم القارة الأوروبية (والدولة الألمانية) إلى شرق وغرب.

وتطبيقًا لهذا التقسيم العالمى، سرعان ما إنفصمت عرى التحالف القصير العمر بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب الديموقراطية المحافظة والديموقراطية الاشتراكية فى الغرب، ولم يكن لدى الزعامة الأمريكية أى مانع حضارى أو وازع أخلاقى إنسانى يحول دون تبنى الأساليب التى إعتمدها هتلر للقضاء على كل شكل من أشكال النشاط الشيوعى أينما وجد. ولم يتردد الأمريكيون بالفعل فى الأقدام على ذلك حيثما تمكنوا فى عدد كبير من أقطار امبراطوريتهم العالمية الجديدة، خاصة فى بلاد العالم الثالث، حيث إرتكبت ـ وما تزال ترتكب ـ من أساليب القمع والاضطهاد والتعذيب ما يندى له جبين القرون الوسطى، بل إن سادة واشنطن جربوا طبعة خاصة من حملاتهم الصليبية ضد الشيوعية على أرض الولايات المتحدة نفسها، فيما عرف بـ "المكارثية"، فى الخمسينات.. ولكن تجارب النضال الديموقراطى ضد الفاشية وعلاقات القوى المحلية فى بلاد أوروبا الغربية، حالت دون ردة شاملة على النسق الفاشى.

أفضت علاقات القوى الاجتماعية والسياسية فى أوروبا الغربية إلى إستقرار الأوضاع على القبول بمشروعية النشاط الشيوعى ـ ولكن بشرطين أساسيين :

الشرط الأول هو الأبعاد عن الحكم، وفض الائتلافات الحاكمة فى عدد من بلاد أوروبا الغربية، التى كانت تضم الشيوعيين إلى جانب الاشتراكيين والأحزاب الديموقراطية الأخرى، هذا، مع التركيز بصفة خاصة على أبعاد كل عنصر شيوعى عن أى مركز أو وظيفة، وإن تكن ثانوية، فى المواقع الحساسة للسلطة (الدفاع، الأمن، السياسة الخارجية)... حيث تقوم الإيديولوجية الأمريكية على تجريد كل مقتنع بالماركسية من صفته الوطنية أو القومية.

ولفرض هذا الشرط، عمدت الولايات المتحدة إلى إستخدام الضغط الاقتصادى الذى تجسدّ فى مشروع مارشال.. مشروع إسهام أمريكا فى إعادة تعمير ما خربته الحرب العالمية الثانية فى مقابل تخلى الأحزاب والقوى الديموقراطية، وخاصة الاشتراكيين، عن التحالف مع الشيوعيين.. بل دفع هذه القوى إلى الاشتراك النشيط فى الحملة العامة المعادية للشيوعية.

وبعد أن بدأت اوروبا الغربية "تستفيد" من مشروع مارشال (1948)، أكتملت ملامح الحرب الباردة بإنشاء حلف الأطلنطى (1949)، الذى قام فى مواجهته حلف وارسو (1954).

وهكذا تعسكر عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

الشرط الثانى الذى فرض على الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية هو إلزامها بالعمل بأساليب إصلاحية فى إطار النظام الاقتصادى الاجتماعى القائم، وليس بأساليب ثورية تعتمد العنف أو العصيان المسلح، تهدف إلى الإطاحة بالنظام القائم وإحلال دكتاتورية البروليتاريا مكانه، أو تفضى إلى خروج أية دولة من دول أوروبا الغربية المعنية من إطار التحالف الأطلنطى... أى، بإختصار، دفع الأحزاب الشيوعية (أحزاب الأممية الثالثة) إلى النهج الذى سبق أن سارت فيه الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية (أحزاب الأممية الثانية).

وقد تمّ هذا بالفعل خلال سلسلة معارك ومواجهات دارت بين حكومات أوروبا الغربية المعنية، المستندة إلى إئتلاف أحزاب اليمين والوسط، وبدعم سافر من دبلوماسية الولايات المتحدة ومعوناتها الاقتصادية من جانب، وبين الجناح اليسارى للحركة العمالية الأوروبية تحت قيادة الشيوعيين وبعض الاشتراكيين من جانب آخر... وأخيراً، فى أواخر الستينات، وبعد أن تفجرت حركات "اليسار الجديد" من الجهة المقابلة، تمّ تأقلم اليسار الشيوعى التقليدى فى أوروبا الغربية فيما عرف باسم الشيوعية الأوروبية، وهى شيوعية تعترف بمزايا الديموقراطية الغربية وفضائلها وتقسم كل يوم على ألا تخل بقواعد اللعبة البرلمانية، وتخوض الانتخابات العامة والانتخابات البلدية والانتخابات النقابية فى الحدود القانونية المسموح بها، وتقود الإضرابات الاقتصادية المشروعة لأسباب كثيرة من بينها تخفيض ساعات العمل عن أربعين ساعة فى الأسبوع، والدفاع عن حق العامل الأوروبى فى قضاء عطلة الشتاء فى جبال الألب ليستمتع برياضة الانزلاق على الثلج، وعطلة الصيف على أية شواطئ يرغب فى داخل بلاده أو خارجها، أو زيادة زجاجة نبيذ فى استهلاكه الأسبوعى... وقد أصبحت الشيوعية الأوروبية تنبذ تمامًا "مبدأ" دكتاتورية البروليتاريا، وهو المبدأ الذى طالما إعتبر هو الفيصل بين "المخلص" للمذهب الشيوعى والمراجع "الخائن"... ومع ذلك، فهذه الشيوعية الأوروبية ما تزال تقيم علاقات حميمة مع عشرات من الأحزاب الشيوعية "الشقيقة"

من المخلفات التاريخية للأممية الثالثة، تلك الأحزاب التى ما تزال ليس لديها مانع من عقد مؤتمراتها الأممية فى موسكو أو فى براج، وإن كانت تعارض تمامًا فكرة الحزب القائد للحركة الشيوعية العالمية، حتى لو كان هو الحزب الشيوعى السوفييتى نفسه... بينما يقبل حزب من أهم أحزاب تلك الشيوعية الأوروبية ـ هو الحزب الفرنسى ـ دورًا باهتًا فى حكومة إشتراكية ديموقراطية تحت قيادة قطب من أقطاب الخصومة التاريخية، هو فرانسوا ميتران... وإحتفاظًا ببعض الطقوس والتقاليد، ماتزال الشيوعية الأوروبية تتعاطف مع الشعوب المقهورة، ودليلهم على ذلك كثير من كتابات محررى السياسة الخارجية فى صحافتها، والبيانات التى تحرر بالاشتراك مع مندوبى الأحزاب اليسارية وشبه اليسارية فى بعض بلاد العالم الثالث بين الحين والحين... وكفى الله الشيوعية الأوروبية شر الأممية (أكثر من هذا).. وأعفاها من أعباء مساندة حركات التحرير الوطنية... ورحم الله الحلم العظيم.. حلم إلتحام حركة البروليتاريا الثورية من أجل دكتاتوريتها الموعودة فى البلاد الصناعية المتقدمة مع حركات التحرير فى البلاد التابعة... لإقامة عالم لا مكان فيه لاستغلال الإنسان للإنسان واستعباد الأمم للأمم... وليبحث الرومانسيون المعاصرون عن حلم جديد... أو ليستلهموا حقائق العصر لإكتشاف صيغة جديدة لإنقاذ الحلم المطعون... أو ليظل من يشاء متشبثًا بالأوهام الضائعة أن أعوزه الفكر وجف الخيال...

... ...

وبينما العالم المتقدم يتعسكر بين شرق وغرب...

والأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية يجرى إحتواؤها وتطويعها فى الأطر المعتمدة للديموقراطية الغربية البرلمانية فى الصيغة التى أستقرت للشيوعية الأوروبية، التى لا يُخشى منها خطر كبير على الإمبريالية ولا يرجى منها أمل كبير للتحررية..

بينما يجرى هذا وذاك دائمًا بالوسائل السلمية، بالأساليب الدبلوماسية والمناورات السياسية والضغوط الاقتصادية والتشويش الفكرى والحملات الدعائية والسيكولوجية..

فـإن المواجهـة السـاخنة بالحديـد والنـار، بالحـروب التـى سـالت فيهـا دمـاء وهدمـت مـدن وشردت شـعوب وأهـدرت حقـوق أمـم.. كان مـن نصيبنـا نحـن فى البـلاد التابعـة والمسـتعمرات التـى يقولـون أنهـا "سـابقة".

لم يحـدث فى التاريـخ أن ألهـم العـالم المقهـور بحلـم فى روعـة الحلـم بعـالم مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة.. ولم يحـدث أن أنقلـب الحلـم إلى جحيـم بهـذا المقيـاس العالمـى المـروع.

ونصيـب عالمنـا العـربى مـن الجحيـم وافـر والحمـد للـه.. الـذى لا يحمـد عـلى مكـروه سـواه.

مـن المحيـط إلى الخليـج، مـرورًا بالقـدس والسـويس والجزائـر.. اصطـلى عالمنـا العـربى بأكـثر مـن عـشر مـن كبريـات تلـك الحـروب التـى يسـمونها حروبًـا صغـيرة.. وبمئـات مـن المعـارك غـير الصغـيرة.. ومـا تـزال كل الجـروح تقطـر دمًـا.. وماتـزال النـيران مشـتعلة فى أكـثر مـن بقعـة.. ومزيـد مـن الحـروب تتربـص بنـا عنـد كل منعطـف منظـور.

كتـب الرئيـس الأمريكى الأسـبق، ريتشـارد نيكسـون، كتابـًا بعنوان "الحـرب العالمية الثالثـة"، ذهـب فيـه إلى أن العـالم يخـوض حربًـا عالميـة ثالثـة بـدأت منـذ إنتهـت الحـرب العالميـة الثانيـة، بـل ربمـا قبـل أن تنتهـى... ونحـن نتفـق مـع الرئيـس نيكسـون عـلى أن ثمـة حربًـا عالميـة مشـتعلة منـذ ذلـك الحـين، لم تتوقـف معاركهـا دائمًـا عـلى أرض هـذا البلـد أو ذاك مـن بـلاد العـالم الثالـث ـ وإن كنـا نختلـف معـه بعـد ذلـك فى كل شـئ. ففـى رأينـا أن الدافـع لهـذه الحـرب هـو شـهوة التسـلط والسـيطرة والسـيادة العالميـة، والموضـوع الأسـاسى فى جـدول أعـمال هـذه الحـرب هـو : إلى مـن تـؤول ملكيـة المسـتعمرات ومناطـق النفـوذ التـى كانـت فى حـوزة الامبراطوريـات القديمـة الزائلـة، وخاصـة الامبراطوريتـين البريطانيـة والفرنسـية.. وأى تفسـير آخر لدوافـع هـذه الحـرب وموضوعهـا الأسـاسى ليـس، فى رأينـا، إلا سـتارًا إيديولوجيـا لإخفـاء دوافعهـا الحقيقيـة وتبريـرًا لمـا يرتكـب مـن فظائـع وجرائـم ضـد الشـعوب والأمـم التـى تجـرى عـلى أرضهـا المعـارك... ليـس إلا تمويهـاً عـلى الأشـكال الجديـدة للسـيطرة، وتمكينـًا للسـادة الجـدد.

وحتـى الآن، الحصيلـة العامـة لمـا يشـهده العـالم منـذ حـوالى أربعـين عامًـا مـن الحـروب الأهليـة، ومـا يسـمونه الحـروب المحـدودة أو الحـروب الصغـيرة، ومـن المعارك

والإصطدامات والمناوشات والإنقلابات والمؤامرات والمذابح... حصيلة هذه الحرب العالمية الثالثة، هى أن معظم التركة التى تخلفت بتصفية الإستعمار القديم قد آلت إلى الوريث الأمريكى.

وحتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية، كان المستعمرون القدامى على يقين من أن عصرهم قد إنتهى، ومن ثم فقد أختاروا وريثهم وأبرموا معه الإتفاق على تسلم التركة، غير أن عملية تصفية الشركاء الثلاثة الأساسيين على الأفكار العامة والخطوط العريضة... كانت عملية ضخمة ومعقدة وطويلة، لم تتم فى يوم وليلة، وإنما استغرقت سنوات طويلة وسارت فى مسارات شديدة الإلتواء.. كانت العملية متنوعة الملامح مختلفة الأساليب بإختلاف عشرات البلاد الصغيرة والمتوسطة التى دخلت فيها، وباختلاف الظروف السريعة التغير والأحداث العنيفة الايقاع... وكانت مشحونة بالصراعات والتناقضات... بعضها أساسى أصيل، والبعض الآخر ثانوى عارض.. التناقض الأساسى كان، وما يزال، هو التناقض بين قوى التحرر الوطنى وكل أشكال السيطرة، القديمة والجديدة، أما التناقضات الثانوية فهى كثيرة ومتداخلة، منها التناقض بين النفوذ المتوطن للمستعمرين القدامى والنفوذ الزاحف لقوى الهيمنة الجديدة، والتناقض بين الفئات الاجتماعية والقوى السياسية المحلية التى كانت مستفيدة من الأوضاع القديمة والفئات الاجتماعية والقوى السياسية التى تناوئها وتأمل فى تحسين أوضاعها بالتغيير... كذلك وجدت دائمًا تناقضات وخلافات بين مختلف الفصائل السياسية والانتماءات العقائدية فى صفوف القوى الوطنية... لكل ذلك، تميز تاريخ حركة التحرر الوطنى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ـ مع محاولات الامبرياليين الجدد ملء الفراغ الاستعمارى، وسعيهم لاستمالة قوى اجتماعية وسياسية جديدة، وعملهم على تقسيم صفوف قوى التحرر الوطنى ـ تميز بدرجة عالية من التعقيد والالتواء. وكثيرًا ما اختلطت الأوراق وتداخلت الخطوط وتقاطعت السبل، وحتى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، وحين كانت المعارك ضد المستعمرين القدامى هى أهم ما يشغل القوى الوطنية، فإن الرؤية إلتبست على كثير من الفصائل الوطنية، حيث لم يكن من السهل التمييز بين الأصيل والعارض، بين الصديق المحتمل والعدو المؤكد، بين الأهداف السهلة والفخاخ القاتلة... بين سراب الوهم ويقين الحقيقة.

... الخط العريض الذى اعتمدته القوى المعنية، أمريكا وبريطانيا وفرنسا، هو أن تجرى عملية نقل التركة بالتفاهم والاتفاق والتنسيق فيما بين الشركاء، على نحو : : (1) يحفظ للمستعمرين القدامى ـ فى إطار سياسى جديد ـ كل ما يمكن المحافظة عليه من نفوذ وامتيازات، و (2) يغلب عوامل الوحدة فيما بين الشركاء الثلاثة على الخلافات التى يمكن أن تنشب بينهم، نتيجة لميل ميزان القوى فى صالح أمريكا، وما يترتب على ذلك من المساس بالأوضاع والامتيازات الموروثة، و (3) أبعاد الاتحاد السوفييتى تمامًا عن عملية إعادة توزيع مناطق النفوذ، والحيلولة دون حصوله على أية مكاسب تترتب على تصفية الامبراطوريات الزائلة، سواء كان المسعى السوفييتى بالوسائل السلمية وخلال الأطر الدولية المشروعة ـ مثل محاولة الوصاية على ليبيا وتأهيلها للاستقلال ـ أو بتقديم العون العسكرى لثورات التحرير الوطنية المسلحة... ومن أجل ذلك بنيت الإستراتيجية العالمية لأمريكا وشركائها على أساس تكتيل بلاد العالم الثالث فى سلسلة من الأحلاف العسكرية المناهضة للسوفييت، وهى الإستراتيجية التى رسم خطوطها وزير خارجية أمريكا الأسبق، جون فوستر دالاس، وتولى بنفسه تنفيذها فى الخمسينات.

وتجاه القوى الوطنية فى كل بلد على حدة، إعتمد الحلفاء الغربيون مخططًا عامًا يتلخص فى العمل على إحتواء الحركة الوطنية، وجعل دورها هامشيًا فى تقرير مصير أممها، وذلك (1) باتخاذ موقف أكثر مرونة فى موضوع الاستقلال السياسى، مع أحكام أساليب السيطرة غير المباشرة، خاصة السيطرة الاقتصادية، وفى ذلك كان الأمريكيون أساتذة، بفضل خبرتهم الامبريالية الطويلة مع بلاد أمريكا اللاتينية، بينما كان الفرنسيون متخلفين جدًا، ولم يتمثلوا أساليب الاستعمار الجديد إلا على أيام الجمهورية الخامسة، بفضل ديجول. (2) تحجيم، وإن أمكن القضاء على، الجناح اليسارى (الشيوعى) للحركة الوطنية المحلية. وذلك ضمانًا لعدم إنتهاج الحركة الوطنية فى جملتها مسارًا راديكاليًا، يقضى على كل أشكال التبعية للغرب، بما فى ذلك التبعية الاقتصادية، كما هو ضمان لعدم إندفاع البلد المعنى فى طريق الإنحياز إلى المعسكر الشيوعى عالميًا، (3) ومن أجل تحجيم اليسار المحلى، أو القضاء عليه، فإن الاستراتيجية الأمريكية كانت ترى أن الإجراءات القمعية وحدها لا تكفى، وإنما كانت ترى ضرورة إقدام القوى المحافظة المحلية على إجراء بعض الإصلاحات ذات الطابع الاجتماعى، خاصة فى الريف.. وذلك كإجراء وقائى لمواجهة الإستراتيجية الثورية للشيوعيين وفى البلاد التابعة والمستعمرات، القائمة على فكرة

التحالف بين عمال المدن وفقراء الريف، والمطالبة بتوزيع الملكيات الكبيرة على الفلاحين الكادحين، كإحدى النقاط الأساسية فى برنامج "الثورة الوطنية الديموقراطية".. يؤكد هذا أنه حيث كان الأمريكيون ينفردون بالنفوذ الأمبريالى - كما فى كوريا الجنوبية - أو حيث كان لهم النفوذ الأول - كما فى إيران بعد الإنقلاب الذى قام به الجنرال زاهدى - فإن الحكومات المحلية المعنية، بتوجيه أمريكى مباشر، كانت تجرى إصلاحًا زراعيًا من نوع ما - كل بلد حسب ظروفه الخاصة.

فى الواقع العيانى، وضع هذا المخطط فى التطبيق حسب ظروف كل بلد.. حسب علاقات القوى بين النفوذ الاستعمارى المتوطن والنفوذ الزاحف، حسب قوة الحركة الوطنية عامة وجناحها اليسارى خاصة.. وأحيانًا حسب الأهمية الاستراتيجية لموقع البلد المعنى على خريطة الصراع العالمى بين المعسكرين..

وحيث كانت الأوضاع المحلية حرجة أو منذرة بخطر وشيك، كأن تكون القوى الوطنية قادرة على حمل السلاح وخوض حرب تحريرية تحت قيادة قوية مؤهلة، أو حيث يصل السخط الاجتماعى والغليان السياسى إلى حالة من الاضطراب تهدد النظام القائم بإنهيار مفاجئ، أو حيث تدعو ضرورات التعجيل بحصار الاتحاد السوفييتى إلى حسم الموقف فى بلد معين... فإن عملية تسلم الامبرياليين الأمريكيين لمسئولياتهم فى مناطق نفوذ القوى القديمة كانت تتم بسهولة نسبية، وسرعان ما تتعسكر القوى السياسية والاجتماعية المحلية، وتبدأ مواجهات حاسمة وقاسية ودموية... تفضى إلى إنحياز البلد المعنى إلى هذا المعسكر أو ذاك.

وهذا طبيعى، فحيث يبرز التناقض الأساسى تخف حدة التناقضات الثانوية.

لذلك، وفى إطار البلاد القريبة منا، كانت اليونان - بسبب الحرب الأهلية التى تفجرت قبل إنتهاء الحرب العالمية - وتركيا - بسبب وضعها الاستراتيجى الخاص وموقفها الموالى لألمانيا أثناء الحرب العالمية -... هما أول بلدين أعلنت أمريكا دخولهما فى دائرة النفوذ الأمريكى، صراحة وبلا مواربة، وذلك فيما سمى بمبدأ ترومان (1947).

فى كتاب "لعبة الأمم"، وهو واحد من أهم الكتب التى تعنينا فى هذا الصدد، يشهد الكاتب "مايلز كوبلاند" - وهو من رجال المخابرات المركزية الأمريكية الذين إشتركوا إشتراكًا مباشرًا فى عملية نقل التركة فى منطقتنا إلى أمريكا - يشهد بأن

رجال الدولة البريطانيين هم الذين سعوا بأنفسهم إلى التعجيل بإستلام الولايات المتحدة "مسئوليتها" عن هذين البلدين.

أما فى المستعمرات والبلاد التابعة التى لم يكن الخطر فيها وشيكًا، فكانت مهمة إعادة ترتيب الأوضاع المحلية للتلاؤم مع حقائق عالم ما بعد الحرب العالمية تركت - ولو إلى حين - للمستعمرين القدامى، بينما أكتفت الولايات المتحدة - مؤقتا - بالاشتراك فى التوجيه من أعلى ومن بعيد نسبيًا، وذلك عن طريق مؤسسات الأمبريالية الجماعية، مثل الإشراف على إنشاء وتسيير سلسلة الأحلاف الإقليمية، فضلاً عن الهيمنة على المنشآت المالية والاقتصادية... التى أقيمت تحت لافتة الأمم المتحدة، بينما إنتهى الأمر والنهى فيها إلى الغرب بزعامة أمريكا... مثل البنك الدولى، وصندوق النقد العالمى، وهيئات المعونة والإغاثة... إلى آخر هذه الشبكات.

وإلى جوار ذلك كان للولايات المتحدة أدواتها الأمريكية الخالصة، وذلك من خلال قنوات رسمية هى جزء من الدولة الأمريكية، وقنوات أخرى غير رسمية.

والقنوات الرسمية بدورها تنقسم إلى الدبلوماسية المعلنة، دبلوماسية وزارة الخارجية الأمريكية بسفاراتها وبعثاتها، وما تشرف عليه من هيئات للمعونة الاقتصادية والثقافية، أما الأساليب الخفية فهى - باختصار - أساليب وكالة المخابرات المركزية (سى. آى. إيه).

فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، كان برنامج النقطة الرابعة، الذى بدأ عام 1948، هو أهم برامج الدبلوماسية المعلنة للولايات المتحدة الموظفة لاستطلاع الحقائق - الاقتصادية أساسًا - للبلاد التابعة المرشحة للدخول فى إمبراطوريتها العالمية، وتحسس ثغرات للتسلل، وإستكشاف مخططات للمستقبل.

ثم تأتى وكالة المخابرات المركزية، التى لم تنشأ إلا عام 1949.

بديهى أن الولايات المتحدة كانت لها هيئات مخابرات قديمة قدم الدولة الأمريكية. غير أن الـ سى آى إيه، بالحجم والمهمات التى تقوم بها فى أيامنا هذه، هى المؤسسة التى عبر إنشاؤها - فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - عن تطلع أمريكا للسيادة العالمية، إنها الإدارة المتخصصة فى تحويل هذا التطلع إلى سلسلة

مـن المشروعـات العمليـة، إلى حقيقـة... وفـرض هـذه الحقيقـة عـلى العـالم فرضًـا بـكل الأسـاليب.. وبأيـة أسـاليب..

إن الــ سى آى إيـه هـى الإدارة الخفيـة للمصالـح العالميـة للولايـات المتحـدة.. أو هـى ـ بتعبـير أكـثر حـدة هـى حكومـة الظـل العالميـة الأمريكيـة.

ولكـن، لمـاذا نشـأت الحاجـة إلى إدارة خفيـة تضخمـت إلى الحـد الـذى أصبـح الاعتقـاد الـذى تدعمـه كثـير مـن الشـواهد، مـن بينهـا ـ مثلاً ـ أن السـيد جـورج بـوش إنتقـل مـن رئاسـة الإدارة إلى منصـب نائـب الرئيـس الأمريـكى... (وهنـا لا يملـك الفكـر إلا أن يقفـز إلى الجانـب المقابـل. فكـما خلـق حلـف الأطلنطـى نقيضـه ـ حلـف وارسـو ـ فى المعسـكر الشرقـى، وجـد المقابـل السـوفييتى لإدارة المخابـرات الأمريكيـة، تلـك هـى إدارة المخابـرات السـوفييتية المعروفـة فى قامـوس الحـروف الأولى باسـم الــ كى جـى بى، وهنـا سـبق الرفيـق يـورى أندروبـوف نظـيره الأمريـكى جـورج بـوش، حيـث إنتقـل أندروبـوف مـن رئاسـة الــ كى جـى بى مباشرة إلى منصـب الرجـل الأول فى الاتحاد السـوفيتى).

الفكـرة السـائدة هـى أن الحاجـة إلى إدارة خفيـة بهـذه القـوة هـى حاجـة عمليـة، ناشـئة مـن ضرورة مراعـاة التكتـم التـام والسريـة المطلقـة فى إدارة شـئون صراع عالمـى لا يرحـم، ضـد خصـوم لا يـترددون فى الإقـدام عـلى أى شـئ... خاصـة وأن هـذا الـصراع يتطلـب أشـكالاً مـن النشـاط الخطـر، والقـذر أحيانـًـا... وتغـذى إدارات المخابـرات، والدوائـر الحاكمـة عمومًـا، هـذه الفكـرة التـى أكتسـبت شـعبية عالميـة عـن طريـق سـيل لا ينتهـى مـن قصـص الجاسوسـية ومكافحـة الجاسوسـية.. وأفلامهـا ومسلسـلاتها التليفزيونيـة.. حيـث جيمـس بونـد، ومرادفـه السـوفييتى الـذى لا نعـرف اسـمه فى بلادنـا، هـما النمـوذج النمطـى لفرسـان هـذا الزمـان، الذيـن يسـتثيرون مئـات الملايـين مـن مشـاهدى التليفزيـون كل يـوم فى كل أنحـاء العـالم... أولئـك المشـاهدون الذيـن يصـل بهـم الحـماس إلى منتهـاه حـين تركـز الكامـيرا عـلى مشـاهد التدمـير والنسـف والقتـل.. بالنبدقيـة أو بالمسـدس أو بالسـم.. ويـا حبـذا لـو كان طعنًـا بالخنجـر أو ضربًـا بالكاراتيـه.. وتصـل بهـم النشـوة إلى ذروتهـا حـين تـبرز النجمـة الجاسوسـة ماعندهـا فيغـرق معهـا جيمـس بونـد ـ قبـل أن يطعنهـا بالخنجـر ـ فى دعـارة براقـة بالألـوان، بينـما الجـدران مـن حولهـما تهتـز عـلى إيقـاع صوتيـات مهيجـة مثـيرة... ـ يـا إلهـى ـ.. رحـم اللـه أزمنـة كان فيهـا الأطفـال ينشـأون عـلى الحـماس للمثـل العليـا، وكان

الفرسان هم الذين يضربون المثل فى التضامن الإنسانى والتكافل الأخوى والدفاع عن الضعفاء والمضطهدين.. وكان الفن يربى الناس على عشق الجمال ومحبة الخير والاقتراب من صفات الله.

... ...

إستدرجنا جيمس بوند قليلاً، ولكننا لم نخرج عن الموضوع، فالفن الدعائى، وخاصة على الشاشتين الصغيرة والكبيرة، أصبح فى زماننا هو الوسيلة الأولى للتأثير على عقول الناس وتكييف وجدانهم، أى أصبح سلاح الدعاية السياسية الأول، وبإستخدامه سادت، من بين أفكار خاطئة أخرى، فكرة أن السبب الذى من أجله أنشئت أجهزة مخابرات بهذا المقياس المروع هو الحاجة العملية، الناشئة من مراعاة السرية والتكتم.. إلى آخر هذا الكلام.

ولكننا نرى أن هذا ليس إلا سببًا جزئيًا جدًا.. وسطحيًا وجانبيا...

فالمهمات الـ "جميس بوندية" لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من نشاط أجهزة المخابرات المعاصرة.. إنما النسبة الغالبة هى لأشكال ظاهرها عادى جدًا، بل محترم جدًا أيضًا. وإذا كانت المخابرات تستخدم أحيانًا بعض المغامرين أو الجواسيس المدربين أو القتلة المحترفين أو بائعات الهوى.. أو ما شابه هؤلاء من فرسان العصر الملعون.. فإن غالبية من توظفهم المخابرات ليسوا من هذه الأصناف.. إنما هم من أصحاب المهن المحترمة : رجال أعمال ـ أساتذة جامعات ـ خبراء اقتصاديون ـ علماء فى كل فروع التخصصات بدءًا من البحوث النووية إلى الميكروبات ـ أطباء ـ برلمانيون بارزون ـ صحفيون مقتدرون ـ كتّاب ـ أدباء وفنانون من كل مضرب ـ سينمائيون ـ... الخ...

إن المخابرات المركزية الأمريكية، كما قلنا، حكومة ذات مسئولية عالمية، ومن ثم تشتمل على كل ما تحتاجه حكومة بهذا القياس من كفاءات سياسية وعلمية وفنية وإدارية.. تمكنها من النهوض بالمسئولية.

إنما السؤال الذى نعيده مرة أخرى، هو : ما السبب فى كون هذه الحكومة "خفية"؟ لماذا ينقسم جهاز الدولة الأمريكى إلى جهاز علنى هو ما يعرف باسم

الإدارة الأمريكية، الذى يرأسه رئيس الجمهورية، وإلى جهاز خفى مواز له، يكاد يضارعه نفوذًا وسلطانًا، تشرف عليه أيضًا رئاسة الجمهورية ؟

فى رأينا أن السبب الأصيل ليس عمليًا، كما توحى بذلك الفنون الدعائية، وإنما السبب الأصيل سبب إيديولوجى أخلاقى.

كيف ؟

التبرير الإيديولوجى للحرب التى تخوضها الدولة الأمريكية على النطاق العالى هو أنها تدافع عن "العالم الحر". وحين يقال لنا، نحن شعوب العالم الثالث عامة، ومن وقع منا تحت رحمة أمريكا خاصة، أننا جزء من ذلك العالم الحر الذى تتجشم أمريكا كل ذلك العناء للدفاع عنه، فإن هذا القول لا يعدو أن يكون نكتة سخيفة أو كذبة مفضوحة يؤدى تكرارها إلى نقيض الغرض منها - أى إلى تعبئة المشاعر ضد مروجيها... ولكن، ليس الأمر كذلك بالنسبة للأمة الأمريكية، التى طالما أخذت غالبيتها هذا الإدعاء مأخذ الجد بفضل تكوينها وتراثها التاريخى الخاص.

الآباء المؤسسون للأمة الأمريكية، كما يسمونهم، هم أخلاط من المهاجرين الذين نزحوا من أوروبا إلى العالم الجديد، وقت أن كانت أوروبا تخوض سلسلة الحروب والاضطرابات التى أفضت إلى الخروج نهائيًا من عهد الاقطاع وولوج تاريخها الحديث، والعناصر النشيطة الفعالة فى ذلك السيل من المهاجرين كانوا هاربين بحريتهم من جو الاستبداد وظروف الاضطهاد والقمع التى تميز فترات القلق والاضطرابات والتغيرات الاجتماعية والسياسية العنيفة، وعلى أرض القارة الأمريكية البكر، أخذ الآباء المؤسسون فرصتهم لإقامة مجتمع حر، كأقصى ما تكون الحرية التى كانوا يحلمون بها، والتى حالت بقايا القرون المظلمة بينهم وبين إقامته فى أوروبا.

واذ كانت التجمعات السكانية الأوروبية التى تأسست على أرض أمريكا مستعمرات تابعة للتاج البريطانى، فإن نضج العوامل المكونة للأمة الأمريكية والنضال من أجل إقامة مجتمع حر متكامل لم يلبث أن اصطدم بالسيطرة الاستعمارية البريطانية... ومن ثم كانت حرب الاستقلال التى قادها جورج وشنطن، وتوجت عام 1776 بإنشاء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. وجاء الدستور الأمريكى، الذى صاغته صفوة مفكرة على قمتها بنيامين فرانلكين، ليكون

التحقيق الأكمل للمبادئ الليبرالية التى بشر بها فلاسفة التنوير ورواد التحررية الأوروبية، حين كانوا يعبرون عن نضال الأمم الأوروبية الحديثة لازاحة كابوس القرون المظلمة، وإقامة عالم الحرية والاخاء والمساواة.

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة هى العالم الجديد، ليس بالمدلول الجغرافى فحسب ـ بصفتها الأرض "البكر" الجديدة التى إكتشفها الرجل الأبيض وشرع فى تعميرها، وإنما أيضًا بمدلول حضارى ومعنوى براق، بوصفها الدولة التى حققت لمواطنيها الحرية، وهى أمل المناضلين الأوروبيين وملاذهم.

هذا هو موجز القصة التاريخية التى تنطوى على ما يمكن أن نسميه "الأيديولوجية الأمريكية" - أيديولوجية الحرية.. والعالم الحر، وهى تستمد جذورها من بعض وقائع التاريخ، وتكسب قوة واستمرارية من التكرار والعادة، ومن إصرار الفئة الحاكمة على تأكيدها وتغذيتها، وتفسير كل حقائق الحياة على نحو لا يتعارض معها... مهما بدى التفسير خارجًا على المعايير العقلانية للناظر من الخارج. فمثلاً : إبادة الهنود الحمر هى عملية تحرير لهؤلاء المتوحشين أنفسهم، حتى لو أدى ذلك إلى استخدام العنف معهم...

ومع التكرار والعادة، وبقوة المصالح المادية للمستوطنين الذين استمرأوا الاستيلاء على كنوز القارة البكر... تتعايش الممارسة العنصرية اللاإنسانية جنبًا إلى جنب مع القناعة الأيديولوجية التحررية الإنسانية فى ضمير الأمة وفى نفسية الأفراد... وهكذا تصبح الأيديولوجية التحررية قناعًا وتبريرًا لأشد أنواع الممارسات القمعية والاستعبادية والعنصرية.

وما يقال لتبرير سرقة أراضى الشعب الهندى الأحمر وإبادته، يقال شبيهه لتبرير استعباد الأفريقيين واختطافهم، وتدمير الطاقة البشرية للقارة السمراء لتسخيرها من أجل أن يثرى مستوطنو العالم الجديد.

ولكن تسخير العبيد فى المزارع الكبيرة فى ولايات الجنوب الأمريكى لا يلبث، مع تطور الرأسمالية الصناعية، أن يصبح عائقًا فى سبيل نمو الصناعة، خاصة فى ولايات الشمال الشرقى الأكثر تقدمًا، ومن ثم، تحاول الرأسمالية الصناعية الأمريكية المتقدمة أن تلغى العبودية، أن تنهى ذلك الامتياز الذى يتمتع به أصحاب مزارع الجنوب، (سبق أن عملت البورجوازية الأوروبية على إلغاء القنانة الاقطاعية)، وذلك لإطلاق طاقة بشرية يمكن أن تكون إنتاجية من جانب، ولتحسين شروط

المنافسة لصالح تطور الصناعة من جانب آخر، وإذ يرفض أصحاب مزارع الجنوب، ويصل الخلاف إلى حد تهديد وحدة الدولة الأمريكية ـ تنشب الحرب الأهلية التى تولى قيادة الشمال فيها الرئيس الشهير، إبراهام لنكولن... وتكون فرصة تاريخية نادرة لدعم الأيديولوجية الأمريكية التقليدية... إذ يقلل المؤرخون الأمريكيون من شأن كل الدوافع الأصيلة والعوامل الأخرى ليؤكدوا أن الدافع الأساسى ـ أن لم يكن الوحيد ـ لنشوب تلك الحرب هو رغبة البيض الطيبين فى تحرير عبيدهم... بل إنها لفرصة أن يذهب البعض إلى أن العبودية كانت دائمًا جسمًا غريبًا فى كيان الأمة الأمريكية لا ينسجم وتكوينها الأخلاقى، وأنها كانت مرضًا منقولاً إليها من العالم القديم، ها هى تقاتل لتخليص نفسها منه حين حانت الفرصة... ثم هى تجند طاقاتها المادية ورصيدها المعنوى لتخليص العالم من بقاياه... وفى وجدان الأمريكى العادى أن إبراهام لنكولن أكثر من أن يكون رجل دولة عظيمًا وقائدًا شجاعًا، خاض حربًا ضارية من أجل المحافظة على وحدة الدولة الأمريكية وإطلاق طاقاتها البشرية والإنتاجية، ووضع بذلك الأساس لقوة أمريكا وصعودها إلى مكانة الدولة الأولى فى العالم فيما بعد... وإنما لنكولن هو ـ أولاً وقبل كل شئ ـ قديس أمريكى، تجسيد لعشق الأمريكيين للحرية واستعدادهم للقتال من أجل تحرير أنفسهم !!

كذلك فسر الأيديولوجيون الأمريكيون كل مراحل التوسع الخارجى للدولة الأمريكية تفسيرًا يبين أن التوسع الأمريكى دائمًا يهدف إلى تأكيد مبادئ الحرية ونشرها فى العالم.

مبدأ مونرو (1823) الذى هو الإعلان الرسمى عن دخول المؤسسة الحاكمة الأمريكية عصر التوسع الخارجى، فى اتجاه أمريكا الوسطى والجنوبية... هو تحرير لأمريكا اللاتينية من سيطرة وإستعمار الدول الأوروبية، وفى مقدمتها حينذاك أسبانيا والبرتغال.

ودخول أمريكا حلبة المنافسة العالمية مع الدول الصناعية التى سبقتها إلى الأسواق العالمية... هو نضال من أجل إعلاء مبادئ الحرية الاقتصادية، وحرية التجارة خاصة. ـ أين هذا من موقف الولايات المتحدة اليوم من اليابان ؟! ـ

ولكن، فى السياق التاريخى المتسق لهذه الأيديولوجية الأمريكية، كان الرئيس تيودور روزفلت، الذى تولى رئاسة أمريكا فى نهاية القرن الماضى، خروجًا على

المألـوف، إذ كان الرجـل يعـبر عـن أفعالـه الامبرياليـة التوسـعية بلغـة عداونيـة إمبرياليـة صريحـة.. ومـن ثـم يعتـبره بعـض المؤرخـين المحافظـين اليمينيـين رجـلاً ذا مبـادئ أخلاقيـة محمـودة ـ رجـلاً شـجاعًا صريحًـا لا يعـرف النفـاق... وللنـاس فيـما يعشـقون مذاهـب !!

ولكـن تصحيـح الخطـأ الايديولوجـى الـذى وقـع فيـه الرئيـس تيـودور روزفلـت لم يلبـث أن جـاء عـلى يـدى الرئيـس وودرو ويلسـون، الـذى دخـل بالولايـات المتحـدة الحـرب العالميـة الأولى فى مراحلهـا الأخـيرة، وعجّـل بإنتصـار الحلفـاء، أعلـن ويلسـون أن الدافـع لأمريـكا لدخـول الحـرب لم يكـن هـو الاشـتراك فى رسـم خريطـة عـالم مـا بعـد الحـرب لإعـادة إقتسـام العـالم والحصـول عـلى نصيـب مـن ممتلـكات المهزومـين.. لا.. حاشـا للـه.. وإنمـا حـارب الأمريكيـون لإعـلاء مبـادئ الحريـة الأربعـة عـشر.. تلـك المبـادئ التـى كانـت أشـهر قصاصـة ورق خلفتهـا الحـرب العالميـة الأولى.

... وليسـت أمريـكا، المحبـة للحريـة، هـى السـبب فى أن تلـك المبـادئ ـ التـى مـن بينهـا مبـدأ حـق الأمـم فى تقريـر المصـير ـ تحولـت إلى قصاصـة ورق. لا، وإنمـا هـى الـروح الاسـتعمارية التـى تشـبثت بهـا الامبراطوريـات الأوروبيـة، ليـس المسـئول هـو الرئيـس الأمريـكى الطيـب المخـدوع، وإنمـا هـم ثعالـب بريطانيـا وضبـاع فرنسـا الذيـن تنكـروا للمبـادئ العظيمـة، وصاغـوا معاهـدة فرسـاى المشـئومة.. هكـذا تقـول الروايـة..!!

غـير أن تلـك القصاصـة التـى لم يكـن لهـا أثـر يذكـر فى مجـرى السياسـة العالميـة وفى ترتيـب أوضـاع عـالم مـا بـين الحربـين، كان لهـا فعـل السـحر إيديولوجيـا، فهـى التـى جعلـت دعـاوى الحريـة الأمريكيـة تتجـاوز نصـف الكـرة الغـربى وجـزر المحيـط الهـادى وبعـض شـواطئه لتصـل إلى آخـر ركـن فى الكـرة الأرضيـة.. ألا تذكـر كتـب التاريـخ فى بلادنـا، منـذ أكـثر مـن سـتين عامًـا، أن مـن بـين أسـباب قيـام الثـورة المصريـة عـام 1919 أن القـادة الوطنيـين، سـعد زغلـول ورفاقـه، ألهمتهـم وشـجعتهم مبـادئ الحريـة الأربعـة عـشر التـى نـادى بهـا الرئيـس الأمريـكى ويلسـون ؟!

عظيم.

ولكـن حظـوظ الأيديولوجيـة الأمريكيـة لم تبلـغ الـذروة ألا فى الحـرب العالميـة الثانيـة. أنهـا أيديولوجيـة الحريـة التـى بفضلهـا ـ عـلى الجبهـة الدعائيـة ـ أصبحـت الأمبراطوريـة الأمريكيـة المعروفـة بأسـم "العـالم الحـر" كـبرى امبراطوريـات التاريـخ... وهكـذا تتحقـق واحـدة مـن أكـثر تنبـؤات جـورج أورويـل فى كتـاب مـن أشـهر كتـب القـرن العشريـن، عنوانـه "1984"، تنبـأ بلغـة جديـدة، تفسـد فيهـا مدلـولات المفـردات فسـادًا تامًـا، فتوحـى الألفـاظ بمعـان تتناقـض تمامًـا مـع المعـانى المتعـارف ـ أو التـى كان متعارفًـا ـ عليها.

ولأن الدولـة الأمريكيـة كانـت دائمًـا حسـنة الطالـع موفـورة الحـظ، كثـيراً مـا قُدمـت لهـا الانتصـارات السـهلة عـلى أطبـاق ذهبيـة، فقـد ائتلـف الأعـداء والأصدقـاء، فى الحـرب العالميـة الثانيـة، للمسـاعدة عـلى وصـول الأيديولوجيـة الأمريكيـة إلى ذروة أمجادهـا.

كان هتلـر وموسـولينى وحلفاؤهـم اليابانيـون خصومًـا عدوانيـين معلنـين، يقولـون عـن أنفسـهم صراحـة أنهـم عدوانيـون. غـلاظ فى القـول اسـتفزازيون فى الفكـر بقـدر مـا هـم همجيـون فى الحـرب اسـتبداديون فى الحكـم، وقحـون ودمويـون مـن البدايـة إلى النهايـة، وحـين ينشـب صراع عالمـى مسـلح فى كوكـب مايـزال غالبيـة سـكانه مـن المسـتضعفين المسـتعبدين، فـإن حظـوظ دعـاوى الحريـة والديموقراطيـة تكـون ـ بالتأكيـد ـ أكـبر. وحتـى لـو كان عنـد النـاس شـكوك قويـة فى أن تلـك الدعـاوى تفتقـر إلى الاخـلاص والجديـة، فـإن الضعـف يجعـل المسـتضعفين أكـثر استسـلامًا لتمنياتهـم الفكريـة، خاصـة وأن الغالبيـة ـ خـارج نصـف الكـرة الغـربى ـ قليلـو الخـبرة بالسـادة الجـدد... وكأن لسـان حالهـم يقـول: ربمـا هـؤلاء السـادة الجـدد، بفضـل غناهـم الفاحـش وحظهـم الحسـن يكونـون أكـثر صدقًـا وتعففًـا...

هكـذا كان يفكـر غالبيـة النـاس فى سـنوات الحـرب، خاصـة والسـاحة خاليـة مـن نغمـة أخـرى، ومـا كان ثمـة نغمـة أخـرى قـادرة عـلى الموازنـة عالميًـا ـ غـير نعيـب هتلـر وموسـولينى الـذى غالبًـا مـا أدى إلى نتائـج عكسـية ـ سـوى النغمـة الشـيوعية، ولكـن الشـيوعية حينـذاك كانـت متحالفـة مـع الحريـة الأمريكيـة، يسـتفيد كل منهـما ـ أيديولوجيًـا ـ مـن سـكوت الآخـر، وهـذا أضعـف الإيمـان. بـل كثـيراً مـا يدعـم كل منهما الآخـر، أن صراحـة أو ضمنـًـا... وأشـهر مثـل عـلى السـكوت التاريخـى المتبـادل هـو حـل الأمميـة الشـيوعية الثالثـة (الكومنـترن) عـام 1943، فى مقابـل إيقـاف الحمـلات

المعادية للسوفييت من الجانب الآخر. ثم جاءت مشروعات المواثيق التأسيسية لهيئة الأمم المتحدة لتكون أكمل تعبير عن الائتلاف الأكبر، بين الليبرالية الغربية والشيوعية السوفييتية، لتعبئة الطاقات المعنوية لجميع شعوب العالم فى الحرب، والتبشير ببناء عالم المستقبل الموعود، عالم السلام والرخاء.

لسنا بحاجة إلى تأكيد أن دوافع ذلك العرس الأيديولوجى كانت سياسية عسكرية، لا هى حضارية ولا هى إنسانية، كما قالوا فى الخطب وكتبوا فى المواثيق، ومن ثمَّ، لم تكد تلوح فى الأفق بشائر زوال الخطر الفاشى حتى إنتهى شهر العسل فجأة إلى طلاق بلا رجعة، حتى قبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية... فقد بدأت الحرب الثالثة، حرب وراثة الإمبراطوريات الزائلة.

كان تشرشل هو الذى أعطى إشارة البدء، استأنف الاستعمارى العجوز الحملة ضد الاتحاد السوفييتى، حليف الأمس القريب، وأعلن أن دواعى الحرب ضد هتلر هى التى استدعت التحالف مع "الشيطان"، وأعاد رفع راية مكافحة الشيوعية بإعتبارها الخطر الذى يهدد الحرية والحضارة الغربية ـ نفس ما كان يقال قبل لحظات عن النازية والفاشية فى البيانات المشتركة التى كانت تصدر مع الروس !! ـ ومن الجانب الاخر، صدر عام 1947 تقرير زدانوف، الساعد الأيمن لستالين حينذاك، وفيه أعلن السوفييت أن العالم قد أنقسم، بإنتهاء الحرب، إلى معسكرين، أحدهما إمبريالى رجعى والآخر اشتراكى تحريرى، ودعوا إلى تعبئة قوى الاشتراكية وحركات التحرير الوطنية من أجل القضاء على الإمبريالية والرجعية، بإعتبارهما وريث الفاشية والنازية... وهكذا فى يوم وليلة، تحول المنظر إلى سباق محموم بين الجانبين للتشهير وإثارة الفضائح الأيديولوجية، وهو سباق ما يزال خطه العام فى تصاعد حتى اليوم.

هكذا نشبت الحرب الأيديولوجية بين الحرية والشيوعية، بين العالم الحر والمنظومة الاشتراكية. وهى الجانب المعنوى ـ غير العسكرى ـ فى الحرب العالمية الثالثة، حرب الوراثة الامبراطورية.

تتلخص الفكرة الأساسية فى الحرب الأيديولوجية فى محاولة كل من طرفيها الكشف عن الهوة بين الادعاءات المبدئية والممارسات الواقعية للخصم، مع إثبات الاتساق بين مبادئه وممارساته هو. فإذا كانت المبادئ المعلنة ـ مثلاً ـ هى مبادئ الدفاع عن الحرية والديموقراطية، والممارسة تهدف إلى فرض السيطرة

والسيادة العالمية فيجب إثبات أن كل ما تفعله الدولة المعنية من أجل السيطرة على البلاد الأخرى إنما هو من أجل تحقيق حرية هذه البلاد !! هذا - طبعًا - فضلاً عن محاولة إثبات أن المبادئ التى ينادى بها الطرف المعنى - الحرية من جانب، أو الشيوعية من الجانب الآخر - هى الأقرب إلى المثل الإنسانية العليا، وأن تحقيقها يفضى إلى بناء عالم أفضل - هو العالم الذى بشرت به مواثيق الأمم المتحدة.. ؟.. - وأن تلك المبادئ قابلة للتحقيق فعلاً وليست مجرد تمنيات أو أحلام مستحيلة، وأخيرًا وليس آخرًا، لابد - دائمًا - من إضافة جرعات من الإرهاب المعنوى، أى تخويف الناس المعنيين وإثارة ذعرهم، وتهديدهم بسوء العاقبة أن هم تنكبوا الطريق المرسوم.

ولكن، بعد أن انقلب تشرشل وترومان وديجول على ستالين بعد مؤتمرى يالطاو بوتسدام، وشرعوا يثيرون ذعر العالم من الشيطان والالحاد والستار الحديدى.. لم يكن المنظر غريبًا على السوفييت، فقد ألف الاتحاد السوفييتى، منذ ثورة أكتوبر 1917 حتى التحالف الذى فرضته ضرورات الحرب العالمية فى 1941، ألف أن يكون معزولاً ومحاصرًا أيديولوجيا فى محيط عالمى بورجوازى إمبريالى لم يتوقف يومًا عن التشهير بالشيوعية والنظام السوفييتى، ومن ثمَّ توفرت للسوفييت خبرة ثمينة فى خوض حرب أيديولوجية طويلة الأمد، ضد خصوم أيديولوجيين أقوياء، فى ظروف أكثر صعوبة وأشد قسوة، وفى الأثناء، أقام السوفييت جهازًا دعائيًا متمرسًا، ورتبوا من الوسائل العملية والأجهزة التنفيذية ما يجعلهم أكثر قدرة على إخفاء المفارقات بين المبادئ المعلنة والممارسات الواقعية، وتوفر لهم - فى إطار الأممية - حلفاء طبيعيون فى كثير من بلاد العالم يساعدون على الكشف عن جرائم الامبريالية ومظالم الرأسمالية ومخازى الرجعية... وغنى عن الذكر أن المثل العليا للشيوعية، بغض النظر عن نقائص التطبيق الواقعى هنا أو هناك، لها فرص فى عالم ما يزال غالبيته من المقهورين المستضعفين أكبر من فرص الليبرالية الغربية، خاصة وأن كثيرًا من الأمم والشعوب المضطهدة كانت قد أكتشفت، من خبرتها التاريخية المريرة، أن الليبرالية الأوروبية تحولت إلى قناع مهلهل للإمبريالية. وليست الأيديولوجية الأمريكية، فى التحليل الأخير، إلا طبعة منقحة ومزينة من تلك الليبرالية.

لذلـك لم يخـسر الـسوفييت فى الحـرب الأيديولوجيـة التـى أحتدمـت منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة بنفـس القـدر الـذى خـسر الأمريكيـون.

لقـد خـسر الطرفـان، مـا فى ذلـك شـك، فقـد نالـت كل دولـة مـن الأخـرى، أيديولوجيـا، ونهشـتها نهشًـا طيلـة مـا يقـرب مـن أربعـة عقـود متصلـة.. عـلى نحـو يذكرنـا بقصـة الأسـدين اللذيـن تقاتـلا فنهـش كل منهـما مـن لحـم الآخـر إلى درجـة لم يبـق منهـما إلا الذيـلان !! ولكـن ـ تظـل خسـارة الأمريكيـين هـى الأكـبر.

لقـد خـاض الأمريكيـون معاركهـم الإيديولوجيـة السـابقة ضـد خصـوم ضعفـاء، وفى ظـروف مواتيـة دائمًـا، وتمكنـوا بسـهولة مـن جعـل المـزاج العـام للأمـم المعنيـة لا يرفض إدعـاءات الحريـة الأمريكيـة، بـل غالبًـا مـا ينبهـر بهـا ويتحمـس لهـا، وأفضـل هـذه الظـروف هـى التـى توفـرت أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، بسـبب فجاجـة الخصـوم الفاشـيين، ومعونـة الحلفـاء الديموقراطيـين والشـيوعيين، وزعامـة قـادرة تجسـدت فى شـخص الرئيـس الأمريـكى الأشـهر، فرانكلـين روزفلـت.

ولكـن الأيـام الصعبـة للإيديولوجيـة الأمريكيـة بـدأت بعـد لحظـة مـن الزمـان، عنـد نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، منـذ بـدأت المواجهـة مـع الاتحـاد السـوفييتى عـلى الجبهـة الايديولوجيـة. وكان الاتحـاد السـوفييتى قـد أصبـح الدولـة العظمـى الثانيـة فى العـالم، والقـوة الوحيـدة القـادرة عـلى قبـول التحـدى الأيديولوجـى الأمريـكى، ومـن خلفـه هبـت الحركـة الشـيوعية العالميـة التـى كانـت قـد أكتسـبت قـوة هائلـة أثنـاء الحـرب، وكانـت موحـدة كلهـا تقريبًـا تحـت الزعامـة السـتالينية، فـلا تنـال منهـا خربشـات الأمميـة التروتسـكية الرابعـة شيئـًا، وأعيـد إنشـاء طبعـة جديـدة مـن الأممية الشيوعيـة فـى صـورة مكتـب للاسـتعلامات فـى بـراج (الكومنفـورم) عـام 1947، وفى نفـس الوقـت، جـاء المـد الثـورى العالمـى لحـركات التحـرر الوطنـى فى أواخـر الحـرب وأعقابهـا، ليلقـى بثقلـه فى الكفـة المناوئـة لدعـاوى الحريـة الأمريكيـة، والعـالم الحـر الـذى لم يقتنـع أحـد فى العـالم الثالـث أنـه جـزء منـه، طالمـا ظـل العـالم الثالـث ثالثـًا.

وهنا نقترب من إجابة على السؤال الذى طرحناه منذ بضع صفحات.

وفى رأينـا أن ضرورات الحـرب الأيديولوجيـة فى الظـروف الجديـدة ظـروف احتـدام حـرب الوراثـة الامبراطوريـة وتصاعدهـا، مـع وجـود خصـوم أقويـاء مؤكديـن، فى حجـم الاتحـاد السـوفييتى والحركـة الشـيوعية العالميـة، وخصـوم لا يسـتهان بهـم فى حركـة التحـرر الوطنـى فى المسـتعمرات والبـلاد التابعـة والبـلاد حديثـة الاسـتقلال... وخصـوم

محتملين فى الولايات المتحدة نفسها من المثاليين الذين يمكن أن يتأثروا بالدعاية المناوئة... ـ ضرورات هذه الحرب الأيديولوجية هى التى دفعت الدولة الأمريكية إلى إعادة تأسيس جهاز مخابراتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، عام 1949، لتصبح الـ سى أى أيه هى الحكومة الخفية ذات المسئولية العالمية، هى الجناح غير المرئى فى السلطة التنفيذية الذى يضارع الحكومة العلنية ويكاد يبرزها فى بعض من مجالات العمل الأكثر حساسية، وفى أوقات الشدة ولحظات الطوارئ.

فالمسئوليات العسكرية الخالصة كانت أيسر علاجًا. وليست هى ـ بالتأكيد ـ التى استدعت تأسيس المخابرات المركزية الأمريكية عام 1949. وذلك لسببين أساسيين، احدهما يتعلق بالاستراتيجية الكوكبية، والثانى بطبيعة الفنون العسكرية :

فأولاً : حرصت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، كلاهما، على ألا تصعد أية أزمات أو معارك فى مسار الحرب العالمية الثالثة على نحو يفضى إلى صدام عسكرى مباشر بينهما، حرصًا دائمًا على أن تدور المعارك المسلحة على أرض طرف ثالث، وحتى الآن تدور المعارك بالفعل على أراضى المستضعفين، على أراضى بلاد العالم الثالث... وفيما يسمونه الاستراتيجية الكوكبية للجانبين، فلا مانع ـ حين تتأزم الأمور جدًا ـ من أن تُتخذ القارة الأوروبية نفسها مسرحًا للعمليات العسكرية، ولكنه بعيدًا عن أراضى العملاقين... هذه أمور لم تعد خافية على القارئ العادى للصحف اليومية.

أما عن التقنيات العسكرية، مثل التدريب والتسليح والقواعد... فهى أمور مبحوثة مدروسة، وفى غالبيتها مشروعة ومعلنة على نحو ما، وأسرارها من اختصاص إدارات المخابرات العسكرية لا إدارة المخابرات العامة ـ التى من نوع الـ سى آى إيه ـ وموارد القارة الأمريكية وطاقاتها البشرية، وممتلكات أمريكا وحلفاؤها فى العالم، قادرة على بناء الصرح العسكرى المطلوب... فقط لو أحسن تعبئة الطاقات المعنوية للأمة الأمريكية وللأمم المعنية، المطالبة بتقديم الجهد والمال والدم... ويتحمل الأعباء النفسية وحساب الضمير الإنسانى.

ومن هنا الحاجة إلى أكثر من حكومة وأكثر من لغة.

الحكومة العلنية تستخدم اللغة الأيديولوجية، لغة الحرية والعالم الحر، لزوم التعبئة المعنوية وتبرير ممارسات القوة والسعى للسيطرة. والحكومة الخفية

تستخدم ـ فى دهاليزها وأوكارها غير المنظورة ـ لغة واقعية، تجف دماء الناس العاديين هلعًا لو سمعوها، وتمارس مهمات عملية لو مورست علنًا لكانت فضيحة أيديولوجية وفجيعة أخلاقية.

فمثلاً.

عندما أطلق الاتحاد السوفييتى قمره الصناعى الأول، فى 1957، وكان ذلك يعنى سبقًا مؤكدًا فى التسلح الصاروخى وبحوث الفضاء، أعلنت الإدارة الأمريكية جهارًا ودون حرج أنها ستعبئ كل ما تستطيع من موارد مادية وقدرات علمية من أجل اللحاق بالسوفييت فى هذا المجال والسبق عليهم، فالهدف هنا هدف مشروع ولا غبار عليه فى نظر المواطن الأمريكى العادى المنسجم مع أيديولوجية الحرية والعالم الحر، وله مبررات مقبولة أمام الرأى العام العالمى، والعلنية هنا لا تتناقض مع متطلبات الحرب الأيديولوجية.

ولكن، حين يتعلق الأمر ببلد فقير من بلاد العالم الثالث، يعانى ملايين من سكانه من سوء التغذية، وتتعرض مناطق منه لخطر المجاعة.. وترى الدولة الأمريكية الفرصة سانحة لاستخدام "المعونة" الغذائية من أجل فرض السيطرة عليه ـ فإن الأمر يختلف، إن تجنيد مسئولين محليين فى البلد الفقير المنكوب للحصول منهم على المعلومات اللازمة، وتكليف علماء فى التغذية وخبراء فى الاقتصاد بدراسة كيفية إستخدام محنة الجوع لإخضاع شعب، فإن هذا أمر يتنافى مع مبادئ الحرية والمثل العليا المعلنة للعالم الحر، ولو عرف المواطن الأمريكى العادى الأمر على حقيقته لإستنكره، ولو عرفت الهيئات العلمية لرفضت، وربما دعت العلماء ـ إحترامًا لشرف المهنة ـ إلى عدم الاشتراك فى هذه الأعمال التى أقل ما توصف به أنها لا إنسانية...

لذلك، فإن الأمر يوكل إلى الأجهزة المعنية فى الحكومة الخفية، فى المخابرات المركزية، وعند مستوى معين فى الجهاز التنفيذى (ربما فى مجلس الأمن القومى) تجرى عمليات التنسيق بين الحكومتين العلنية والخفية، بين الإدارة والمخابرات، وتوزع الأدوار، وتتم إخراج اللعبة السياسية الكبرى ـ لعبة الأمم... وتتمركز هيئة أركان الحرب العالمية الثالثة.

لم نورد، فى حيزنا المحدود سوى مثل واحد من آلاف المهمات المخابراتية، فقد يتعلق الأمر ليس فقط بأستغلال ظروف المجاعة فى بلد فقير، وإنما بتدبير أمر

تجويعـه، أو إتـلاف محاصيلـه الغذائيـة بإسـتخدام الميكروبـات أو التأثـير فى الأحـوال الجويـة ـ الحـرب الميتورولوجيـة ـ أو إثـارة حـروب محليـة لتحقيـق أهـداف متنوعـة، مـن بينهـا ترويـج تجـارة أسـلحة عتيقـة تجاوزتهـا احتياجـات الجيـش الأمريـكى، أو تجربـة أنـواع جديـدة مـن الأسـلحة.. أو تخريـب اقتصاديـات بلـد معـين، أو التشـهير الظـالم بقـادة وطنيـين شرفـاء، أو تدبـير اغتيالهـم، أو إفسـاد الجهـاز الحكومـى.. أو رسـم مخططـات لإثـارة حـرب نوويـة "محـدودة" عـلى أراضى بـلاد أخـرى.. أو تطويـر أجهـزة التعذيـب البـدنى والعصبـى..

لـو عـرف عـشرات الملايـين مـن الأمريكيـين مثـل هـذه الأمـور عـلى حقيقتهـا، وهـى تعـد بـالآلاف، بعيـدًا عـن الإغـراق الإيديولوجـى الـذى يعيشـون فيـه... ولـو عرفـت الشـعوب الأخـرى.. لأدى تراكـم المعرفـة إلى تراكـم وعـى يصبـح خطـرًا عـلى مخططـات السـيطرة والسـيادة العالميـة.

مـن هنـا ضرورة أكـثر مـن حكومـة وأكـثر مـن لغـة. حكومـة علنيـة تسـتخدم لغـة إيديولوجيـة مموهـة لـزوم التعبئـة المعنويـة، وحكومـة خفيـة تسـتخدم لغـة عمليـة فظـة وتمـارس مهـمات لـو مورسـت علنـا لكانـت فجيعـة أخلاقيـة ونزيفـًا أيديولوجيـًا.

وأصـل الأصـول فى كل ذلـك هـو المفارقـة الصارخـة بـين مثاليـة الادعـاءات الأيديولوجيـة وتدهـور الممارسـات الواقعيـة.

ولـو أن المفارقـة قـاصرة عـلى أمريـكا وحدهـا لإقتصرت أعـراض المـرض وتداعياتـه عـلى الولايـات المتحـدة دون غيرهـا. ولكـن المفارقـة بـين الأيديولوجية المعلنة والممارسـة العمليـة مـرض عالمـى، ومـن ثـمَّ فـإن الأعـراض والتداعيـات عالميـة. فى الـشرق كـما فى الغـرب. بـل لقـد أنتقـل المـرض إلى العـالم الثالـث، الـذى غالبـًا مـا تنتقـل إليـه أمـراض العـصر مضاعفـة.. وهـو ـ وا أسـفاه ـ الضعيـف الـذى لا يحتمـل.

المفارقـة بـين الإيديولوجيـات المعلنـة والممارسـات الواقعيـة تختلـف، مـن بلـد إلى آخـر، فى الشـكل والدرجـة والتفاصيـل. ولكـن الانفصـام فى الحيـاة السياسـية والحيـاة العامـة موجـود دائمـًا، وفى كل البـلاد ـ مـرة أخـرى تنبـؤات جـورج أورويـل فى روايـة "1984" ـ ولأن الخصـوم لا ينامـون، ولأننـا فى وقـت حـرب ـ هـى الحرب العالميـة الثالثة ـ ولأننـا فى عـصر الاتصـالات الكوكبيـة الفوريـة، فـإن الفضائـح الإيديولوجيـة أصبحـت غـذاء يوميـًا للنـاس فى كل مـكان... إن لم تصلهـم أنباؤهـا همسـًا فى المجالـس، فـإن أخبارهـا تجتـاز القـارات والمحيطـات وتخـترق الجـدران وتصـك الآذان مـن الإذاعـات

ومصادر الدعايات "المعادية". ومن المؤكد أن كفة فضائح الممارسات قد رجحت كفة الإدعاءات الأيديولوجية التى تحولت إلى كلام أجوف لا يثير إلا الملل.. عبثًا تصرخ بها أجهزة الدعاية "المحلية"، وكأنها تعاويذ ديانات منقرضة.

لم تعد الإدعاءات الأيديولوجية إلا ستارًا كلاميًا رقيقًا لا يخفى من الفضائح الإيديولوجية إلا القليل، ويزداد الستار الأيديولوجى رقة وتمزقًا مع الوقت، وتضيق الشقة بين الإدعاءات والممارسات، وإنما ـ للأسف ـ فى إتجاه غلبة الممارسات المرذولة والأقوال الفظة، مع ضمور المثاليات والكلمات الطيبة، السباع الأيديولوجية أكلت بعضها بعضًا فلم تبق إلا الذيول.. وفى أعلى الهرم العالمى يخرج رجال الحكومات الخفية من الظل ـ بوش وأندربوف.. وآخرون ـ ليجلسوا على القمة ويتولوا كل الأمور علنا.. وإذ يكون اليأس قد نال من الكثيرين، بعد أن دوختهم الدوامة الجهنمية، فإنهم يقولون ـ وكأنهم يستعجلون كارثة يكون فيها فصل الختام ـ ربما هذا أفضل !!

ولتعويض الغذاء الإيديولوجى الذى ينفد رصيده المعنوى على مرّ الأيام والسنين، لا تجد المؤسسات الحاكمة فى البلاد الصناعية المتقدمة ـ وأمريكا هى الزعيمة بلا منازع ـ لا تجد ما تقدمه للناس فى بلادها، ـ وللطبقات الوسطى وما فوقها فى العالم الثالث ـ إلا مزيدًا من سلع الاستهلاك التى تجود بها الثورة التكنولوجية المعاصرة. وبالتدريج، تتحول الإستهلاكوية ـ أو عبادة الإستهلاك ـ إلى الإيديولوجية البديلة التى تدمر المثل الإنسانية والإدعاءات الأيديولوجية وتحل محلها. ويحل النهم للذائذ الحياة المادية والسعار من أجل إقتناء المنتجات الجديدة محل أى طموح مثالى من أجل تحرير النوع الإنسانى، والسمو نحو آفاق ثقافية وحضارية أرقى... كشرط ضرورى لاجتياز المخاطر التى تهدد الوجود المادى للنوع الإنسانى على هذا الكوكب.

ولكن الاستهلاكوية، كمعبود عالمى جديد، هو إله غائب تمامً عن فقراء هذا الكوكب، وهم أكثر من نصف سكانه. وتنمية صنم الاستهلاك فى البلاد الغنية، وإسالة لعاب الطبقات المحظوظة فى البلاد الفقيرة، بينما غالبية البشر يتضورون جوعًا ـ كل هذا لعبة خطرة، فضلاً عن كونها غير إنسانية وغير أخلاقية وغير مبررة ـ إذا أخذنا فى الإعتبار المستوى الخرافى الذى وصلته القدرة الانتاجية للبشرية فى ظل الثورة التكنولوجية المعاصرة.

وفى البلاد الصناعية المتقدمة، تدل ثورات الشباب وحركات التمرد على أن الاستهلاكوية معبود ساقط أيضًا لدى الأغنياء والمحظوظين.

عبث. كل هذا عبث. فليس من يجهل أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

حتى رجال الظل يعلمون علم اليقين أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.. ولو استشاروا عقولهم الالكترونية التى لم يعودوا يثقون فى شئ إلا إياها، لصاحت مكبرات الصوت بصراخ يملأ السماء والأرض : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

الجميع، فى الشرق وفى الغرب وما بينهما، يشعر بثقل وطأة الأزمة الإيديولوجية فى العالم المعاصر.

... ...

من زاوية رؤية معينة، لم يأت زماننا بجديد.

فمن طبائع الأمور أن شهوة السلطة والتوسع، والضروريات المرذولة للسياسة العملية ـ فى كل زمان ومكان ـ هى المذبح الذى تسفح عليه دماء الايديولوجيات والمثل العليا التى تميز الإنسان عن سائر الكائنات.. لتتحول مع الزمن إلى تعاويذ باهتة لديانات منقرضة.

ولكن، أين المفكرون والمثقفون من المحنة الشاملة ؟

ففى كل زمان أيضًا، وجد دائمًا من يجدد الرسالات، ويستثير الإلهام، ويحافظ على الشعلة مضيئة ـ حتى لو احترق بنارها.

وللحقيقة، ليس عصرنا ـ فى هذا أيضًا ـ خروجا على القاعدة.

فعلى الرغم من الظلام المتراكم، ليست ساحة العصر خالية تمامًا من نقاط مضيئة، سمع العالم عن القليل، وربما وجد كثيرون حجب الظلام اشعاعهم وخنقت مؤامرة الصمت أصواتهم... سمع العالم عن قمم فكرية وفلسفية وأدبية ناقدة رافضة مؤمنة بإنسانيتها... عن برتراند راسل وجان بول سارتر، ولويس ممفورد، وسولجنتسين، وباران وسويزى...

ولكن هؤلاء القمم، على قلتهم، أما أنهم غادروا هذا العالم أو أنهم شيوخ طاعنون إنتهى وقت عطائهم. وهم عمومًا يمتون للماضى أكثر مما يكشفون للبشرية عن رؤيا للمستقبل.

... أما الحركات الجمعية الجديدة، حركات الشباب والنساء والدفاع عن الطبيعة.. وأشباهها، فإنها ما تزال فى طور التجارب الأولية، تفتقر إلى وضوح الرؤية والنضج، والقدرة على الحركة الفعالة وتقديم المثل المقنع..

وفى جميع الأحوال، فإن أولئك الذين تمكنوا من توصيل صوتهم للعالم ـ وقد أصبح العالم كله هو الوطن الذى لا يتجزأ للمفكرين وأصحاب الرسالات المعاصرين ـ فإن بعض الفضل فى نجاحهم فى توصيل صوتهم للعالم يرجع إلى أنهم، برغم موقفهم الرافض، مواطنون عالميون من الدرجة الأولى، يحملون بطاقات هوية انجليزية أو فرنسية أو أمريكية أو ألمانية أو سوفييتية.. أما من كانت بطاقة هويته مثلنا ـ نحن فى العالم الثالث ـ فليحمد الله ـ حتى لو كان الخالق قد وهبه صفات القديسين وحكمة الفلاسفة، بل خاصة إذا كان موهوبًا بشئ منها ـ ليحمد الله، أن ظل على قيد الحياة، على أنه ما يزال يتنفس هواءه، وعلى أن روحه لم تختطف قبل الأوان... أما أن يصل صوته إلى أهله وذوى رحمه أنفسهم، ناهينا عن الوصول إلى بنى وطنه المحلى ووطنه العالمى... فعند النجوم ما يروم

أشهد أنى عايشت أكثر من جيل من مثقفى بلدى.. وأشهد أنهم لم يكونوا متقاعسين، كانوا، على إختلاف معتقداتهم، مناضلين مضحين، مات منهم كثيرون على أدوات التعذيب... مسست بيدى أخوة منهم وهم يلفظون أنفاسهم، وسجن واضطهد منهم عدد نباهى به الأمم يوم الحساب، وقضوا حياتهم يجتهدون، وما يزالون...

ولكن من لم يمت بالسيف مات بغيره، فالأموال الكثيرة التى تتدفق بغزارة فى العالم العربى هذه الأيام تحصد العقول والأقلام بكفاءة أكبر من حصاد الرصاص للرؤوس، وبأسلوب ظاهره أنظف.

لن أستطرد فى وصف الأزمة الأيديولوجية وأعراضها فى بلادنا، ولا فى ندب حال الفكر والمفكرين والمثقفين. فالقصص معروفة على كل لسان.

بإختصار، مطلوب من مثقفينا ومفكرينا مزيدًا من الجهد والاجتهاد والتجرد... دون إنتظار لأمجاد عالمية مثل راسل أو سارتر، فبطاقات هويتنا لا تسمح... ودون أن يغرى الكسب السهل بالبحث عن تعويض مادى مهمًا بلغ، وأهل الفكر أعرف الناس بأن لا شئ مادى يعوض عن الفراغ الروحى..

لـن أردد عـلى مسـامعهم موعظـة أو أرفـع شـعارًا أو أقـرأ نصًـا... لا... ولا أعـد بجنـة ولا أهـدد بنـار، فـما أنـا إلا بـشر منهـم، ربمـا مـن أضعفهـم، فليـس ورائى ظهـر ولا أمامـى طريـق مفـروش إلى شـئ موعـود.. أى شـئ، إنمـا هـو نـداء الطبيعـة البشرية، فـو اللـه لـو أصبـح كل سـكان هـذا الكوكـب مـن المحظوظـين المتمرغـين فى النعيـم والطمأنينـة، وبقـى إنسـان واحـد محـروم مـن ضرورات الحيـاة أو راحـة النفـس أو الإحسـاس بإحـترام الـذات، فسـيهب يدافـع عـن حقـه... حقـه فى أن يكـون إنسانـًـا.

... ...

الباب الرابع

الأحزاب والجيش والثورة

لمتابعة تطورات السياسة المصرية فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان لابد من هذه الوقفة لتأمل الأوضاع والصراعات الدولية، لنرى موقعنا منها وأثرها علينا.

وإذا كانت ثورة 23 يوليو هى أهم حدث فى بلادنا فى الفترة موضوع حديثنا، فلابد من وقفة أخرى لتأمل تاريخ الجيش المصرى، ونبدأ بالتنبيه إلى أشكال من التبسيط المخل وقعت فيه غالبية ما كتب فى بلادنا عن هذا الموضوع الهام.

وأشهر أشكال التبسيط هو النابع من اعتبار ثورة 23 يوليو الشئ الوحيد المضئ فى تاريخ هذه الفترة، وأن كل ما شهدناه من خير فبفضلها، وكل ما أصابنا من شر فلأننا تنكبنا طريقها، وقد جاء وقت، فى أواخر الخمسينيات إلى 1967، تطرف فيه أصحاب هذه النظرة إلى حدّ كادوا فيه أن يشطبوا كل شئ مضئ فى تاريخنا قبل 23 يوليو، فلم يروا فيه إلا ظلامًا بلا معالم، راكمته عصور العبودية والظلام والاقطاع والطغيان... إلى آخر هذا الكلام، ويترتب على هذه النظرة - طبعًا - تمجيد الجيش وقادته، وإعتباره المؤسسة الوحيدة الجديرة بقيادة هذا البلد، دون أن يورطوا أنفسهم طبعًا فى شرح كيف يكون هذا... ولكن، لما كانت كل القيم التى يدافع عنها الجيش، وإرادته، وقدراته القيادية، قد تجسدت فى

شخص الزعيم القائد.. فقد أعفاهم هذا من عناء الاجتهاد.. ويترتب على هذا أيضًا أن التاريخ الحقيقى للجيش المصرى يبدأ ليلة 23 يوليو 1952. أما "ما قبل التاريخ" فهى حرب فلسطين... وربما رجع البعض إلى ماض أبعد - إلى العام الذى دخل فيه جمال عبد الناصر الكلية الحربية (1937)، أو إلى يوم سار الزعيم، وهو شاب يافع، فى مظاهرة ما، تهتف "تحيا مصر".

والحق أن هذه النظرة التبسيطية - للأسف - هى التى سادت فى الكتب المدرسية وفى الكتابات الرسمية وشبه الرسمية عن تاريخنا حوالى عقدين من الزمان، ومن ثمّ تميز جيل المتعلمين الذين نشئوا فى هذا المناخ بقدر لا يحسدون عليه من الجهل بأهم حقائق تاريخنا وخصائصه، التى كان يدرسها الجيل السابق - والتى كان قد نجح أساتذة وطنيون مجتهدون فى تسجيلها - وكان لهذه النظرة القاصرة التبسيطية آثار شديدة الضرر على وعى الشباب الذين تربوا عليها وعلى معنوياتهم، خاصة بعد هزيمة 1967.

التبسيط المقابل هو رد فعل (عصبى وإنفعالى) رافض لهذا النهج، ونقيض له على طول الخط.. حيث يعتبر استيلاء الجيش على السلطة السياسية فى البلاد عام 1952 خطأ تاريخيًا، مصيبة دهمتنا بها الأقدار لحكمة لا يعلمها إلا الله، مؤامرة مشئومة.. وأن كل ما أصابنا من انتكاسات أو شرور فهو بسببها.. وأن الله لن يتوب علينا من كل ما نعانى من متاعب وكوارث إلا بعد أن نتخلص من كل مخلفاتها. وتتضمن هذه النظرة - طبعًا - تهوينا من شأن الجيش، وإتهامًا للقيادات التى تولت السلطة بأنها هى المسئولة عن كل مظاهر الاستبداد والجهل والتخلف.. إلى آخر هذا الكلام..

أصحاب هذا التبسيط المضاد هم ممن أضيروا بسبب الثورة وإجراءاتها، أضيروا كأفراد، ولم يستطيعوا أن يبرئوا نفوسهم من المرارة والأحقاد فيروا أى شئ آخر، أو أضيروا كممثلين لطبقات أو فئات اجتماعية إنتهى زمانها وضربت مصالحها... وتعيش على بكاء الأيام الجميلة الماضية.

أصحاب هذه النظرة غالبيتهم من رجال أحزاب الأعيان القديمة، هم لم يكتبوها، ولم يعبروا عنها صراحة. ولكن الناس يعرفون أن هذه هى طريقتهم فى النظر إلى 23 يوليو، كما يعرفون أن الشمس تشرق كل صباح، دون أن توجد وثائق مكتوبة تثبت ذلك... ولكن كاتبًا مثل نجيب محفوظ اعتنى بتسجيلها فى كثير

مـن كتاباتـه القصصيـة، والأعـمال الأدبيـة، خاصـة لرجـل مثـل نجيـب محفـوظ، لهـا قـوة لا تقـل عـن قـوة الوثائـق الرسـمية.

وأصحـاب هـذه النظـرة، طبعًـا، لا يتعبـون أنفسـهم فى تقـصى تاريـخ الجيـش، ويـرون أن الضبـاط الأحـرار لم يكونـوا إلا حفنـة مـن المغامريـن سـاعدهم الحـظ ليتعـس بهـم الأمـة، وأن حركـة 23 يوليـو لم تكـن إلا مؤامـرة وراءهـا قـوى أجنبيـة مشـبوهة، بعضهـم يقـول إن أمريـكا هـى التـى دبرتهـا، وروسـيا أسـتولت عليهـا، ثـم جـاءت إسرائيـل فهدمتهـا !!

... وحـين يسـمعون النـاس يتحدثـون عـن الجـذور التاريخيـة للحركـة، فى حـرب فلسـطين مثـلاً، فـأن ردود فعلهـم الإنفعاليـة تكتفـى بصـب اللعنـات عـلى فـاروق، والأسـلحة الفاسـدة.. وإذا تطـرق حديـث التاريـخ إلى مـا قبـل ذلـك فإنهـم يلعنـون الزمـان الـذى سـمح _ بعـد معاهـدة 1936 ـ لابـن البوسـطجى أو مثالـه بدخـول الكليـة الحربيـة !!

بعـد هزيمـة 1967 عـاد الاجتهـاد خجـولاً متواضعًـا. عـاد مصنفـو الكتب المدرسـية، والأسـاتذة الأكاديميـون، والكتّـاب السياسـيون، يراوحـون بـين هـذا التبسـيط أو ذاك، ولكـن دائمًـا ـ طبعًـا ـ فى حـدود اللياقـة والتـأدب، وعيـون الجميـع عـلى السـلطة.

نعم.

ففـى مـصر تهيـب خـاص مـن كل مـا يتعلـق بالسـلطة، ومراعـاة شـديدة لخاطرهـا ـ طبعُ ـ فـما بالنـا والأمـر يتعلـق بالجيـش. هـو الـذى قـام بالثـورة. وقـادة الثـورة هـم الذيـن حكمـوا، ومـا يـزال الجيـش هـو المؤسسـة الأولى فى السـلطة، وتلاميـذ قـادة الثـورة هـم الذيـن فى المواقـع المسـئولة.

غـير أن الأمـر الملفـت للنظـر، هـو أن الجميـع ـ عـلى اختـلاف تبسـيطاتهم ومواقفهـم الصريحـة أو المتضمنـة ـ اتفقـوا عـلى أمـر واحـد، هـو اعتبـار أن مقدمـات ثـورة 23 يوليـو ـ فيـما يتعلـق بالجيـش ـ تعـود إلى حـرب فلسـطين.. أو ـ عـلى الأكـثر ـ إلى أواخـر الثلاثينـات، أى إلى التغيـير الـذى حـدث فى التركيـب الاجتماعـى لهيئـة الضبـاط المصريـين بعـد معاهـدة 1936.

وهـذا التبسـيط الـذى يشـترك فيـه الجميـع عـلى اختـلاف المواقـف مـن ثـورة يوليـو نابـع مـن حقيقـة أنـه لم تبـذل أيـة محاولـة وطنيـة مصريـة لكتابـة تاريـخ الجيـش

المصرى، فى إرتباطه الوثيق بالتاريخ السياسى الاجتماعى للقرنين الأخيرين. لم يكتبه مؤرخو الامبراطوريات التى تعاقبت على المنطقة، فهذا ليس فى صالحهم، ولا كتبه مؤرخو القصر الملكى العلوى، فهؤلاء كانوا مؤرخى أسرة حاكمة، ومسجلى أحداث أو معارك تفتقر إلى النظرة الشاملة التى تتعمق الخلفيات الاجتماعية والحضارية، ولا أتسع الوقت أمام القيادات العسكرية الوطنية حين كانت لها الكلمة العليا، فقد كانت أيام العرابيين فى مجدهم جدّ قصيرة، وكانت سنوات الناصرية وقت أمجادها، على قصرها، مشحونة مثقلة بمهمات كانت تبدو أحق بالأولوية، وهى سنوات كثرت فيها الحساسيات والمحظورات، فيما يتعلق بهذا الموضوع بالذات، ومن ثمَّ آثر البعض السكوت، واستسهل الكثيرون الركاكة والتبسيط المخل.

إن من يقول: إن جذور ثورة يوليو، فيما يتعلق بالجيش، تعود إلى حرب فلسطين، أو قبلها ببضع سنين، كمن يقول: إن السبب فى ثورة 1919 هو إلقاء القبض على سعد زغلول ورفاقه عندما ذهبوا يقدمون مذكرتهم للمعتمد البريطانى... بينما الجذور التاريخية لحركة الجيش المصرى فى النصف الثانى من هذا القرن تعود إلى وقت أعاد محمد على باشا بناء العسكرية المصرية فى أوائل القرن الماضى.

منذ أعاد محمد على بعث العسكرية المصرية فى العقد الثانى من القرن الماضى، والجيش المصرى فى قلب العملية السياسية، فى بؤرة لعبة السلطة التى تتعاقب فصولها بين رؤوسها العتيدة الامبراطورية والقصر والأعيان.

الجيش هو المؤسسة الأساسية فى السلطة المحلية فى مصر وهو - فى نفس الوقت - مطمع الامبراطورية التى تسيطر على المنطقة (أو الامبراطوريات التى تتنافس عليها).

ولأن مصر لم تكن كاملة الاستقلال فى عصر محمد على، كان الجيش ذاتًا وموضوعًا... كان ذاتًا فاعلة، حيث هو ـ من بين كل مؤسسات الدولة ـ المؤسسة التى لها الكلمة الفاصلة فى الحياة السياسية والحياة العامة، ولكنه كان، فى نفس الوقت، موضوعًا لذات أعلى، لجهاز عسكرى أقوى، هو الجهاز العسكرى للقوة (أو للقوى) الامبراطورية.

لم تكف الامبراطورية، أو الامبراطوريات، المعنية أبدًا عن محاولة تحجيم الجيش المصرى. فهذا هو الضمان الأساسى لتنفيذ استراتيجية ثابتة لكل الدول

الكبرى فى تاريخ القرنين الأخيرين، استراتيجية عدم السماح بقيام دولة قوية فى هذا الجزء من العالم... إستراتيجية إخضاع المنطقة عامة، ومصر خاصة.

أكثر من هذا، كانت القوى الكبرى المعنية تطمع فى إستخدام الجيش المصرى كقوة محلية ضاربة تعمل فى خدمة استراتيجية الإمبراطورية التى تسيطر على المنطقة، أو فى مقاومة زحف القوات العسكرية للإمبراطوريات الأخرى المنافسة، المتكالبة على المنطقة، المتحدية للنفوذ الامبراطورى المتوطن.

ولو تصورنا كيف يفكر الأباطرة والإمبرياليون الذين تتسع شهواتهم للكوكب كله سمائه وأرضه وأعماق محيطاته، لرأينا أن جيش مصر - شأنه شأن موقعها، وممراتها البحرية، ومياه نيلها، وقوة عملها - يستحق أن يكون مطمعًا. لن أعدد المعارك العسكرية المهولة، لن أصف مشاهد الزحف على عاصمة الإمبراطورية العثمانية فى العقد الرابع من القرن الماضى، ومواجهة القوات المتحالفة للدول الست العظمى لذلك الوقت.. وصولاً إلى حرب أكتوبر ومعارك المدرعات فى 1973، فى مواجهة القوة العسكرية الثالثة فى عالم اليوم "إسرائيل" المدعومة دعمًا ميدانيًا من جانب القوة العسكرية الأولى "أمريكا"

.. لن أستطرد فى هذا الاتجاه. أخشى أن ينهكنى مزيج من الافتتان والأسى... كثرة الأعداء والخصوم حرمت بلادنا من حصاد بطولاتها العسكرية.. لا توجد دولة فى حجم مصر وظروفها لها تاريخ عسكرى قتالى بهذا المقياس المهول.. ولها - وا أسفا - مثل هذا الحظ المحدود.

لا... وربما تُولى الأكاديميات العسكرية العالمية لتاريخ معاركنا القتالية أهمية أكبر مما نتصور.

وإنما أؤكد هنا على الخلفيات الحضارية الاجتماعية السياسية.

فمنذ إنتهى عصر الفرسان والسيوف والخيل، وبدأ عصر جيوش ما بعد القرون الوسطى، المستندة إلى وجود دولة مركزية راسخة، وصناعة قوية، وعلوم عسكرية تدرس فى المعاهد والأكاديميات المتخصصة.. منذئذ، ومصر - من بين كل بلاد المنطقة - هى أكثر البلاد صلاحية لبناء قوة عسكرية قادرة. فهذا بلد - إذا لم تكن غشاوة البترول قد أعمت العيون - غنى الموارد، سكانه كثيرون، مجدون مبدعون، يبلغ فيه التجانس البشرى درجة قل أن يوجد مثلها فى العالم، وهنا

تراتب اجتماعى قديم عميق الجذور، كل واحد يعرف مكانه فى السلم الاجتماعى، ويلزمه، الإنضباط جزء من طبعه، والدولة المركزية ضرورة حياتية - الرى والصرف والأمن اليومى - واحترامها واجب، لا غضاضة فى ذلك ولا عيب، ومنذ الأزل، وفى أيام محمد على، وحتى وقت قريب، وجدت دائمًا بين الفلاحين من جانب، وسادة الأرض من جانب آخر، علاقات أبوية وثيقة، لا تتناقض - بل تتكامل - مع الولاء شبه الدينى للدولة المركزية وراعيها، خاصة فى الأوقات التى تثبت فيها الدولة والراعى الكبير القدرة على النهوض بالالتزامات التى يفترضها الوعى الجمعى للأمة المصرية.

ماذا يلزم أكثر من هذا ؟

قيادة قوية، وجهاز إدارى كفء، وتنمية اقتصادية، زراعية وصناعية، تفى باحتياجات التسليح ونمو المدن.. وشئ من الحظ الحسن تمنحنا إياه الأقدار فى ساعة رضا.. (وهل يوجد حظ أحسن من أن تتوفر هذه الشروط معًا ؟).

وقد حدث !

وخرج جيش محمد على إلى العالم.. ما رد العصر يندفع من القمقم بعد أن أغلق عليه الزمان أكثر من ألفين من السنين.

لم تسمح السلطنة العثمانية بما حدث، طبعًا، وما كان ذلك ليحدث لو كانت الإمبراطورية ما تزال بعافيتها... ولكن، أما وقد حدث، ومازالت مصر تابعة - ولو تبعية واهية - للباب العالى، فليستخدم هذا الجيش كأداة من أدوات السلطان. وقبل محمد على أن يقوم بالواجب، ولكن لتحقيق أهدافه الخاصة.. لجعل الدولة العثمانية تعتمد أكثر فأكثر على هذا الجيش الذى بناه، ليكون هذا الجيش - وقت تسنح الفرصة - هو البديل للجيش التركى الضامر الهزيل، هذا أولاً. وثانيًا، كانت التحركات العسكرية للباشا، فى إطار ما يكلفه به السلطان من مهمات الدفاع عن أمن الامبراطورية ومصالحها، كانت تهدف بصفة خاصة إلى تأمين وسائل الدفاع عن مصر بالذات، بإعتبارها قلعته الخاصة وقاعدة إنطلاقه والأرض التى يمكن - إذا دعت الضرورة - أن يحتمى بها ويدافع عن مشروعاته وهو متحصن فيها.

ومـن ثـمَّ، كانـت الحـروب والمعـارك التـى خاضهـا الجيـش المـصرى لحسـاب الامبراطوريـة التعيسـة، فى الجزيـرة العربيـة لإخـماد الحركـة الوهابيـة، وفى شـبه جزيـرة المـورة لقمـع ثـورة اليونـان، وفى بـلاد الشـام لإخضاعهـا.. والحـرب التوسـعية التـى خاضهـا لحسـاب دولتـه المصريـة جنوبـًا، فى السـودان وأفريقيـا.

لـن نسـتطرد فى الحديـث عـن الآثـار السـلبية، الحضاريـة والسياسـية والمعنويـة، للمعـارك والحـروب التـى فرضهـا عـلى الجيـش تحالـف غـير صحـى، بـين امبراطوريـة متدهـورة مـن مخلفـات القـرون الوسـطى ووال طمـوح كان مـا يـزال أجنبيـًا، فى وقـت لم يكـن قـد أتضـح بعـد مسـاره، وأدرك آفـاق مسـتقبله وقـدره المـصرى، واسـتكمل تطـوره مـن مجـرد الطمـوح إلى مؤسـس أسرة مالكـة تعاقـب ملوكهـا عـلى عـرش مـصر حـوالى قـرن ونصـف ـ فقـد سـبق أن أشرنـا إلى هـذا فى البـاب الأول ـ إنمـا نواصـل هنـا الحديـث المتعلـق بتطـور العسـكرية المصريـة.

الأرجـح أن السـلطان الـتركى كان فى غفلـة لا تسـمح لـه بـإدراك كل أبعـاد خطـر المـارد العسـكرى الـذى ظهـر فى المنطقـة، وإنمـا الـذى تنبـه وشرع يـدق نواقيـس الخطر ويشـحذ سـيوف الغـدر، كانـت هـى الذئـاب الاسـتعمارية الأوروبيـة، المحيطـة بجسـد الرجـل المريـض، تتعجـل النهايـة وتتآمـر عـلى إقتسـام التركـة، رأت أوروبـا فى بعـث العسـكرية المصريـة خطـر عـلى الجميـع، عـلى الامبراطوريـات الزاحفـة والمتوطنـة عـلى السـواء، فمهـما اختلـف اللصـوص فمـن مصلحتهـم أن يتفقـوا عـلى ألا يتنبـه أصحـاب الـدار، أو أن يكونـوا أقويـاء مرهوبـين.. وإذا كان هـذا الجيـش يسـتخدم اليـوم لخدمـة السـلطان، فمـن يـدرى مـاذا يحـدث غـدًا ؟! ربمـا يصبـح هـذا الجيـش، بـل مـن المؤكـد أن يكـون ـ إذا لم يمنعـوا ذلـك ـ هـو القـوة القـادرة عـلى مـلء الفـراغ الناتـج عـن تدهـور القـوة العسـكرية التركيـة، ويصبـح هـو الـدرع الحامـى لدولـة قويـة تنهـض فى هـذا الجـزء مـن العـالم..

اذن، فليستعجلوا ساعة الغدر قبل فوات الوقت..

هكـذا، خلـف سـتار زائـف، هـو تأييـد الثـورة التحريريـة فى اليونـان ـ تصـوروا : إنجلـترا وفرنسـا تؤيـدان ثـورة تحريريـة فى القـرن التاسـع عـشر !! ـ قامـت الأسـاطيل المتحالفـة بتحطيـم الأسطول المصرى فـى نافاريـن (1827).

ولم تكـن نافاريـن، عـلى كـبر الصدمـة التـى أحدثتهـا وفداحـة الخسـارة التـى ألحقتهـا بقـوة مـصر العسـكرية، إلا جولـة أولى، إلا إنـذارًا وتجربـة، كانـت إنـذارًا للقوى

الكبرى المعنية عامة، وتركيا خاصة، ودعوة للجميع إلى تعبئة القوة اللازمة للقضاء على هذه القوة العسكرية الصاعدة.. وتجربة للمواجهات العسكرية التى حدثت بعد ذلك، بين القوى الكبرى وجيش مصر.. تلك المواجهات التى استخدمت فيها تركيا أولاً، وبعد فشلها تصدى للمهمة المرذولة التحالف الدولى المشئوم.

بعد حرب المورة، بدأ الباب العالى يغير موقفه تغييراً أساسيًا من محمد على وجيشه، لم تعد المعونة العسكرية التى يطلبها من محمد على تطلب لذاتها، وإنما لاستنزاف القوة العسكرية المصرية، ولإحراج الباشا وتوريطه، ودفعه إلى الكشف عن أوراقه.

وفى نفس الوقت، شرع الاستعماريون الأوروبيون فى جو مشبوه ومحموم يسلحون تركيا، وأرسلوا أحسن من عندهم من خبراء عسكريين لتدريب الجيش وتحديثه، وفعلت الدبلوماسية الدنسة، البريطانية والفرنسية خاصة، فعلت فعلها لدفع الأمور بين محمد على والسلطان إلى الصدام المسلح.

ولكن، حين وقعت الواقعة فى المواجهة بين الجيش وجيش الإمبراطورية العثمانية، هزم الجيش العثمانى، وفشل فشلاً ذريعًا فى النهوض بالمهمة التى أعد من أجلها. أو ـ وربما هذا أرجح ـ كان المتآمرون الأوروبيون يعلمون النتيجة مقدمًا، بل ربما هم الذين خططوا لهزيمة السلطان فى هذه الجولة، فلو أن السلطان تمكن من هزيمة محمد على وجيشه بالإعتماد على القوة العسكرية التركية، لاستمرت ما أسموه "المسألة المصرية" مشكلة داخلية فى إطار الإمبراطورية العثمانية، أما هزيمة جيوش السلطان فهى التى أتاحت الفرصة لـ "تدويل" المسألة المصرية، حيث لا يطلب من "الرجل المريض" إلا إستخدام صلاحياته الشرعية والقانونية فحسب، أى سيادته الشكلية على مصر، وكذا استخدام الأراضى والموانى والمياه الاقليمية والتسهيلات العسكرية.. أما القوات المقاتلة الأساسية فلتدبر أمرها الدول الكبرى مجتمعة : بريطانيا وفرنسا وبروسيا (ألمانيا) وروسيا والنمسا !! وهكذا. حين دفع السلطان إلى جولة خاسرة أخرى، تدخلت القوات المتحالفة، ودارت معارك غير متكافئة بين جيوش ست دول كبرى وجيش مصر، وفرضت إتفاقات لندن 1840.

فى الوقت الذى تكتب هذه السطور (1983)، وصل منطق القوة فى العلاقات الدولية، وروح الاستهتار بحقوق البلاد الصغيرة ومصائر الشعوب المضطهدة.. إلى

حضيض نادر المثال شديد الخطر. ومن ثم يضيق المجال جدًا لاستخدام صيغ المبالغة للتأثير فى قارئ يصله كل يوم من أخبار الغابة الدولية ما كان يكفى لإصابة جيل كامل بالهلع فى عصور سابقة.

ومع ذلك، لا نملك إلا أن نتساءل : هل حدث، فى تاريخ القرن التاسع عشر، مؤامرة دولية أكبر وأشد غدرًا وأكثر لا أخلاقية مما حدث ضد مصر فى 1839 - 1840 ؟ هل حدث فى التاريخ أن تناست كل الدول الكبرى فى العالم خلافاتها، وتحالفت تحالفًا عسكريًا، لكى تقضى، بالحرب، على جهود دولة واحدة للنهوض... دولة واحدة فى حجم مصر ؟ !!

هذا قدرنا. ولا مهرب من القدر.

هذا هو العبء الذى تحملنا إياه حقائق الجغرافيا وتراكمات التاريخ.

وقد أثبتت الأمة المصرية أنها قادرة على تحمل العبء - وإن يكن بغالى الثمن - وأنه لعبء يمكن أن تنسحق تحت وطأته أقوى الأمم..

ذلك أن فى جغرافيتنا وتاريخنا أيضًا رصيدًا معنويًا وماديًا يوازن العبء، بل ويمكن - إذا واتتنا الحكمة - أن يرجحه.

... ...

قبل أن ننتقل إلى موقع الجيش العلوى فى الواقع الاجتماعى السياسى المحلى فى مصر، ننبه إلى أن المهمات الدفاعية التى شغلت الباشا، بعد أن وضح قدره المصرى تلخصت فى : الدفاع عن الشواطئ والموانى المصرية، الدفاع عن المعابر البرية والممرات المائية التى تعوّد الغزاة أن يجتازوها وصولاً إلى أرض مصر وواديها - سيناء وفلسطين وبلاد الشام، مداخل البحر الأحمر وممراته - تأمين المورد الوحيد للماء العذب جنوبًا، فى السودان. وهى نفس المهمات التى واجهتها دائمًا أية سلطة تحمل مسئولية الدفاع عن مصر المستقلة، منذ بدأ هذا الاستقلال تهدده غزوات الشعوب الرعوية المحيطة - وأولها الهكسوس - حتى غزوات المستعمرين الأوروبيين المحدثين - وأولهم نابليون بونابرت -.. نفس المهمات التى واجهت جنود مصر الكبار، التحامسة والرعامسة قبل ألفين من السنين، حتى جمال عبد الناصر ورفاقه وخلفائه بعد أكثر من قرن من الزمان اللعين.. قرن يعدل - فى حساب المشكلات والمعارك والمواجهات - أكثر من ألف عام.

فى عـصر التحامسـة والرعامسـة، وحتـى أيـام محمـد عـلى، لم تكـن هنـاك صيغـة لضـمان الأمـن العسـكرى لمـصر إلا أن تقـوم إمبراطوريـة فى هـذه المنطقـة مركزهـا مصر، وهكـذا دفعـت الـضرورات الدفاعيـة التحامسـة والرعامسـة إلى إقامـة إمبراطوريتهـم المصريـة الفرعونيـة، ومراعـاة لهـذه الـضرورات لم يتخـل محمـد عـلى (وإبنـه إبراهيـم باشـا) عـن حلـم إقامـة إمبراطوريـة مركزهـا مـصر (حتـى بعـد أن تخـلى عـن مـشروع بعـث الإمبراطوريـة العثمانيـة وحكمهـا مـن أسـطنبول)، ولكـن طغيـان الإمبراطوريـات الأوروبيـة، وتحالفهـا، وخوضهـا الحـرب ضـد الجيـش العلـوى المـصرى، جعـل الحلـم مسـتحيلاً، بـل لم تلبـث أن تحولـت مـصر نفسـها إلى شـبه مسـتعمرة.. أمـا جـمال عبـد النـاصر، فقـد حـاول أن ينهـض بعـبء الدفـاع عـن مـصر فى إطـار مشروعـه لأحيـاء "القوميـة العربيـة"، مـشروع توحيـد شـعوب المنطقـة فى النضـال ضـد قـوى السـيطرة الأجنبيـة والعمـلاء المحليـين.. نضـال يفـضى إلى قيـام دولـة عربيـة كبـيرة واحـدة، دولـة حديثـة قويـة قـادرة عـلى الدفـاع عـن نفسـها ـ ومـصر فى قلبهـا.

وفى الداخـل، كان الجيـش المـصرى، أيضًـا، ذاتـًـا وموضوعًـا. فهـو ـ مرة أخـرى ـ ذات فاعلـة، بإعتبـاره المؤسسـة صاحبـة الكلمـة الأولى فى شـئون الدولـة والحكـم والحيـاة العامـة، ولكنـه أيضًـا موضـوع فى الـصراع الاجتماعـى.

فالجيـش، عـلى أهميتـه وعظـم دوره، ليـس إلا مؤسسـة من مؤسسـات الحكـم، إنه ليـس طبقـة اجتماعيـة، وفى بلـد كمـصر، تظـل حركـة الطبقـات الاجتماعيـة والعلاقـات بينهـا هـى الإطـار المرجعـى لحركـة المؤسسـات ووظائفهـا.. وإنمـا يجـب ألا يغيـب عـن الأذهـان أبـدًا أن كل هـذا يـدور فى إطـار مرجعـى أشـمل وأقـوى، هـو الإطـار الـدولى، الإمبراطـورى.. فى إطـار الإمبراطوريـة ـ أو الإمبراطوريـات ـ التـى تحكـم المنطقـة أو تتنازع عليها.

ومـا كان محمـد عـلى بقـادر عـلى تحطيـم الجهاز العسكـرى الـذى كانت تستنـد إليـه السيطـرة العثمانيـة ـ الإنكشـارية والمماليـك ـ إلا فى ظـروف تدهـور الإمبراطوريـة العثمانيـة.. ومـا كان بقـادر عـلى بنـاء الجيـش المـصرى إلا فى ظـروف صعـود طبقـة الأعيـان المصريـين، وتعاظـم قدرتهـا عـلى تقديـم الكفـاءات الفنيـة والإداريـة اللازمـة، ومسـاهمتها الفعالـة فى تعبئـة الطاقـات البشريـة للرعيـة والمـوارد الماديـة الضروريـة.

ولكـن المفارقـة الكبـيرة كانـت فى التركيـب الخـاص للقـصر.. ففـى نظـام مـن نـوع الملكيـات المسـتبدة، تتركـز كل سـلطات الدولـة ومؤسسـاتها فى القـصر. فى مثـل

هـذا النظـام، لا وجـود لـوزارة مسـئولة، أو هيئـة تشريعيـة منتخبـة، أو هيئـة قضائيـة مسـتقلة، فهـذه مؤسسـات لم تعرفهـا أوروبـا نفسـها إلا بعـد إتمـام ثوراتهـا البورجوازيـة الديموقراطيـة وهـى التعبـير عـن صعـود "الطبقـة الثالثـة" واحتلالهـا المكانـة الأولى فى الحيـاة الاقتصاديـة والسياسـية.

فى نظـام محمـد عـلى، لم يكـن قـادة الجيـش، وكبـار المسـئولين فى الجهـاز الإدارى، ومسـئولو الخزانـة والأشـغال العموميـة... لم يكونـوا جميعًـا إلا موظفـين فى معيّة الباشـا، ليسـوا مسـئولين أمـام أحـد إلا أيـاه... يعينـون ويفصلـون بكلمـة منـه.

وقـد تحولـت هـذه الحاشـية، على مدى حـوالى نصف قـرن، إلى شريحـة اجتماعية متميـزة، إلى نـوع مـن "المؤسسـة الطبقـة"، سـاعد عـلى هـذا التطـور عوامـل عديـدة، مـن بينهـا التكويـن العرقـى الخـاص، الـتركى الشركـسى الألبـانى وتضخـم جهـاز الدولـة وتعاظـم عـدد المسـئولين والقـادة فى الجيـش والحكومـة، وإغـداق الباشـا عليهـم المنـح والعطايـا والأبعاديـات والشـفالك.

ومـن ثـمّ كان مقـدرًا أن يـبرز تناقـض اجتماعـى، طبقـى عرقـى، بـين هـذه "المؤسسـة الطبقـة"، وبـين الأعيـان المصريـين الذيـن نهضـوا بالعـبء الأكـبر، الإدارى والفنـى والعلمـى، فى بنـاء الدولـة والجيـش.

ولكـن، طالمـا بقيـت حظـوظ الدولـة العلويـة حسـنة مواتيـة، طالمـا إسـتمرت الإمبراطوريـة العثمانيـة فى هبـوط، والاسـتعماريون الأوروبيـون مشـغولون فى الحـروب النابليونيـة، ثـم لا هـون بترتيـب الأوضـاع الاوروبيـة بعـد مؤتمـر فيينـا... وطالمـا الدولـة العلويـة المصريـة فى توسـع وازدهـار، قـادرة عـلى إشـباع نهـم الأمـراء والحاشـية للجـاه والـثراء، وتوفـير مزيـد مـن الفـرص الجديـدة أمـام طبقـة الأعيـان الصاعـدة... تاجـل بـروز التناقـض حتـى حـين... حتـى تتوفـر الظـروف وتنضـج.

وقـد بـدأت النـذر بالتحالـف الـدولى المعـادى لمـصر، والضربـة القاصمـة التـى وجهتهـا الـدول السـت الكـبرى للجيـش المـصرى، وفـرض معاهـدة لنـدن عـام 1840... ومـن ثـمّ، إنكـماش الدولـة العلويـة، وضعـف قدرتهـا عـلى الوفـاء بالمطالـب المتعاظمـة للأمـراء والحاشـية والأعيـان جميعًـا.. غـير أن حضـور محمـد عـلى، بشـخصيته الجبـارة المهابـة، ظـل عامـلاً حاسـمًا يؤجـل بـروز التناقـض، ويوحّـد الجميـع تحـت امرتـه.

الأعـوام الثلاثـين التـى انقضـت بـين مـوت محمـد علـى (1849) وعـزل إسـماعيل (1879) هـى سـنوات بـروز التناقـض بـين مؤسسـة القـصر والأمـراء والحاشـية مـن جانـب، والأعيـان المصريـين مـن جانـب آخـر، وتفاقـم هـذا التناقـص ليصبـح هـو العامـل الأول فى صراع القـوى الاجتماعيـة المحليـة. ولكـن هـذا التناقـض، بلغـة أهـل الجـدل، لم يكـن هـو التناقـض الأسـاسى الـذى حسـم مسـار تاريـخ مـصر حينـذاك، إنمـا التناقـض الأسـاسى كان بـين قـوى الاسـتعمار الأوروبى الزاحـف ـ بريطانيـا وفرنسـا خاصـة ـ مـن جانـب، ومجمـوع الأمـة المصريـة مـن جانـب آخـر.. أمـا السـنوات الثـلاث التاليـة (1879 - 1882) فكانـت سـنوات الصـدام بـين قـوى الثـورة والثـورة المضـادة.. بـين الجيـش الوطنـى، ومـن ورائـه الأمـة كلهـا... والغـزاة البريطانيـين ومـن ورائهـم المؤسسـة الطبقـة، القـصر بأمرائـه وحاشـيته وذواتـه أشـباه الأجانـب.

مـن بـين القـوى المتصارعـة، كانـت القـوى الاسـتعمارية هـى التـى بيدهـا زمـام المبـادرة. كانـت حركتهـا هـى العامـل الحاسـم فى حركـة كل القـوى الأخـرى. القـوى الإسـتعمارية هـى التـى رسـمت وخططـت للمواجهـات : جنّـدت الطبقـة المؤسسـة نصـف الأجنبيـة كحليـف لهـا وتابـع، ووظفت من أجـل ذلـك نفوذها عـلى الإمبراطورية التركيـة صاحبـة النفـوذ المتوطـن، وإنتقلـت إلى التسـلل والتخريـب الاقتصـادى، ثـم عجلـت بإفسـاد الجهـاز الإدارى وسـيطرت عليـه، وغـذت عوامـل الشـقاق والصـدام بـين القـصر والأعيـان المصريـين واسـتعجلتها، لـكى تخلـق مـبررات التدخـل والسـيطرة النهائيـة.

غـير أن المسـار، شـأن كل مسـارات التاريـخ، لم يكـن مسـتقيمًا. ففـى داخـل معسـكر الأعـداء وجـدت تناقضـات ثانويـة سـاعدت عـلى تعقيـده، مـن بينهـا التناقـض بـين بريطانيـا وفرنسـا.. ومـن بينهـا ـ أيضًـا ـ أحـلام المجـد التـى ورثهـا الخديـو إسـماعيل عـن جـدّه الأكـبر.. مـن المسـلم بـه طبعًـا أنـه كان دون مسـتوى الطمـوح مـن كل ناحيـة، ومـع ذلـك، فـأن محاولاتـه سـاعدت عـلى تعقيـد المسـار.

حـاول إسماعيـل، مـن بـين مـا حـاول ـ عفـا الله عنـه ـ أن يسـتأنف محاولـة إقامة إمبراطوريـة مركزهـا مـصر، ومـن ثـمّ، عمـل عـلى تخطـى بعـض الحواجـز التـى أقامتهـا معاهـدة لنـدن فى وجـه إعـادة بنـاء قـوة مـصر العسـكرية. واتجـه فى حروبـه التوسـعية ـ بلغـة المسـتعمرين الأوروبيـين حينـذاك ـ نحـو أرض بـلا صاحـب (!)، فى السـودان وشرق أفريقيـا، مراعيًـا حساسـيات الـدول الأوروبيـة وتكالبهـا الاسـتعمارى عـلى

القارة... وجامل إسماعيل باشا الإمبراطوريات المعنية، التى كان يعرف طموحها فى إستخدام القوة العسكرية المصرية. فأرسل فى خمسينات القرن الماضى حملتين عسكريتين لتحاربا على بعد آلاف الكيلومترات من أرض مصر الأولى : لمساعدة السلطان التركى فى حرب القرم (ضد روسيا)، والثانية لمساعدة امبراطور فرنسا فى غزو المكسيك (!!).

كانت تلك الصحوة العسكرية فى عصر إسماعيل، مثل سائر مظاهر "النهضة" العمرانية والتعليمية والاقتصادية فى عصر إسماعيل ـ كانت فى كثير من نواحيها زائفة خادعة، نمّت عوامل التبعية والتشويه الحضارى والتمزق الاجتماعى. وإنما يهمنا أن نؤكد على أنها كانت عاملاً ساعد على تعميق التناقض بين الأعيان والقصر، بأمرائه وحاشيته وذواته، تسندهم قوى الاستعمار الزاحف المتربص بمصير الوطن وبمصيرهم معًا... فكل جهد تطلبته كل محاولات "النهضة"، فى المجالات العسكرية والفنية والإدارية والتعليمية، كان مصدره الأساسى هو طبقة الأعيان المصريين، وكل الثروة مصدرها عمل الفلاحين المصريين.. بينما الثراء والجاه والنفوذ تذهب إلى الأمراء والحاشية والذوات.. والمتدخلين الأجانب.

وهكذا بات الصدام محتومًا.

وكان الجيش فى قلب عملية الصراع السلطوى، الاجتماعى السياسى.

كان المستعمرون قد بدأوا مبكرين، بالضربة التى كالوها للأسطول المصرى فى نافازين، ثم بالتحالف الدولى والهزيمة الظالمة التى حطموا بها الجيش المصرى وفرضوا معاهدة لندن 1840.. وتمكنوا بذلك من التسلل وتخريب الاقتصاد المصرى، وإفساد الإدارة، وفرض الوصاية عليهما معًا.. ثم اتجهوا مرة أخرى، وأخيرة، إلى الجيش، محاولين أحكام قبضتهم عليه لكى يحسموا الأمور نهائيًا.. ومن ثمّ كان استخدامهم للضباط الشراكسة المتسلطين ـ عثمان رفقى وزمرته ـ لتصفية قياداته الوطنية بزعامة أحمد عرابى باشا..

فكانت سنوات الصدام. الثورة والثورة المضادة. والاحتلال.

وبتحطيم الجيش المصرى على أيدى الغزاة البريطانيين فى 1882، انتهت حقبة فى تاريخ مصر، وبدأت أخرى.

انتهت ما يمكن أن نسميه "الحقبة العلوية العرابية"، وفيها نتبين فترتين متميزتين الأولى : تجسدت فيها إرادة الاستقلال فى الباشا الكبير وابنه إبراهيم، وتركزت الأداة التنفيذية فى مؤسسة القصر، مستندة إلى طبقة صاعدة من الأعيان المصريين، وذروة هذه الفترة العلوية كانت فى أواخر الثلاثينات من القرن الماضى، ليبدأ الانحدار بعد التحالف الدولى ضد مصر، وفرض معاهدة لندن، بعدها بدأ النفوذ الاستعمارى الأوروبى يتسلل ويتصاعد، لتتغلب إرادة السيطرة الأجنبية فى عصر إسماعيل، وفى الأثناء، أخذت إرادة الاستقلال تتركز فى أيدى الأعيان المصريين، بينما القصر، بأمرائه وحاشيته وشراكسته، ينتقل إلى معسكر المتدخلين الأوروبيين، واكتمل الاستقطاب فى سنوات الصدام، 1879 ـ 1882، وتلك هى الفترة العرابية.

ولو كانت الصراعات المحلية هى العامل الحاسم فى تطور تاريخ مصر فى القرنين الأخيرين، لأفضى ذلك الاستقطاب إلى ثورة أصيلة، لا تقل آفاقها عن أية ثورة أوروبية كبيرة من الثورات الناجحة للقرن التاسع عشر، ولكن الظروف الدولية هى العامل الحاسم، وكانت غير مواتية، حيث استخدم المستعمرون قوتهم العسكرية المتفوقة، ونفوذهم الامبراطورى العالمى.. لتحطيم جيش مصر.. ومن ثمّ، لإخماد ثورتها، وإجهاض نهضتها، وضمان اخضاعها.

هكذا، طوال تلك الحقبة، كان الجيش المصرى فى قلب السياسة، كان هو المؤسسة الأولى فى الدولة، وهو الأداة الأولى فى التحديث الاجتماعى والاصلاح الإدارى والبناء الاقتصادى، ومقاومة التسلل والغزو الاستعمارى، وكان جيش مصر أيضًا قوة فاعلة فى المنطقة كلها.. مصدر قلق وخوف للامبراطوريات المسيطرة والمتسللة معًا، كما أن تطويعه واستخدامه هدف ومطمع وذلك بمحاولة تفريغه من إرادة الاستقلال، ومن الطاقات الوطنية المصرية.

والحقبة التالية، 1882 - 1952، هى حقبة الاستعمار البريطانى. وفيها أيضًا نستطيع أن نتبين فترتين متميزتين الأولى : وهى التى يمكن أن ننسبها إلى اللورد كرومر، هى التى كانت الهيمنة البريطانية فى أقصاها. وذروة هذه الفترة، التى بدأ بعدها خط الهيمنة فى هبوط، كان عام 1906، عام دنشواى ـ بعده بدأ بعث الحركة الوطنية ـ والفترة الثانية : هى التى خلقتها ثورة 1919 وامتدت حتى 1952، وهى فترة يمكن أن ننسبها إلى سعد زغلول، قائد ثورة 1919، ورمزها الباقى على الأيام.

فى حقبـة الاحتـلال هـذه، كان جيـش الاحتـلال الانجليـزى هـو المؤسسـة الأولى المتحكمـة فى الدولـة، وهـو الأداة الأساسـية فى التغيـير الاجتماعـى والتعديـل الإدارى، وتشـويه بنيـة الاقتصـاد المـصرى وتعويـق تطـوره وإلحاقـه تمامًـا بالاقتصـاد الامبريـالى.. هـذا ـ طبعًـا ـ بالإضافـة إلى دوره فى قمـع الحركـة الوطنيـة.

هـذه الحقبـة تبـدو كـما لـو كانـت فراغـًا تاريخيًـا بالنسـبة للعسـكرية المصريـة، كـما لـو لم يكـن للجيـش المـصرى تاريـخ طـوال هـذه السـبعين سـنة، بإسـتثناء مـا تحتويـه كتـب التاريـخ مـن صفحـات قليلـة أو عبـارات مبتـسرة، كتبـت مـن زوايـا رؤيـة محـدودة، عـن حـرب فلسـطين الأولى فى 1948 ـ 49.

ولكن الحقيقة غير ذلك.

الحقيقة أن ثمة تعتيمًا تاريخيًا، وليس فراغـًا.

فقـد أعـاد الإنجليـز تكويـن الجيـش المـصرى فى تسـعينيات القـرن المـاضى، عـلى النحـو الـذى يدعـم سـلطتهم وهيمنتهـم.. واسـتخدموه فى عمليتـين عسـكريتين كبيرتين، هـما أكـبر عمليتـين اسـتخدمت فيهـما قـوات غـير بريطانيـة لصالـح الإمبراطوريـة فى ذلـك الوقـت فى هـذه المنطقـة.. الأولى : هـى إعـادة "فتـح" السـودان (1899)، والثانيـة: هـى خدمـة أداة الحـرب البريطانيـة فى "حملـة الـشرق"، فى الحـرب العالميـة الأولى.

لم يحـظ الـدور الـذى قامـت بـه العسـكرية المصريـة فى هاتـين العمليتـين بالقـدر الـلازم مـن البحـث والدراسـة والتأمـل. أخفـاه الإنجليـز، أو قللـوا مـن شـأنه عـن عمد، لـكى ينسـبوا لأنفسـهم وحدهـم الأمجـاد المرذولـة لحملـة السـودان ومذبحـة أم درمـان، وليهوّنـوا مـن شـأن المعونـة التـى فرضـوا انتزاعهـا مـن المصريـين، سـواء فى هـذه الحملـة أو فى الحـرب العالميـة الأولى، ولم يهتـم المؤرخـون المصريـون بالموضـوع لأنهـم متأثـرون بالمنهـج الأوروبى، والإنجليـزى خاصـة، فى كتابـة تاريـخ هـذه الفـترة، ولأنهـم قـدروا أن ليـس ثمـة أمجـاد لمـصر فى هاتـين العمليتـين تسـتحق أن يبذلـوا مـن أجـل إبرازهـا واطرائهـا أى عنـاء... وكأن الأمجـاد هـى وحدهـا الجديـرة بالاهتـمام... وكأنهم لا يدركـون أن الفائـدة التـى تعـود علينـا مـن تأمـل مـآسى التاريـخ والتعلـم منهـا أجـدى مـن إسـتثارة مشـاعر الزهـو والفخـار باسـتظهار سـجل الأمجـاد... ان كان ثمـة أمجـاد.

كان الإنجليـز يعلمـون، مـن البدايـة، أن اسـتخدام الجيـش المـصرى لتنفيـذ مخططاتهـم فى هـذه المنطقـة وهـى عربيـة إسـلامية لعبـة خطـرة، مـن قبلهـم

حين استخدم سلطان تركيا القوة العسكرية المصرية لأحكام قبضته على الشام والجزيرة العربية، كانت له سلطة روحية، بصفته خليفة للمسلمين، وكانت ثمة وشائج قربى بين الفئة التركية الشركسية الحاكمة فى القاهرة وأبناء عمومة لهم فى اسطنبول، ومع وجود هاتين الميزتين، فإن الوعى الوطنى للأمة المصرية كان قد نضج، وتجاوز إساءة استعمال الخلافة الإسلامية، وضاق بأعباء القرابة بين الذوات المصريين وتركيا.. وما عاد يقبل، منذ أواخر حكم محمد على، أن يحارب جيش مصر إلا دفاعا عن مصر ومصالحها.

هكذا، حين أعاد الإنجليز تكوين الجيش المصرى وإعداده لإعادة غزو السودان، فإنهم لم يكتفوا بإبعاد كل القيادات الوطنية من صفوف الجيش، وجعل غالبية القيادات ـ حتى مستوى ضباط الصف من الإنجليز، وتركيز كل المسئوليات فى أيديهم، إنما أستخدموا خدعة سياسية أيديولوجية، فادعوا أنهم إنما يسيرون الحملة العسكرية إلى السودان لا لكى تكون من ممتلكات بريطانيا وحدها، وإنما لاعادتها إلى مصر، فقد كان السودان من ممتلكات الخديو (هكذا قالوا) ـ كما قالوا أيضًا : إن العرابيين هم الذين أضاعوها. وأسموا السودان، بعد إعادة غزوه، السودان الإنجليزى المصرى.. وجعلوا للقوات المسلحة المصرية فى السودان وضعية خاصة ومكانة متميزة لا تتمتع بها على أرض مصر نفسها !!

ومع كل ما فعله الإنجليز، فإن الحاجز النفسى بين الجيش المصرى والحركة الوطنية السودانية سرعان ما إنهار.. والفضل يعود ـ طبعًا ـ إلى ثورة 1919، التى تفجرت بعد عشرين عامًا فحسب من إعادة غزو السودان، وتجاوبت الحركة الوطنية السودانية مع ثورة مصر الوطنية فى ثورة 1924، تحت قيادة الضابط السودانى الشاب، على عبد اللطيف، وهكذا، بين عشية وضحاها أصبح وجود الجيش المصرى فى السودان خطرًا على الوجود الاستعمارى فى القطر الشقيق. واستغل الإنجليز حادث مقتل السير لى ستاك ـ الذى كان قائدًا للجيش المصرى لإجبار القوات المصرية على الجلاء عن السودان... أو ربما هم الذين دبروا ذلك الحادث !!

وإذا كان دور الجيش المصرى فى إعادة غزو السودان هو دور عسكرى لا لبس فيه، فأن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمجهود الذى أجبرت مصر على الإسهام به لدعم القوات البريطانية المحاربة فى حملة الشرق، فى الحرب العالمية الأولى.

ما كانت بريطانيا لتأمن أن توكل لقوات مصرية أية مهمات قتالية. فميدان الحرب الأساسى كان أرض فلسطين، حيث الحليف الأساسى لبريطانيا هى الحركة الصهيونية الناشئة، والقوات التى تواجهها الجيوش الإنجليزية قوات تركية، ومهما قيل فيها فهى قوات دولة إسلامية.

وإذا كانت الدبلوماسية البريطانية الماكرة قد تمكنت من إستمالة عدد من أمراء صحارى الجزيرة العربية والشام وأعيانها، بالنفاق والأكاذيب، وشجعتهم على حمل السلاح ورفع راية العصيان ضد تركيا، فإن هؤلاء الأمراء كانوا ما يزالون تحت النير التركى، وما كانوا قد جربوا غدر الدبلوماسية البريطانية ومؤامرتها أو ربما الطموح والمصالح الصغيرة أعمتهم عن مصيرهم التعيس على أيدى حلفائهم الاستعماريين، أما أمراء مصر، الذين انحاز أقطابهم للغزاة فى 1882، فإنهم كانوا قد ذاقوا من المهانة على أيدى كرومر وجورست وكتشنر ما جعل تعاطف معظمهم مع تركيا فى الحرب العالمية حقيقة واضحة... ودفع خديو مصر، عباس حلمى الثانى، إلى إعلان الانحياز لتركيا والالتجاء إلى اسطنبول، ولم يلجأ الإنجليز إلى أقل من إعلان الحماية على مصر، وحكمها حكمًا عسكريًا استعماريًا همجيًا مباشرًا.

تلك هى الملابسات التى جعلت المستعمرين يحجمون عن تكليف الجيش المصرى حينذاك بأية مهمات قتالية، وإنما المساهمة التى قرروها على مصر كانت جيش العمل الكبير، الذى بلغ حوالى مليون ونصف من الرجال، وضع فى خدمة قوات الإمبراطورية فى الخطوط الخلفية، فى عمليات الإمداد والتموين، وتمهيد الطرق، والنقل، وبناء الاستحكامات والثكنات.. إلخ..

وعملية بهذا الحجم يستحيل أن تكون عملية مدنية خالصة، إنها عملية "شبه عسكرية". وإذا كانت قيادة العملية بأيدى الضباط البريطانيين، فإنه يستحيل تصور أنها تمت دون إسهام القوات النظامية للجيش المصرى على مقياس كبير.. وهذا ما لم يتصد أحد من الباحثين المصريين لدراسته والكشف عن أبعاده وتداعياته فى صفوف الجيش المصرى.

كذلك لم يتصد أحد لدراسة أصداء ثورة 1919 فى صفوف الجيش، ولكن قرار الإنجليز أجلاء القوات المصرية عن السودان فى 1924 ـ على الرغم من أن القيادات والمسئوليات كانت فى أيدى الإنجليز ـ هو شهادة المستعمرين أنفسهم، وهى شهادة ذات دلالة شديدة الوضوح، فلو كانت القوات المصرية فى السودان

مجرد قوات محايدة، لما أصر الانجليز على أبعادها، وإنما كان فى وجودها دعم للقوى الوطنية السودانية فى الصراع الذى تفجر عام 1924 ضد الإنجليز... أما تفاصيل ذلك، فهذا ما يجب أن ينشغل به الباحثون المصريون المتخصصون.

وعندما منح المستعمرون مصر ذلك الاستقلال فى 28 فبراير 1922، تحت المظلة البريطانية ومع وجود قوات الاحتلال، وشرعوا فى بناء قصر الملك فؤاد كمؤسسة فى خدمتهم، فإنهم أقاموا للقصر جهازه العسكرى الخاص، الحرس الملكى، ومهما قيل للتقليل من شأن ذلك الحرس، بإعتباره مجرد تشكيلة للتشريفات والاستعراضات والمهرجانات.. إلا إنه - على كل حال - قوة مسلحة، يتميز بها القصر على سائر تشكيلات الأعيان، الذين ظلوا مبعدين عن كل مراكز المسئولية فى القوات المسلحة. وعبثًا حاولت القيادات الوطنية للأعيان انتزاع أية تنازلات من الانجليز فى هذا الصدد، وفى 1927، جاءت البوارج البريطانية تهدد الاسكندرية لحمل أعيان مصر عن التخلى عن مجرد التفكير فى هذا الموضوع.

ولكن، بعد بضع سنوات فحسب، تخلى الإنجليز أنفسهم عن عنادهم، وغيروا أفكارهم.. وذلك بعد وصول هتلر إلى الحكم فى ألمانيا (1933)، وبروز نذر الحرب العالمية الثانية.

وفى 1936، وحّدت أحزاب الأعيان موقفها من الصراع الدولى المتفاقم، ووضع الزعماء توقيعاتهم على نصوص واضحة فى معاهدة الصداقة والتحالف، تلزمهم بالوقوف فى صف بريطانيا فى الحرب الوشيكة الاشتعال. وكانت قوة الإنجليز الضامرة من بين العوامل التى دفعتهم إلى "التنازل" فى ذلك الموضوع الشديد الحساسية.. وأنما وضعوا من النصوص وإتخذوا من الاحتياطات ما يضمن أن يكون الجيش المصرى، الذى يعاد تنظيمه وبناؤه، فى خدمة الاستراتيجية العسكرية البريطانية - ولا شئ آخر.

سمح الإنجليز بزيادة عدد القوات المسلحة المصرية، وتحديث تسليحها وتدريبها، وإقامة بعض الصناعات العسكرية المساعدة.

أما الضمانات، فإهمها هو أن يجرى كل ذلك تحت الإشراف المباشر لبعثة عسكرية بريطانية مقيمة، وجعل الكلمة العليا للقيادة البريطانية أولاً. وإذا لزم إستخدام سلطة محلية تعمل بالوكالة عن الإنجليز لأحكام القبضة على الجيش،

فتلكن هى القصر الملكى.. وليست الحكومة، التى يمكن أن تتأثر بتقلبات الحياة السياسية والنزاعات الحزبية والضغوط الوطنية.

ولكن حساسية الجيش المصرى لتطورات الواقع الاجتماعى السياسى أثبتت أنها أقوى من نصوص معاهدة كتبت لمساندة إمبراطورية منهكة.

أهم تطور حدث فى ثلاثينات هذا القرن هو النشاط الذى دبّ فى الطبقة المتوسطة ونجاحها فى تأسيس أحزابها وتشكيلاتها الخاصة. (أنظر الباب الثانى). وكان لهذا التطور آثار مباشرة عاجلة، وأخرى طويلة الأمد.

ومن أهم الآثار المباشرة تعاطف أقسام واسعة من الطبقة المتوسطة مع المحور فى المراحل الأولى للحرب، ثم مع الإتحاد السوفييتى فى مراحلها الأخيرة.

وفى المراحل الأولى للحرب، كانت عدوى التعاطف مع المحور قد أصابت القصر نفسه (وأن يكن لأسباب مختلفة)، أصابت الملك فاروق شخصيًا وبعضًا من أهم رجاله، وفى مقدمتهم على ماهر باشا، الذى كان رئيسًا للديوان الملكى، ورئيسًا للوزراء فيما بعد.

هذا التعاطف مع المحور، على اختلاف أسبابه وخلفياته الاجتماعية السياسية، هو الذى جعل الانجليز، فى الحرب العالمية الثانية كما فى الحرب الأولى، يحجمون عن إستخدام القوات المسلحة المصرية فى أية عمليات قتالية ميدانية، ويقتصرون على إشراكها فى عمليات ثانوية أو مساعدة، فى الدفاع الجوى وحراسة الحدود البعيدة عن ميدان العمليات.

أكثر من هذا.

نحن نذكر أن الانجليز فى الحرب العالمية الأولى، من أجل أن يأمنوا جانب الحركة الوطنية المصرية ويضمنوا تعبئة موارد مصر المادية وطاقاتها البشرية لخدمة أداة الحرب البريطانية، لم يلجأوا إلى أقل من إعلان الحماية على مصر وحكمها حكمًا عسكريًا سافرًا. وقد أعاد التاريخ نفسه، على نحو ما، فى الحرب العالمية الثانية، كما أتضح فى فبراير 1942، حيث حاصر الجيش الإنجليزى السراى الملكية ليحسم الأمر مع القصر، وليعلن للجميع أنه صاحب السلطة الفعلية فى مصر.

هذا عن الآثار المباشرة العاجلة، التى ظهرت تجلياتها أثناء الحرب.

أمـا عـن الآثـار والتداعيـات الطويلـة الأمـد، فهـى تلـك التـى ظهـرت نتائجهـا فى أعقـاب الحـرب، وتوجـت بحركـة الجيـش فى 23 يوليـو 1952.

إن زيـادة عـدد القـوات المسـلحة المصريـة التـى سـمحت بهـا معاهـدة 1936، وتحديـث التسـليح والتدريـب، أتـاح الفرصـة أمـام عـدد متعاظـم مـن أبنـاء الطبقـة المتوسـطة لدخـول الكليـات والمعاهـد العسـكرية، والإنخـراط فى سـلك الضبـاط وفى مراتـب الكـوادر الفنيـة والإداريـة التـى يتطلبهـا تحديـث السـلاح وإنشـاء بعـض الصناعـات العسـكرية المسـاعدة. ومـن ثـمّ، بـدأ التأثـير الأيديولوجـى والنفـوذ السيـاسى لأحـزاب وتشـكيلات الطبقـة المتوسـطة يظهـر فى صفـوف القـوات المسـلحة، خاصـة بـين طـلاب الكليـات العسـكرية والمراتـب الدنيـا مـن الضبـاط وضبـاط الصـف الوطنيـين، إنكشـف أمـر بعـض مـن قـام منهـا بعمليـات معاديـة للإنجليـز- أشـهرها تلـك التـى كان عـلى رأسـها الضابـط المخضرم عزيـز المـصرى باشـا - ولكنهـا كانـت عمليـات صغـيرة محـدودة، سرعـان مـا حـوصرت وقـضى عليهـا، أو تبـددت جهودهـا دون ان تنجـز عمـلاً ذا شـأن.

ونكـرر هنـا أن الخـلاف الـذى حـدث بـين القـصر والإنجليـز، وبلـغ الـذروة عـام 1942، أحـدث نوعًـا مـن البلبلـة وعـدم وضـوح الرؤيـة فى اقسـام واسـعة مـن الطبقـة المتوسـطة التـى كانـت متعاطفـة مـع ألمانيـا، وإنعكـس هـذا فى صفـوف الضبـاط الوطنيـين المعاديـن للإنجليـز.

ولكـن النهـوض الوطنـى الثـورى عـام 1946 كان لـه أثـره الشـافى مـن تلـك البلبلـة، فقـد اعـاد وضـع القـصر بوضـوح فى معسـكر الاحتـلال الانجليـزى، وأنهـى كل تعاطـف مـع الملـك والـسراى، فى داخـل الجيـش كـما فى خارجـه.

ومـع انسـحاب قـوات الاحتـلال البريطانيـة من القاهـرة والاسـكندرية ومـدن الدلتا والـوادى عـام 1947، ورفـع رايـات مـصر عـلى الثكنـات والمعسـكرات التـى كان يقيـم فيهـا الجنـود الإنجليـز، تلاحمـت - وإن يكـن عـلى نحـو غـير معلـن - المشـاعر الوطنيـة للجنـود والضبـاط مـع الحـماس الوطنـى العـام للشـعب وقياداتـه المدنيـة الشـابة... وتطلـع الجميـع إلى يـوم قريـب، يعيـدون فيـه رفـع رايـات مـصر عـلى معسـكرات قاعـدة قنـاة السـويس وثكناتهـا وكانـت وقتهـا أكـبر قاعـدة عسـكرية فى العـالم.

ثـم كانـت التجربتـان التاريخيتـان الكبيرتـان، اللتـان لم يقتـصر تأثيرهـما عـلى القيـادات الشـابة والطلائـع الأكـثر وعيًـا فى القـوات المسـلحة، وإنمـا أمتـد إلى غالبيـة

الضباط وجمهور الجنود، بل إلى جمهور واسع من الطبقة المتوسطة وسائر طبقات الأمة، وهما : حرب فلسطين الأولى 1948 ـ 1949، ثم احتلال الجيش المصرى لمدينة القاهرة لمدة حوالى أربعة شهور بعد حريقها الكبير الشهير فى 26 يناير 1952، فى ظل الأحكام العرفية وفرض الجيش حالة منع التجول فى العاصمة المصرية.

تتلخص التجربة السلبية لحرب فلسطين الأولى فى ثلاث نقاط أساسية :

1. الهزيمة العسكرية ـ بغض النظر عن الأسباب والمبررات ـ التى لقيتها عدة جيوش عربية، من بينها الجيش المصرى، على أيدى القوات الإسرائيلية، التى كانت تصفها الصحف والإذاعات العربية بأنها مجرد عصابات وشراذم.

2. الأسلحة الفاسدة التى إستخدمتها القوات المصرية فى تلك الحرب، وفجرت الصحافة الوطنية فضيحتها فيما بعد.

المفارقة الصارخة المتمثلة فى مرور القوات المصرية، وهى فى طريقها إلى فلسطين لمواجهة القوات الإسرائيلية، على قوات الاحتلال البريطانية فى منطقة القنال، بينما الجنود البريطانيون يتفرجون.

3. ظهرت تداعيات هذه العوامل مع مرور الأيام والشهور، بعد أن أعادت القيادات الشابة والطلائع الأكثر وعيًا التفكير فيها، والتأمل فى مغزاها.

ألقيت مسئولية الأسلحة الفاسدة والهزيمة العسكرية على السراى أولاً، وكذلك على أحزاب الأعيان، التى كانت قد سلمت كل أمور الجيش للملك، وأثبتت أنها دون القدرة على تحمل أية مسئولية، لا فى الشئون العسكرية الدفاعية، ولا فى شئون السياسة الخارجية والعربية.

حمّلت القيادات الشابة "الأعداء الداخليين" المسئولية الأساسية فى الهزيمة والمهانة التى لقيها الجيش المصرى، والجيوش العربية عمومًا، فى حرب فلسطين. ولم يكن خطر العسكرية الإسرائيلية قد وضح فى أذهانهم كعامل جدى فى ذاته. وربما لم يتضح هذا العامل ـ الذى حرصت المؤسسة العسكرية الإسرائيلية نفسها على اخفائه ـ إلا بعد ذلك بحوالى عشرين عامًا، فى الحرب الثالثة. فى يونيو 1967.

أما موقف قوات الاحتلال البريطانية من حرب فلسطين الأولى، فقد طرح بعض التساؤلات التى لم يكن لها إجابات واضحة أو مقنعة.

ولكـن، فى خلفيـة تفكـير الضبـاط الوطنيـين كان ثمـة بديهيـة واضحـة : مـا كانـت قـوات الاحتـلال فى قاعـدة القتـال لتسـمح للجيـش المـصرى باجتيـاز منطقـة القنـال وصـولاً إلى ميـدان العمليـات فى فلسـطين لـو كانـت تـرى فى ذلـك مساسًـا بمصالـح بريطانيـا، بـل الأرجـح أن بريطانيـا لهـا مصلحـة فى ذلـك ـ عـلى نحـو مـا. فـما هـى هـذه المصلحـة ؟ وهنـا يمكـن أن تختلـف الاجتهـادات، ولكنهـا كانـت تـدور حـول فكرتـين عريضتـين :

الأولى : هـى أن بريطانيـا كانـت تعلـم أن الجيـش المـصرى يذهـب لملاقـاة هزيمـة، هـى مشـتركة فى صنعهـا مـع ملـك متواطـئ، يشـترى الأسـلحة الفاسـدة مـن بريطانيـا نفسـها ليكسـب منهـا الملايـين، وليسـوق الجنـود والضبـاط المصريـين الذيـن يسـتخدمونها للمـوت والهزيمـة.

والثانيـة : هـى أن بريطانيـا والـسراى المتواطئـة، اسـتغلتا فرصـة الحـرب لإعـلان الأحـكام العرفيـة وقمـع الحركـة الوطنيـة المعاديـة للاحتـلال والمعاديـة للاسـتبداد الملـكى، حيـث كانـت السـجون والمعتقـلات قـد فتحـت لتكتـظ بأعـداد كبـيرة مـن شـباب الحركـة الوطنيـة، خاصـة مـن الإخـوان المسـلمين واليسـار الماركـسى.

وفى حمـلات القمـع والملاحقـات والاعتقـالات، مُسَّـت، وإن يكـن عـلى البعـد، القيـادات السياسـية الشـابة فى القـوات المسـلحة. فقـد كان للتنظيـمات والتشـكيلات الدينيـة واليسـارية نفوذهـا فى صفـوف الضبـاط الشـبان. ولكـن، مـن حسـن حـظ هـؤلاء الضبـاط أن كان نفوذهـا هامشـيًا ـ ذلـك أن هـذه التنظيـمات والتشـكيلات لم تصمـد أمـام أجهـزة القمـع، وتهـاوت، كأبنيـة مـن ورق، تحـت ضربـات البوليـس السـياسى، الـذى كان تحـت الإشراف المبـاشر للانجليـز والـسراى، ومـن ثـمّ، تعلـم الضبـاط الشـبان درسًـا هامًـا، فقـد حرصـوا، عنـد تكويـن تنظيماتهـم التـى تشـكلت عقـب حـرب فلسـطين، عـلى أن يكونـوا بعيديـن عـن تلـك التنظيـمات المدنيـة التـى أثبتـت عجزهـا وعـدم مراعاتهـا لقواعـد السريـة والانضبـاط.

هكـذا، عـلى الرغـم مـن أن الضبـاط الأحـرار اسـتفادوا مـن الترسـانة الايديولوجيـة لتنظيـمات الطبقـة المتوسـطة وتشـكيلاتها، كـما اسـتفادوا مـن المنـاخ العـام، المعـادى للإنجليـز والـسراى والطبقـات العليـا، الـذى خلقـه المناضلـون المدنيـون الشـبان، فـإن التنظيـم العسـكرى للضبـاط الأحـرار احتفـظ باسـتقلالية تامـة عـن التنظيـمات والتشـكيلات والأحـزاب المدنيـة، عـن كل مـن الأخـوان المسـلمين والتنظيـمات شـبه

الشيوعية.. ومن قبل، كانت تجربة الضباط الشبان قد أبعدتهم تنظيميًا عن التشكيلات المدنية شبه الفاشية.

ومن جانب آخر، تطّوع فى حرب فلسطين الأولى عدد محدود من المدنيين من الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، وكانت الحرب ميدانا لتدريب نواة شبه عسكرية لهذين التشكيلين. وقد أنبتت النواة فيما بعد، وظهرت بعض ثمارها المحدودة فى حركة المقاومة القصيرة العمر لقوات الاحتلال فى منطقة القنال، بعد إلغاء معاهدة 1936 فى أواخر عام 1951، وحتى حريق القاهرة فى 26 يناير 1952، وفيما يتعلق بالإخوان المسلمين، نمت هذه البذرة لتصبح التشكيل العسكرى للجماعة، وليتفرع عنها كثير من التشكيلات المسلحة للجماعات الدينية التى خرجت على الإخوان فيما بعد.

... ...

رأينا أن الحرب العالمية الثانية جمّعت جبهة عالمية عريضة لمواجهة الخطر الألمانى واليابانى، سعى الإنجليز والفرنسيون إلى تشكيل هذه الجبهة منذ وصول هتلر إلى الحكم وظهور نذر الحرب، واكتملت بإنضمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى المراحل الأولى للحرب العالمية.

وفى منطقتنا، كانت الجبهة المعادية للمحور تضم، إلى جوار قادتهاالطبيعيين - الإنجليز والفرنسيين - الأحزاب التقليدية للأعيان، والوفد فى مصر أشهرها، ونموذجها النمطى، كذلك ضمت تلك الجبهة، من بين التشكيلات السياسية للطبقة المتوسطة الصاعدة، تلك التنظيمات شبه الشيوعية، التى كانت مدفوعة بتأييد الاتحاد السوفييتى، ومحكومة بالتوجيهات المباشرة لبعض الأحزاب الشيوعية الأوروبية - وخاصة الحزب الشيوعى الفرنسى - وفى قبضة العناصر الأجنبية اليهودية التى كان بيدها قيادة تلك التنظيمات، وغنى عن الذكر أن اليهودية العالمية، والحركة الصهيونية، كانت متحالفة مع القوى العالمية المناهضة لهتلر. ومن ثمّ تميزت ساحة السياسة الداخلية بنوع من الائتلاف غير المعلن بين أحزاب الأعيان الأكثر تفهمًا للموقف - الوفد مرة أخرى - وتلك التنظيمات شبه الشيوعية، كما تميزت الساحة الفلسطينية، فى المراحل الأولى للحرب العالمية - أى إلى وقت ظهور بوادر الانتصار على المحور - بقدر ملحوظ من الهدوء النسبى.

وإذ إنتهت الحرب، وانفرط عقد التحالف العالمى المعادى للمحور، انفرط ـ بالتالى ـ عقد تلك الجبهة على الصعيدين العربى والقطرى، وبدأت سلسلة المواجهات والاصطدامات التى أسميناها ـ جملة ـ الحرب العالمية الثالثة. وكانت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، 1948 ـ 49، أول مواجهة كبيرة من نوعها فى منطقتنا تدخل فى إطار هذه الحرب العالمية الجديدة... وطبيعى أن تنعكس المواجهة على خريطة الصراعات السياسية فى كل قطر على حدة.

فى الداخل، تعلل الحكام بالحرب ليعلنوا الأحكام العرفية، ويفتحوا السجون والمعتقلات للوطنيين، ومن ثم، ظهرت بوضوح معالم المواجهة بين جبهتين : جبهة الإمبريالية والرجعية التى تضم قوى الاستعمار المتوطن، الإنجليزى والفرنسى، والانظمة القائمة المستندة إلى الأحزاب التقليدية للأعيان ـ التى لم يمنع اختلافها وتنافسها على الحكم فى انضوائها تحت النفوذ الاستعمارى المتوطن ـ... وجبهة جديدة تحاول أن تتجمع وتنظم صفوفها، وتحاول أحياء الحركة الوطنية وفكرة التضامن بين الشعوب والأمم المضطهدة... وتتصدى لقيادتها أحزاب وتشكيلات الطبقة المتوسطة الصاعدة، وإنما تعطل وحدتها الخلافات العقائدية وحداثة الخبرة السياسية... وفى الخلفية العالمية، القوتان العظميان لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، تتعجلان إنهاء الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، وتداعبان أحلام الطبقة المتوسطة، وتتجاذبان قيادتها، وتساعدان على تمزقها.. كل على طريقته بطبيعة الحال، ووفقاً لأهدافه، وكل له زبائنه وجمهوره ومريدوه.

وعلى النطاق الإقليمى، الشرق أوسطى، كانت أرض فلسطين هى الميدان الذى دارت عليه المواجهة بين أداة الحرب الإسرائيلية الوليدة المتعاظمة القوة، وجيوش الأنظمة العربية ـ ومقاومة فلسطينية تحت قيادة أعيان فلسطينيين تقليديين (من نوع الحاج أمين الحسينى وأحمد حلمى باشا). وهنا كانت الخطوط أكثر تداخلاً، والأدوار أكثر اختلاطاً، والفرز الأيديولوجى والنضالى أكثر ما يكون صعوبة وغموضاً وتشويشاً، وربما هو اليوم ـ بعد أكثر من ثلاثين عاماً ـ لا يقل غموضاً وتشويشاً.

عند منعطف ما، أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت الحركة الصهيونية قد حسمت أمرها، وقررت تغيير الولاء والارتباط الخاص، من بريطانيا إلى الولايات

المتحـدة. وتـمّ إبـرام الصفقـة مـع مخططـى الاسـتراتيجية الأمريكيـة الذيـن كانـوا يرسـمون خريطـة عـالم مـا بعـد الحـرب.

مـن قبـل، كان الارتبـاط الخـاص بـين الصهيونيـة وبريطانيـا لـه مبرراتـه، فقـد كانـت بريطانيـا هـى القـوة الاسـتعمارية الأولى فى العـالم، وهـى القـوة القابضـة عـلى زمـام الأمـور فى المنطقـة التـى إختارهـا الصهيونيـون لإقامـة دولتهـم، أمـا وقـد أظهـرت الحـرب العالميـة أن أيـام الامبراطوريـة البريطانيـة باتـت معـدودة، وأن أمريـكا هـى التـى سـترث المركزيـن، فقـد آن أن ينتهـى عـصر الإرتبـاط الخـاص مـع بريطانيـا ليبـدأ عـصر الإرتبـاط مـع أمريـكا... ومـن طبائـع الأمـور أن يتداخـل العـصران، وأن تسـتغرق العمليـة وقتـًا غـير قصـير، أمتـد إلى أواخـر الخمسـينات، حـين أعلنـت بريطانيـا تخليهـا عـن مسـئولياتها شرقـى السـويس. كذلـك لم تـسر العمليـة فى مسـار مسـتقيم، إذ تراوحـت بـين التجـاء زعـماء العصابـات الصهيونيـة ـ فى أواخـر فـترة الانتـداب البريطـانى عـلى فلسـطين ـ إلى أشـكال مـن الإرهـاب المسـلح ضـد الامبراطوريـة العجـوز، والتهـاون معهـا أحيانـًا، والتحالـف معهـا غالبـًا ـ ضـد المقاومـة الفلسـطينية أولاً، وكـذا ضـد الموجـة الصاعـدة لحركـة القوميـة العربيـة فى أواسـط الخمسـينات ـ هـذا التحالـف الـذى وصـل إلى ذروتـه، وخاتمتـه، فى حـرب السـويس، عـام 1956.

بأختصـار، كان مولـد الدولـة الإسرائيليـة، مـن بـين مـا كان، مـن أهـم العوامـل التـى زادت الموقـف تعقيـدًا، والخطـوط تداخـلاً، والأدوار اختلاطـًـا.

ومـما زاد الطـين بلـة أن تلـك الدولـة حظيـت، وقـت مولدهـا، عـلى دعـم صريـح ومعلـن مـن الاتحـاد السـوفيتى.

هناك أسباب، طبعًا.

هنـاك، أولا، النفـوذ القـوى الـذى تتمتـع بـه اليهوديـة العالميـة فى أوسـاط اليسـار الأوروبى، الاشـتراكى والشـيوعى عـلى السـواء، وفى الأمميتـين الثانيـة والثالثـة معـًا، وهناك أيضـًا العطـف الـذى أحـاط بقضيـة اليهـود بعـد الاضطهـاد الـذى تعرضـوا له عـلى أيدى النـازى ـ كـما لـو كان اليهـود هـم الوحيـدون الذيـن اضطهـدوا فى كل تاريـخ البـشر !! ـ وهنـاك أيضـا دعـاوى رددتهـا بعـض الأوسـاط اليسـارية والديموقراطيـة حينـذاك، حيـث كانـت تـرى فى إقامـة دولـة إسرائيليـة عـلى أرض فلسـطين خـيرًا للمنطقـة وشـعوبها وقواهـا التقدميـة، حيـث سـتكون ـ حسـب تسـميتهم ـ واحـة للديموقراطيـة والتقدميـة فى محيـط رجعـى، وسـتكون قلعـة لقـوى التحـرر والتقـدم فى المنطقـة... !!..

وعلى سبيل الاعتذار عما جرى، يقول بعض المتخصصين فى تبرير الموقف السوفييتى عند مولد الدولة الاسرائيلية ـ يقولون : إن الموقف الذى أتخذه الاتحاد السوفييتى فيما بعد (أى ابتداء من 1956) من العدوان الإسرائيلى على البلاد العربية يتضمن نقدًا ذاتيًا لموقفه فى الأربعينات، ويضيفون : لو كان السوفييت يتصورون أن الدولة الإسرائيلية ستتحول إلى معسكر مسلح، لتصبح القوة العسكرية الثالثة فى العالم، والقوة الضاربة بيد الامبرالية العالمية المسخرة لضرب شعوب المنطقة... لما أتخذ السوفييت الموقف الذى أتخذوه عند تأسيس دولة إسرائيل.

غير أن إحصاءات الهجرة اليهودية إلى إسرائيل من الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية، تدل على أن موقف السوفييت لم يكن سببه سوء فهم أو حسن ظن بإسرائيل خيّبه الصهيونيون.. لا.. وإنما كان السوفييت يرون، من البداية، مصلحة طويلة الأمد لهم فى إقامة هذه الدولة، فاليهود فى الاتحاد السوفييتى، وعددهم حوالى خمسة ملايين، كانوا دائمًا ـ وما يزالون ـ عامل قلق وخميرة فتنة، ولم ينفع كثيرًا، لحل المشكلة اليهودية فى الاتحاد السوفييتى، النفوذ الكبير الذى حظى به اليهود فى قيادة الحزب الشيوعى السوفييتى نفسه.. فالمشكلة قديمة مزمنة، وما تزال متعثرة، منذ أيام القيصرية، بل منذ تجربة إنشاء دولة يهودية على شواطئ البحر الأسود، قبل أن تخرج روسيا من قرونها المظلمة.

الحديث حول هذا الموضوع يطول. ومجال البحث يتسع لاجتهاد بغير حدود، وذلك من وجهة نظر عربية قومية ووطنية أصيلة، لا تتنكر للمبادئ الإنسانية ولا تتجاهل حقائق الصراعات الدولية وضرورات النضال القومى والوطنى.. فى عصر أصبحت شعوب منطقتنا مستهدفة مستباحة، مضحّى بمصالحها وقيمها على مذبح الصهيونية وأخطبوطها العالمى.. وإنما يهمنا هنا أن نؤكد على نتيجتين للموقف السوفييتى عند تأسيس دولة إسرائيل. الأولى : هى الخسارة الفادحة التى لحقت بقوى اليسار الشيوعى، سواء بين الجماهير الوطنية، أو فيما يتعلق بوعى أعضائه أنفسهم بأبعاد الخطر الصهيونى، والنتيجة الثانية : هى إضافة عامل آخر إلى عوامل فقدان ثقة الطلائع العسكرية الشابة فى التنظيمات اليسارية، ومن ثمّ الحرص على الاستقلالية الكاملة عنها.. بل والحذر منها.

ومـن وجهـة نظـر الإمبرياليـة وامتدادتهـا فى المنطقـة، صهيونية ورجعية، اسـتنفدت حـرب فلسـطين أغراضهـا بكبـح الموجـة الوطنيـة التـى كانـت فى صعـود منـذ إنتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، وبـزرع إسرائيـل فى قلـب العـالم العـربى.

وفى لجـان الهدنـة العربيـة الإسرائيليـة المشـتركة، تلقـت العسـكرية المصرية دروسًـا فى الدبلوماسـية، وتعاظـم وعيهـا بجوانـب مـن الـصراع الـدولى فى منطقتنـا، وتكالـب القـوى الكـبرى عليهـا.

وإلى أن تهضـم الصهيونيـة مـا قضمتـه مـن جسـم الوطـن العـربى فى فلسـطين، وتتأهـل للقيـام بـدور الشرطـى الإقليمـى للمنطقـة، لم يضيّـع الامبرياليون وقتًـا لمحاولة إعـادة ترتيـب الأوضـاع السياسـية فى البـلاد العربيـة عـلى نحـو ينسـجم مـع حقائـق عـالم مـا بعـد الحـرب.

وقـد كان مقـررًا أن يتـم ذلـك بالاتفـاق والتنسـيق بين أمريـكا وشريكتيهـا، بريطانيا وفرنسـا، عـلى نحـو يراعـى مصالـح وامتيـازات المسـتعمرين القدامـى، وأن يكـن فى أشـكال جديـدة وبأسـاليب مسـتحدثة، ويفتـح أبـواب المنطقـة أمـام القـوة الأمريكيـة الصاعـدة.. كـما يراعـى المصالـح الاسـتراتيجية العالميـة للتحالـف الغـربى، الـذى تملـك أمريـكا الكلمـة العليـا فيـه.

وكانـت النقطـة الأولى، وربمـا كانـت هـى الوحيـدة، التـى إلتقـت عندهـا إرادة القـوى الثـلاث حينـذاك هـو التصريـح الثـلاثى الشـهير، الصـادر عـام 1950، والـذى كان أهـم مـا تضمنـه هـو إلتـزام الـدول الثـلاث، أمريـكا وبريطانيـا وفرنسـا، بضـمان أمـن وسـلامة الدولـة الإسرائيليـة.

هـذا فيـما يتعلـق بشـئون المنطقـة. أمـا فيـما يتعلـق بشـئون كل بلـد عـلى حـدة، وكانـت كلهـا ـ بإسـتثناء السـعودية ـ مناطـق نفـوذ بريطانيـة أو فرنسـية، فقـد تركـت محـاولات إعـادة ترتيـب الأوضـاع الداخليـة فيهـا لاجتهـاد القـوة الاسـتعمارية المتوطنة، بريطانيـا أو فرنسـا، بينـما احتفظـت أمريـكا بمسـافة أبعـد عن تلـك المحـاولات، مكتفية بالاسـتطلاع، وجـس نبـض القـوى السياسـية المحليـة، وإكتشـاف أسـاليب جديـدة للعمـل، ووجـوه جديـدة للصعـود عـلى المسـرح.. مسـتخدمة أسـاليب الدبلوماسـية الرسـمية المعلنـة ـ وأهمهـا حينـذاك برنامـج النقطـة الرابعـة ـ وأسـاليب الحكومـة الخفيـة (المخابـرات المركزيـة).. فلـم يكـن لـدى مخططـى السياسـة الأمريكيـة ثقـة كبـيرة فى القـدرات الضامـرة للمسـتعمرين القدامـى، ولا فى أسـاليبهم الباليـة، ولا فى

الطبقات القديمة المحلية الحاكمة. كانت واشنطن ترى أن المصالح الضيقة لباريس ولندن، وحلفائهما التقليديين، يمكن أن تكون عائقًا في سبيل تنفيذ استراتيجية عالمية قادرة على مواجهة السوفييت، فضلاً عن عرقلة زحف النفوذ والمصالح الأمريكية.

وطبيعى، فى مثل هذا "السيناريو" أن كانت أمريكا تلعب على أكثر من حبل، وتتعامل مع جميع الأطراف المعنية (بإستثناء اليسار الشيوعى طبعًا) بأكثر من وجه، وتبذل - أحيانًا - مساعى حميدة للتقريب بين وجهات النظر.. بينما كل طرف يمنّى النفس بأن يكون هو الصديق الأولى بالرعاية والحماية !!

بعد إنتهاء حرب فلسطين، أنهى الانجليز حكم أحزاب الأقلية المكروهة، وسمحوا بإجراء انتخابات لإعادة الوفد إلى الحكم. كانوا يتصورون إمكان عودة الأيام القديمة السهلة، أيام سمحوا بإعادة الوفد إلى الحكم فى منتصف الثلاثينات.. كانوا يأملون أن يتمكن الوفد من إعادة حالة الاستقرار وجوّ الثقة إلى "الأمة"، ويتمكن من أن يطوى تحت نفوذه الطبقة المتوسطة التى دبّ فيها النشاط وعمّها القلق، وأن يعصمها من تسلل "المتطرفين" وتحريض "العناصر غير المسئولة"... وفى مثل هذا الجو يستطيع الوفد والإنجليز - عبر مفاوضات متأنية - التوصل إلى إتفاقية جديدة، تكون طبعة منقحة من معاهدة 1936، تأخذ فى الإعتبار الأوضاع والالتزامات الدولية الجديدة... وكان مشروع الإتفاقية الجديدة جاهزًا ومعدًا سلفًا، وذلك هو مشروع "الدفاع عن الشرق الأوسط"، الذى تعثرت بشأنه المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية حوالى عامين. ولم يكن المشروع إلا مسودة لما عرف فيما بعد بإسم حلف بغداد (ثم حلف السنتو)، وهو أول حلقة فى سلسلة الأحلاف الإقليمية التى قرر مخططو الاستراتيجية العالمية الأمريكية إقامتها لتجنيد الجيوش المحلية، وتسليحها وتدريبها، وتوظيفها لقمع حركات التحرير الوطنية المعادية للغرب، ولإقامة سلسلة القواعد العسكرية اللازمة للإطاحة بالإتحاد السوفييتى.

كانت علاقات الإنجليز والقصر بالوفد قد أستهلكت كثيرًا من الرصيد الشعبى للحزب العتيد: مرة حين وقع معاهدة "الشرف والاستقلال" عام 1936، التى أقرت بمشروعية الاحتلال البريطانى، ومرة أخرى عام 1942، حين قبلت القيادة الوفدية العودة إلى الحكم على "الحرب البريطانية" ومرة ثالثة حين قبلت القيادة الوفدية

العـودة إلى الـوزارة عـام 1950، وهـى ترفـع كل الرايـات البيضـاء أمـام الملـك، وتقبـل التفـاوض مـع الإنجليـز عـلى أسـاس ذلـك المشـروع المشـبوه.

ومـا عـاد الوفـد قـادرًا عـلى إحتـواء الطبقـة المتوسـطة، كـما كان قبـل خمسـة عـشر عامًـا.

فى 1935، كان طـلاب الجامعـة يشـتعلون حماسًـا لفكـرة توحيـد أحـزاب الأعيـان فى موقـف وطنـى لمواجهـة الإنجليـز ؟!.. وحـين كانـت المظاهـرات الطلابيـة تهتـف للجبهـة الوطنيـة عـام 1935، وتتعـرض لرصـاص الجنـود البريطانيـين، ويسـقط منهـم عبـد الحكـم الجراحـى ورفاقـه شـهداء، فإنهـم كانـوا يعنـون جبهـة تضـم قـادة الوفـد والدسـتوريين وأشـباههم (!!)، تلـك الجبهـة التـى تشـكلت فعـلاً، ووقـع أقطابهـا ـ ويـا لخيبـة الأمـل ـ معاهـدة 1936.

ولكـن منـذ فبرايـر 1946، أصبـح شـعار الجبهـة يعنـى توحيـد الشـعب بعيـدًا عـن أحـزاب الأعيـان، التـى تجاوزهـا الوعـى والنضـال الوطنـى.

هذا عن الجانب السياسى الوطنى.

أمـا عـن الجانـب الاجتماعـى الاقتصـادى، فقـد كانـت المظاهـرات والمهرجانـات ـ حتـى 1944 ـ تنظـم لتحيـة الرئيـس الجليـل (مصطفـى النحـاس باشـا) حـين تتخـذ حكومـة الوفـد قـرارًا بانصـاف بعـض فئـات الموظفـين أو تخفيـف عـبء الضرائـب عـن فئـات مـن صغـار الملاك.

أمـا منـذ 1946، وخاصـة فى عامـى 1950 ـ 1951، فقـد إرتفعـت الأصـوات منـددة بـ "الإقطـاع"، وتعـالى الـكلام عـن ضرورة الإصـلاح الزراعـى وتحديـد الملكيـة الزراعيـة.. الأمـر الـذى عارضـه الوفـد معارضـة صارمـة... وبـدأت تحـدث اصطدامـات، تتصاعـد عنفـًا، بـين الفلاحـين وكبـار مـلاك الأراضى الزراعيـة فى مناطـق متفرقـة مـن الريـف، وفى الأثنـاء، كانـت الحركـة العماليـة قـد تخلصـت تمامًـا، أو كادت، مـن النفـوذ الـذى كان للوفـد وبعـض الدخـلاء ـ مثـل البرنـس عبـاس حليـم ـ عـلى قطاعـات مـن العـمال المصريـين، خاصـة عـمال الـورش الأميريـة والمرافـق الحكوميـة.. وأصبـح للتشـكيلات شـبه الشـيوعية نفـوذ متزايـد بـين فئـات مـن العـمال القريبـين مـن العاصمتـين ـ خاصـة عـمال النسـيج ـ وأصبحـت الشـعارات الأكـثر رواجًـا بـين الجماهـير العماليـة هـى تلـك التـى صاغهـا التقدميـون اليسـاريون، مثـل : تكويـن نقابـات بعيـدة عـن

الإرهاب البوليسى والسيطرة الإدارية، تكوين اتحاد عام للعمال المصريين، إقامة صلات مع الإتحادات العمالية العالمية، توفير الضمانات الاجتماعية والقانونية للعمال...

وفى منتصف الثلاثينات كانت أحزاب الطبقة المتوسطة وتشكيلاتها ـ الإخوان ومصر الفتاة واليسار الماركسى ـ كانت ما تزال وليده ناشئة، قليلة التجربة محدودة الأفق، أما عام 1950، فكانت قيادات تلك التشكيلات قد راكمت فى سنوات معدودة خبرات لا تتوفر إلا عبر أجيال من التطور السلمى الهادئ.. فقد خاضت تجارب سنوات الحرب العالمية الثانية، والنهوض الثورى الوطنى فى أعقابها، الذى وصل الذروة عام 1946، ثم حرب فلسطين على الساحة العربية... وعانت من تفاقم الاستبداد الرجعى فى عامى 1948 ـ 49.

وكان التخفيف من قبضة القمع السلطوى فى أواخر 1949، ثم إلغاء الأحكام العرفية فى 1950، وذلك ما يسميه البعض جو الحريات النسبية الذى أتاحته حكومة الوفد الأخيرة. كان من بين العوامل الهامة التى ساعدت على إعادة تنظيم أحزاب الطبقة المتوسطة وطلائعها السياسية، وتعاظم نفوذها ودورها.

واستفاد حزب مصر الفتاة أكثر من غيره من هذا العامل، وكان الحزب قد بدأ، منذ 1947، يخرج من حالة الجمود والإنكماش والعزلة التى أصابته بهزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، وبحثا عن رداء إيديولوجى آخر، غيّر أحمد حسين اسم الحزب، عام 1949، إلى الحزب الاشتراكى. ووسّع دائرة إهتمامه بالقضايا الاجتماعية.. إلى الحدّ الذى تقدم ممثله فى مجلس النواب، إبراهيم شكرى، عام 1950، بمشروع قانون بتحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانـًا. ونشط الحزب فى المجال الدعائى، فأصدر مجلتين أسبوعيتين أكتسبتا شعبية كبيرة فى شهور معدودة، لتصبحا ـ فى الأسابيع التى سبقت حريق القاهرة ـ أهم المنابر العلنية للإثارة والتحريض ضد النظام القائم، واتخذ الحزب مقرًا له فى قلب القاهرة، وشرع ينظم اجتماعات عامة أسبوعية يطرح فيها وجهة نظره فى الشئون الجارية للحكم والسياسة، وهى الاجتماعات التى تحولت، فى الأسابيع التى سبقت الحريق، إلى مؤتمرات شعبية صاخبة، إلى بؤرة نشيطة لتعبئة جماهير متعطشة للعمل والصدام، كذلك شرع الحزب يبنى هيكلاً تنظيميًا لتجاوز التركيبة البسيطة التى لازمته منذ تأسيسه، والتى لم تعد تلائم تعاظم نفوذه الجماهيرى، بدأ يقيم شبكة

مـن الاتصـالات واللجـان فى أحيـاء العاصمتـين، وفى كثـير مـن بلـدان الأقاليـم... وأخـيرًا، بعـد إلغـاء المعاهـدة فى 8 أكتوبـر 1951، بـرز الحـزب الاشـتراكى كأهـم تشـكيل سـياسى يدعـو إلى المقاومـة المسـلحة ضـد قـوات الاحتـلال، بإعتبارهـا فقـدت كل مـبرر شرعـى ـ حتـى بالمقيـاس الحكومـى ـ للبقـاء عـلى أرض مـصر، وتوجهـت جماعـات مسـلحة مـن أعضائـه إلى منطقـة القنـال، يناوشـون قـوات الاحتـلال، ويقومـون بعمليـات محـدودة ضـد المعسـكرات البريطانيـة، ويحاولـون إقامـة قواعـد حصينـة للمقاومـة، ويعـدون لتوسـيع المعـارك ضـد الإنجليـز.

كذلـك أعيـدت الشرعيـة لجماعـة الإخـوان المسـلمين، ورد لهـا إعتبارهـا، وأعيـدت لهـا مقارهـا وممتلكاتهـا وصحافتهـا وأموالهـا، وأعـادت الجماعـة تنظيـم صفوفهـا وبنـاء هيـكل قيـادى جديـد. وتعتـبر السـنوات الأربـع، 1950 ـ 1954، فـترة متصلـة واحـدة فى تاريـخ الجماعـة التنظيمـى، لم تقطعهـا ثـورة يوليـو، ولا إلغـاء الأحـزاب فى مسـتهل 1953، فالجماعـة لم تعتـبر نفسـها حزبًـا سياسـيًا، وجارتهـا قيـادة ثـورة يوليـو فى هـذا، ولم تأمـر بحلهـا كـما حلـت الأحـزاب فى ينايـر 1953، وإنمـا حلتهـا وبـدأت الحمـلات ضدهـا بعـد ذلـك بعـام، بعـد أن وصـل الخـلاف بينهـا وبـين جـمال عبـد النـاصر إلى الحـد الـذى لم تعـد الدولـة الناصريـة تحتملهـا... هـذه السـنوات الأربـع، هـى فـترة زعامـة حسـن الهضيبـى. وهـى فـترة متميـزة، فى تاريـخ الجماعـة التنظيمـى، عـن فـترة زعامـة مؤسسـها حسـن البنـا، وعـن الفـترة اللاحقـة، التـى كان سـيد قطـب أبـرز قادتهـا، وقـد حـاول الهضيبـى، فى سـنواته الأربـع عـلى رأس الجماعـة، أن يجعـل منهـا حزبًـا إسـلاميًا سياسـيًا "مسـئولاً" بالمفهـوم الرسـمى، أى ملتزمًـا بالأطـر الشرعيـة للدولـة القائمـة، وكان الهضيبـى نفسـه رجـل قانـون، قاضيًـا ومستشـارًا، يحمـل لقـب البكويـة ويحـرص عـلى أن يُقـرن اللقـب باسـمه فى الصحـف، وقـد حـاول الهضيبـى بـك أن يجعـل قيـادة الجماعـة بأيـدى صفـوة منتقـاة مـن المهنيـين المؤهلـين والمثقفـين الإسـلاميين المحدثـين العصريـين، وكان الرجـل يريـد أن يسـتفيد ـ عـلى طريقتـه ـ مـن الـدروس القاسـية للصـدام الـذى حـدث مـع السـلطة فى عامـى 1948 ـ 1949، ولمـا كان مقتنعًـا بـأن نشـاط الجماعـة وفكرهـا لا يتعـارض مـع أسـس النظـام القائـم، فقـد كان منهجـه يقـوم عـلى أسـاس تـلافى أسـباب سـوء الفهـم أو الصـدام مـع السـلطات كلـما أمكـن، بـل وأن يحـاول جعـل ذلـك ممكنًـا فى كل الظـروف، ومـن ثـمّ، كان حريصًـا عـلى التشـاور والتنسـيق مـع الجهـاز الإدارى الحكومـى، وفى الحيـاة الداخليـة للجماعـة، حـاول الهضيبـى أن يؤلـف بـين إتجاهـات ثـلاث، كانـت قـد بـدأت ـ منـذ غيـاب حسـن

البنـا ـ تـبرز وتتمايـز فى قلـب الهيئـات القياديـة : إتجـاه معتـدل محافـظ، قوامـه المهنيـون والمثقفـون الإسـلاميون المحدثـون، وكان هـو نفسـه أكـثر إنتـماءًا إليـه، وإتجـاه دينـى تقليـدى كان يمثلـه عبـد الحكيـم عابديـن، وهـو أقـرب إلى الطـرق الصوفيـة، وإتجـاه شـبابى متشـدد، يتجـه نحـو العنـف، ويسـتخدمه فعـلاً، وهـو الاتجـاه الـذى ينتمـى إليـه محمـود عبـد المجيـد الـذى اغتـال النقـراشى باشـا رئيـس الـوزراء وغـيره مـن الفدائيـين الإسـلاميين الذيـن قتلـوا، أو حاولـوا قتـل، عـدد مـن رجـال الدولـة فى عامـى 1948، 1949.. وكذلـك أولئـك الذيـن تطوعـوا للقتـال فى فلسـطين، والذيـن ذهبـوا للاشـتراك فى المقاومـة المسـلحة ضـد قـوات الاحتـلال بعـد إلغـاء المعاهـدة، هـذا الاتجـاه هـو الـذى تطـور وأنتـج، فيـما بعـد، مـا عـرف باسـم "الجهـاز الـسرى" المسـلح للجماعـة، والأرجـح أنـه نمـا وتطـور بعيـدًا عـن أعـين حسـن الهضيبـى، وفى تعـارض مـع منهجـه فى الفكـر وأسـلوبه فى العمـل.

مـا يهمنـا هنـا هـو أن نؤكـد أن الجماعـة اسـتعادت قوتهـا، وأحسـنت تنظيمهـا، ونمـت نمـوًا ملحوظًـا، وعـلى الرغـم مـن أن القيـادة الهضيبيـة حرصـت عـلى إقامـة علاقـات رسـمية طيبـة مـع الحكومـة الوفديـة ـ وهـى علاقـات كان فـؤاد باشـا سراج الديـن لا يقـل حرصًـا عليهـا ـ إلا أن قيـادة الجماعـة إحتفظـت بمسـافة بعـد عـن الدولـة والأحـزاب، لتكفـل لنفسـها قـدرًا كبـيرًا مـن الاسـتقلالية وحريـة الحركـة والمنـاورة.. أو ـ بمعنـى آخـر ـ لتضـع نفسـها فـوق الأحـزاب والحيـاة الحزبيـة جميعًـا، بـل فـوق الدولـة نفسـها. وفى نفـس الوقـت، حرصـت قيـادة الجماعـة عـلى إبـراز عدائهـا للشـيوعية والشـيوعين، وعـلى تحصـين أعضائهـا وقواعدهـا ضـد تكـرار ـ الخطـأ ـ الـذى وقـع فيـه شـباب الأخـوان عـام 1946، أى ضـد التعـاون مـع الشـيوعيين أو الاشـتراك معهـم ـ أو مـع مـن يتعـاون معهـم ـ فى أى عمـل أو أى نضـال مشـترك، كذلـك ظلـت عـلى موقفهـا المتحفـظ الحـذر مـن الحـزب الاشـتراكى وقيادتـه، وعـلى نحـو غـير معلـن، ظلـت قيـادة الجماعـة تغـذى روح المنافسـة والعـداء التقليـدى ضـد الوفـد، وخاصـة ضـد الشـباب الوفـدى، الـذى كان إقبالـه يتزايـد عـلى فكـرة التعـاون مـع اليسـار الماركـسى... بإختصـار، ظلـت قيـادة الجماعـة تغـذى، لـدى أعضائهـا العاملـين والمتنفذيـن، فكـرة أنهـا الوحيـدة صاحبـة الحـق الشرعـى ـ الألهـى ـ فى الوجـود والمالكـة الوحيـدة لصلاحياتهـا تؤهلهـا لأن تكـون هـى القـوة التـى تنفـرد ـ فى مسـتقبل غـير بعيـد ـ بـإدارة شـئون مـصر، والعـالم الإسـلامى.

ودخل اليسار الماركسى أيضًا، فى أواخر 1949، مرحلة جديدة متميزة فى تاريخه.

رحل هنرى كورييل وعدد من كبار معاونيه إلى الخارج كشرط للإفراج عنهم من معتقلات إبراهيم عبد الهادى، كذلك رحل أغلبية اليهود الآخرين الذين كانوا يحتلون المراكز القيادية، وذهب البعض للإقامة فى إسرائيل، بينما ذهبت الأغلبية لتعيش فى أوروبا... وهكذا، حين جمعت الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) ما بقى من تنظيمها بعد إلغاء الأحكام العرفية والإفراج عن جميع من بقى من المعتقلين فى أوائل 1950، أصبحت القيادة فى أيد مصرية.

ولكن هنرى كورييل ومجموعته، التى أتخذت باريس مقرًا لها، ظلت تحتفظ بخيوط قوية للتوجيه من بعيد، أهمها المعونة المالية والاتصالات الدولية، ومن ثمّ، استمرت المدرسة اليونسية ـ ويونس هو الاسم الحركى لهنرى كورييل ـ هى السائدة فى فكر حدتو، ونفوذها هو المسيطر فى التنظيم، وأساليبها هى السائدة فى النشاط العملى.

واتجهت حدتو، بعد توفر جو "الحريات النسبية" فى 1950 ـ 51، إلى إعطاء الأولوية للنشاط العلنى، وتميزت بالتركيز على العمل فى المجال الصحفى وفى حركة أنصار السلام، وكانت حركة أنصار السلام حينذاك حركة عالمية وليدة نامية، نجحت فى إجتذاب عدد من مشاهير المثقفين والمفكرين والشخصيات العامة ذات التوجه الديموقراطى الإنسانى، وكان لهذا إنعكاسه فى مصر، حيث أنضم إلى الحركة عدد من نجوم الصفوة المثقفة، مثل يوسف حلمى المحامى، والشاعر عبد الرحمن الشرقاوى، ورائدة الحركة النسائية سيزا نبراوى، والفنانة أنجى أفلاطيون... بل أنضم فيما بعد باشا من أشهر باشاوات مصر، هو كامل البندارى، الذى تولى ـ فى عصر مضى ـ منصب وكيل الديوان الملكى... وأحسنت حدتو الاستفادة، تنظيميًا ودعائيًا، من النشاط فى حركة أنصار السلام. وساعد على ذلك الاتصالات الدولية التى كانت تقوم بها مجموعة هنرى كورييل فى باريس.

وتمكنت حدتو، عام 1951، من إصدار مجلة أسبوعية، "هى الملايين"، التى كانت المنبر العلنى الوحيد لليسار الماركسى، ولكنها كانت تعانى من مضايقات وزارة الداخلية أكثر من أية صحيفة أخرى، كما كان أسلوبها الدعائى ودائره اتصالاتها ونوعية اهتماماتها.. كانت عوامل فى جعل نفوذها ضئيلاً وتأثيرها هامشيًا، وظلت صحافة الحزب الاشتراكى هى الأكثر نفوذًا بين الجماهير الواسعة

للطبقة المتوسطة، والأكثر تعبيراً عن اهتماماتها ووجدانها، والأكثر قربًا من أسلوبها فى الحديث والتعبير.

ولكن.. وجدت مجموعة أخرى، على خلاف مجموعة كورييل، آثرت البقاء على أرض مصر، وهى إحدى المجموعات التاريخية التى كان تنشط منذ أواسط الثلاثينات، وأبوها الروحى هو "جاكوب دى كومب"، والتى ضمت الثلاثى يوسف درويش، وريمون، دويك، وايزيدور سلفادور المعروف باسم صادق سعد. رحل جاكوب دى كومب إلى باريس، وإنقطعت ـ أو كادت أن تنقطع ـ صلاته بمصر، بينما ظل الثلاثى درويش ـ دويك ـ صادق سعد على رأس التنظيم الذى عرف من أوائل الخمسينات إلى أواسطها بأسم د.ش ـ وهما الحرفان الأولان من أسم الديموقراطية الشعبية !! ـ وقد تميزت د.ش، فى المرحلة موضوع حديثنا بالتركيز على مجالين : الشباب الوفدى، وعمال النسيج فى القاهرة.

وكان نشاط د.ش فى صفوف الشباب الوفدى، إلى جانب العوامل السياسية والاجتماعية الأخرى، كان عاملاً هامًا فى تبلور "الطليعة الوفدية"، التى يمكن إعتبارها واحدة من التشكيلات السياسية المتميزة للطبقة المتوسطة المصرية..

تخلقت بذرة الطليعة الوفدية فى غمرة النهوض الوطنى الثورى عام 1946، وتعاظم استقطاب شباب الطليعة حول مصطفى موسى فى إنتخابات 1949، فى دائرة باب الشعرية، حيث رفض مصطفى موسى، والشباب الملتف حوله، الالتجاء إلى الأساليب القديمة التى كانت تلجأ إليها أحزاب الأعيان التقليدية (والوفد ليس إستثناء) من أجل الحصول على أصوات "الرعية". إنما إستخدمت "الطليعة الوفدية" الأساليب الحديثة للأحزاب الاشتراكية، أساليب التوعية والتعبئة الجماهيرية حول برنامج محدد، وخلق روح الالتزام المتبادل بين النائب وجمهور الناخبين، إلتزام قائم على الفهم والتجاوب والمشاركة الايجابية من أجل تحقيق أهداف سياسية اجتماعية واضحة.

وكانت معركة قوانين الصحافة هى التجربة الكبيرة الثانية التى خاضتها الطليعة الوفدية على طريق التمايز عن القيادة الوفدية التقليدية. ففى 1951، حاول البرلمان الوفدى، بإيعاز من فؤاد سراج الدين، أن يفرض مجموعة من القوانين التى تزيد من تكبيل حرية الصحافة، وذلك لمواجهة النفوذ المتعاظم لصحف الحزب الاشتراكى، واليسار الماركسى، والحزب الوطنى ـ الذى شرع يعيد

تنظيم صفوفة تحت قيادة فتحى رضوان - وكذا المساهمات المتزايدة لليساريين والتقدميين فى بعض صحف الوفد نفسه، ومن بينها المجلة التى أصدرتها الطليعة الوفدية فى ذلك العام، ولكن المحاولة البرلمانية فشلت، حيث ووجهت بمقاومة نشيطة ائتلفت فيها كل تلك القوى، وكانت المعارضة المنظمة للطليعة الوفدية من أهم عوامل إحباطها، وهى معارضة كادت أن تصل إلى مواجهة عنيفة بين الشباب الوفدى، الذى ألتف حول مصطفى موسى، وقوات الأمن، التى كانت بيد فؤاد سراج الدين.

والحق أن مصطفى موسى كان تجسيدًا لمحاولة فريدة من نوعها فى تاريخ الوفد - محاولة تجديد شباب الحزب، والإبقاء على الزعامة الشعبية الكاسحة التى كانت أهم ما تميز به الحزب الكبير منذ مولده فى ثورة 1919، والتى سبق أن تجسدت فى سعد زغلول ومصطفى النحاس، ولما كانت أعقاب الحرب العالمية الثانية هى حقبة النمو العظيم للمثل الاشتراكية العليا، فقد قبل مصطفى موسى بمحاولة تطعيم البناء الفكرى للوفد بالفكر الاشتراكى، والاستفادة من أساليب التنظيم وبعض مناهج العمل الدعائى والنضالى التى تجيدها الأحزاب الاشتراكية الحديثة. ومن ثمّ، رحّب بمساهمات الدلاشنه - نسبة إلى منظمة د.ش - فى بعض الأعمال الدعائية والتثقيفية فى صفوف الطليعة الوفدية.. بينما حرص، فى نفس الوقت، على الاحتفاظ بمسافة بعد عن د.ش، وعلى تبديد آية أوهام لتحويل الطليعة الوفدية إلى ملحق بالمنظمة شبه الشيوعية. وإذا كان ولابد، فليكن العكس... خاصة وقد أثبتت الطليعة الوفدية قدرتها على التمايز عن القيادة الوفدية العتيدة، وتمكنت من السيطرة على قطاعات عريضة من الشباب الوفدى.

ولا يفوتنا أن نشير إلى حقيقة أن شباب الطليعة الوفدية كان يحظى بعطف شخصى خاص من النحاس باشا، بينما كانت الخصومة شبه معلنة بينهم وبين فؤاد سراج الدين، وهى خصومة يحاول الجميع اليوم - فى الثمانينات - إنكارها وطمس ذكراها، وذلك لأسباب تتعلق بالمحاولات التى تبذل - منذ أواسط السبعينات - لإحياء الوفد، وبعث مدرسته السياسية، بإعتبار أن فؤاد باشا هو رمزها، وهو القائد الوحيد الباقى على قيد الحياة المؤهل لزعامتها... هذا، بالإضافة إلى أن نقاط الخلاف بين شباب ذلك الزمان وفؤاد باشا تجاوزتها الأحداث.

إذا عدنـا إلى الحديـث عـن اليسـار الماركـسى فى الفـترة بـين حـرب فلسـطين وحريـق القاهـرة، فإننـا نجـد فريقـًا مـن الشـباب الماركـسى خـارج كل مـن منظمتـى حدتـو، د.ش.. فريقـًا أصر عـلى الخـروج مـن إطـار التنظيـمات والقيـادات القديمة، ونبـذ النفوذ المتمكـن، المبـاشر أو غـير المبـاشر، لكوريـيـل ودويـك وشـوارتز وحـزان.. وأشـباههم.. وذلـك هـو الفريـق الـذى أعلـن، فى مسـتهل 1950، تكويـن الحـزب الشـيوعى المـصرى، وكان عـلى رأسـه فـؤاد مـرسى وسـعد زهـران وداود عزيـز ومصطفـى طيبـة.. وضـمّ هـذا الفريـق مجموعـة مـن شـباب ستة مـن التكتـلات والمنظـمات التـى كانـت تكتـظ بهـا السـاحة عـام 1949 : التكتـل الثـورى، العصبـة الماركسـية، الطليعـة (وهـى منظمـة صغـيرة كانـت الإسـكندرية مقرهـا)، وثلاثـة تكتـلات صغـيرة أخـرى خارجـة عـلى حدتو.

وكانـت تلـك أول مـرة يعـود فيهـا اسـم الحـزب الشـيوعى المـصرى إلى الظهـور، بعـد حـوالى ربـع قـرن مـن تشـتت الحـزب الشـيوعى الأول فى 1924، واندثـاره تمامًـا فيـما بعـد، ولكـن، ليـس بـين حـزب أوائـل الخمسـينات، الـذى عـرف بإسـم حـزب "الرايـة" وحـزب العشرينـات أيـة صلـة. كـما لا صلـة لـه بالحـزب الشـيوعى الحـالى فى مـصر، الـذى أعلـن تأسيسـه فى 1975.

وقـد عـرف حـزب أوائـل الخمسـينات بأسـم حـزب الرايـة نسـبة إلى مجلتـه الأسـبوعية، "رايـة الشـعب". وهـى المجلـة الأسـبوعية الوحيـدة فى تاريـخ الصحافـة السريـة فى مـصر التـى إنتظـم صدروهـا، فى أسـلوب جيـد وإخـراج متقـن بمقاييـس وقتهـا، حـوالى أربـع سـنوات متتاليـة. وقـد تميـز ذلـك الحـزب، عـن سـائر التنظيـمات شـبه الشـيوعية حينـذاك، عـلاوة عـلى مصريـة القيـادة والكـوادر والأعضـاء، بالاجتهـاد الفكـرى والنظـرى، ودقـة التنظيـم وسريتـه، وإنتظـام دعايتـه المكتوبـة وإرتفـاع مسـتواها، وعلاقاتـه الخاصـة بالحـزب الاشـتراكى.

والحـق أن المسـاهمة الفكريـة التـى قدمهـا الدكتـور فـؤاد مـرسى، وهـو أسـتاذ وعـالم مدقـق، وصاحـب مدرسـة فى الفكـر والنظريـة.. تعـد أبـرز محاولـة مـن نوعهـا فى ذلـك الزمـان. وقـد كان مقيـاس التفـوق الفكـرى والنظـرى المسـلّم بـه بـين جميـع الماركسـيين حينـذاك، هـو الالتـزام الدقيـق بالنصـوص المعتمـدة للماركسـية السـوفييتية، التـى كانـت ماركسـية لينينيـة سـتالينية، وإكتشـاف مدلـولات ـ فى الواقـع المحـلى ـ للمقـولات النظريـة الـورادة فى تلـك النصـوص. الأمـر الـذى ميّـز كـوادر "الرايـة"، وصـاغ

علـى أساسـه الدكتـور فـؤاد إسـتراتيجية وتكتيـكا للثـورة المصريـة، وذلـك للمـرة الأولى ـ وربمـا هـى الوحيـدة ـ فى تاريـخ الفكـر الماركـسى فى مـصر...

... نسـتطيع الآن، بعـد مـرور أكـثر مـن ثلاثـين عامًـا تعـدل ثلاثـين عقـدًا مـن التجـارب والهمـوم.. نسـتطيع بسـهولة أن نتبين الضعـف الكامـن فى ذلك المنهـج، وكيف أن الإمعـان فيـه لا يفـضى إلا إلى أشـكال مـن الجمـود الكامـن فى ذلـك المنهـج، وكيـف أن الإمعـان فيـه لا يفـضى إلا إلى أشـكال مـن الجمـود المذهبـى والتبعيـة الأيديولوجيـة.. ولكـن، لـكل زمـان أفـكاره ورجالـه.. ففـى ذلـك الزمـان كانـت الاجتهـادات الفكريـة للرفيـق خالـد وهـو الأسـم التنظيمـى الـذى عـرف بـه الدكتـور فـؤاد مـرسى ينظـر إليهـا مـن جانـب الكـوادر المسـتنيرة كخطـوة كبـيرة إلى الأمـام، وقفـزة نوعيـة بالقيـاس إلى مـا كان عليـه حـال الفكـر الماركـسى فى الأربعينـات... حيـث كان الغيـاب شـبه الكامـل لأى معيـار نظـرى أو فكـرى واضـح، والإستسـلام لـردود الفعـل التجريبيـة الفرصويـة، والإذعـان لتوجيهـات متضاربـة صـادرة عـن قيـادات أجنبيـة، تحتكـر وحدهـا معرفـة اللغـات الأفرنجيـة والرجـوع إلى الكتـب والنصـوص المعتمـدة، وتتخاصـم عـلى تفسـيرها بعبـارات غامضـة، وفى أسـلوب ركيـك نصـف خواجـاتى، شـبه عامـى.

عـلى كل حـال، قُـدّر للميـزات التـى كان يتمتـع بهـا حـزب الرايـة أن تكـون قصـيرة العمـر، لم تتجـاوز أواسـط الخمسـينات. ففـى أعقـاب ثـورة يوليـو كان الحـزب الاشـتراكى قـد تبخـر.. وبعـد مـوت سـتالين، فى 1953، بـدأت الماركسـية السـوفييتية نفسـها تديـن السـتالينية، وسرعـان مـا أعلـن خروشـوف، فى المؤتمـر العشريـن للحـزب السـوفييتى (فبرايـر 1956) مراجعتهـا ونقضهـا جملـة وتفصيـلاً، ومـن وقتهـا تحـول الاجتهـاد الفكـرى، فى إطـار الماركسـية السـوفييتية، إلى تبريـرات متعـثرة ـ ذات أثـواب تـزداد تمزقـًا ـ لمواقـف الدولـة السـوفييتية وتكتيكاتهـا المتغـيرة بهـدف تكييـف مواقف الماركسـيين المحليـين لمسـايرتها.. وخدمتهـا ـ وفى 1953 كانـت أجهـزة الأمـن الناصريـة قـد تمكنـت مـن إخـتراق تنظيـم الرايـة، لأسـباب مـن أهمهـا التداخـل الـذى حـدث بـين صفـوف الماركسـيين والناصريـين.. إلى أن تمكنـت المباحـث العامـة، فى أواخـر 1954، مـن تقويـض ذلـك التنظيـم تمامًـا، كـما قوضـت كافـة التنظيـمات الماركسـية الأخـرى، وغيبـت كوادرهـا الأساسـية فى السـجون والمعتقـلات. بعـد ذلـك، توقفـت الرايـة عـن الصـدور، ودخـل الحـزب طـور الأفـول.. لينتهـى نهايـة تنظيميـة منـذ الوحـدة مـع

التنظيمين الآخرين التى تمت - شكليًا - فى 8 يناير 1958، ومن بعدها لم تبذل أية محاولة لإحيائه.

والحقيقة أن حزب الراية، من بين تنظيمات ذلك الزمان، كان المدرسة التى جسدّت طموحًا مصريًا أصيلاً لأن يتولى الماركسيون المصريون شئون بلادهم بالأصالة عن أنفسهم... ومن ثمّ كانوا يفرضون، حتى على الخصوم، جوًا خاصًا من الإحترام والمهابة... ولكن إرادة التاريخ شاءت أن تتمكن الناصرية، بعد 1956، من إحتواء كل الفرق الماركسية، وتحويلها إلى ملحقات بالقاطرة الناصرية.. بل إن النظام الناصرى تمكن، فى 1965، من حمل تلك الفرق على إعلان حل التنظيم الشيوعى، والتنظير لعدم لزومه للواقع المصرى، وفى الظروف الجديدة، كانت الراية هى المدرسة التى تخرج منها عدد من أبرز التكنوقراط الماركسيين الذين نشطوا فى خدمة النظام الناصرى، ثم فى خدمة حكم السادات إلى أن إنقلب عليهم السادات، فى أعقاب حرب أكتوبر، وقرر الاستغناء عن تلك الخدمات.. وكانت الراية هى المدرسة التى تخرج منها الماركسيان الوحيدان، على سبيل الحصر، اللذان وصلا إلى منصب الوزارة، وهما الدكتوران فؤاد مرسى - نفسه !! - وإسماعيل صبرى... إلى هذا الحد تضاءل الطموح الكبير، وفعلت الأيام والسنوات وتآكل الإيديولوجيات، فعلت فعلها فى التنظيمات والشخصيات... وسبحان مغيّر الأحوال.

... ...

أكتملت - إذن - فى 1950 - 1951، ملامح الفرق الماركسية الثلاث التى ظلت لقصتها بقية : حدتو، دش، الراية. وتمايز كل منها بنقاط قوته ونقاط ضعفه ومجالات "تخصصه"، ونما تنظيم كل منها على حدة، وقوى نفوذها وتأثيرها، ولكن هذه الفرق ظلت بعيدة عن مجرد احتمال أية وحدة تجمعها فى حزب ماركسى واحد ذى وزن، ومن ثمَّ إستمر اليسار الماركسى هو الأضعف، بالقياس إلى أحزاب الطبقة المتوسطة وتشكيلاتها غير الماركسية.

وعلى مقياس أوسع، إكتملت أيضًا فى نفس العامين ملامح هذه الأحزاب والتشكيلات : الحزب الاشتراكى والإخوان المسلمون والحزب الوطنى الجديد (والطليعة الوفدية أيضًا..) ونما تنظيم كل منها على حدة، وتعاظم نفوذها

وتأثيرهـا، وأكتـظ الشـارع السـياسى بصحافتهـا، ونشراتهـا ومنشـوراتها، ومناقشـاتها ومسـاجلاتها، واجتماعاتهـا ومؤتمراتهـا، ومظاهراتهـا والإضرابـات التـى تقودهـا... وكان صيـف 1951 صيفًـأ ساخنًـأ، وفى مـصر يـأتى الصيـف مبكـرًا ويذهـب متأخـرًا، عاشـت البـلاد شـهورًا متتابعـة فى مهرجـان سـياسى صاخـب، لا يـكاد يمـر أسـبوع أو بضعـة أسـابيع ألا وتتفجـر إضرابـات وتسـير مظاهـرات، بعضهـا لأسـباب نقابيـة ومطالـب اقتصاديـة، والبعـض الآخـر لأسـباب سياسـية تتعلـق بالقضيـة الوطنيـة أو الحريـات الديموقراطيـة.. ولكنهـا جميعًـا تحـت قيـادة العنـاصر النشـيطة المنتميـة إلى واحـد مـن هـذه التنظيـمات أو الأحـزاب أو الجماعـات، وعـلاوه عـلى العـمال الصناعيـين فى المـدن الكـبرى، دخـل مجـال النضـال الاقتصـادى النقـابى فئـات اجتماعيـة وسـيطة، خارجـة بذلـك عـن النفـوذ التقليـدى للوفـد ـ مثـل المعلمـين وبعـض فئـات الموظفـين.. بـل وصـل القلـق إلى الأطبـاء وبعـض المهندسـين ـ حيـث لجـأوا إلى إسـتخدام أسـاليب كانـت قـاصرة عـلى العـمال الثوريـين ـ مثـل الإضراب والاعتصـام والتظاهـر...

ودلـت جميـع الظواهـر عـلى أن قبضـة الحكومـة قـد ضعفـت وكاد زمـام الأمـور أن يفلـت مـن يدهـا، فـلا هـى، عـلى الجبهـة الاقتصاديـة، تسـتجيب لمطالـب الجماهير، ولا هـى قـادرة عـلى إحتوائهـا أو قمـع حركتهـا، وعـلى الجبهـة السياسـية، لا هـى قـادرة عـلى حمـل الإنجليـز عـلى تقديـم تنـازلات ذات شـأن فيـما يتعلـق بالقضيـة الوطنيـة أو كبـح النـزوع الاسـتبدادى للقـصر، ولا هـى ـ فى نفـس الوقـت ـ قـادرة عـلى قيـادة نضال وطنـى شـعبى فعـال، أو التجـاوب مـع التطلعـات الديموقراطيـة للشـارع السـياسى... وبـدأ الحديـث، فى الدوائـر الاجتماعيـة العليـا التـى عـلى صلـة بالقـصر وأحـزاب الأقلية، بصـوت مسـموع، عـن اسـتحالة السـكوت عـلى اسـتمرار "حالـة الفـوضى" هـذه.. كـما تعالـت، مـن جانـب المعارضـة الشـعبية، ـ أى مـن جانـب الأحـزاب العلمانيـة للطبقـة المتوسـطة ـ تحـذر مـن مؤامـرة يدبرهـا القـصر والإنجليـز للإنقـلاب عـلى الدسـتور، أى إنقـلاب يطيـح بحكومـة الوفـد، ويعيـد قبضـة الاسـتبداد الرجعـى مـرة أخـرى... بينـما هـذه الأحـزاب نفسـها لا تكـف عـن الضغـط عـلى الحكومـة فى المجـالات الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسـية جميعًـا.

وإذ قـارب الصيـف الإنتهـاء، ولم تبـق إلا أيـام عـلى إفتتـاح العـام الـدراسى، مـع مـا كان يعنيـه إفتتـاح العـام الـدراسى فى مثـل تلـك الظـروف مـن التعجيـل بالانفجـار، بات الجميـع يتوقعـون أمـرًا يخـرج الوضعيـة السياسـية مـن المـأزق الـذى تـتردى فيـه يومًـا

بعد يوم، فأما مبادرة هجومية، رجعية استعمارية، من جانب السراى والإنجليز أو مبادرة مضادة من جانب الوفد وحكومته... ولكن الملفت للنظر حقًا أن أحدًا لم يتوقع أن تأتى مبادرة تحسم الموقف من جانب الأحزاب والتنظيمات "الشعبية" - والجدير بالملاحظة أن الشعب هو اسم الشهرة التى فضلت أن تعلن أحزاب وتشكيلات الطبقة المتوسطة الإنتماء إليه منذ 1946. فالمجتمع السياسى، بما فى ذلك طلائع الطبقة المتوسطة نفسها، لم تكن ترى أن هذه الأحزاب والتشكيلات، الماركسية والإشتراكية والوطنية والدينية، قد تجاوزت بعد كونها مجرد جماعات ضغط ما تزال غير قادرة إلا على اللعب فى الهوامش، ماتزال عاجزة عن إقتحام لعبة السلطة، من بين أهم أسباب ذلك العجز أنها كانت أبعد ما تكون عن توحيد فصائلها فى جبهة وطنية قادرة على أن تكون تحديًا جديًا للنظام، وبديلاً مقنعًا للحكم القائم حينذاك.

غنى عن الذكر أن ضيق الأفق العقائدى كان هو العائق الأساسى.

فعلى الرغم من أن الماركسيين كانوا يكثرون الحديث عن الجبهة الوطنية أو الجبهة الشعبية، لأنهم يقرأون عن هذه أو تلك فى النصوص المعتمدة.. إلا أنهم فى الواقع العملى كانوا يضيقون، ليس فقط بالهوة الأيديولوجية التى تفصلهم عن الإخوان مثلاً، وإنما كان كل فريق منهم يضيق بالفرق الماركسية الأخرى، ولا يطيقها، ويعجز عن التعاون معها فى أى مجال.. كان الناس يحارون فى تفسير الخصومات التى تنشب بين الفرق الماركسية حول التسمية مثلاً، هل هى جبهة شعبية أم هى جبهة وطنية، وحول القيادة، هل تكون للبروليتاريا الثورية أم للبورجوازية الوطنية، وحول التمثيل والهوية، هل هذا الحزب يمثل هذه الطبقة أم لا يمثلها، وحول ألف حكاية أخرى تدخل فى حمّى اللجاجة العقمية، التى ليست إلا بعضًا من أعراض التبعية الأيديولوجية، الناجمة عن محاولة حشر حقائق الواقع الاجتماعى والسياسى المصرى فى ألفاظ ومقولات مأخوذة من واقع بلاد وأزمنة وملابسات شديدة الاختلاف.

أما الإخوان، فإن فكرة الجبهة لم تكن واردة بالنسبة إليهم أصلاً، حيث ظلوا يرون فى أنفسهم القوة الوحيدة الجديرة بالوجود، المؤهلة للقيادة. ومن ثمّ استمروا - كشأنهم دائمًا - يسارعون إلى سلاح التكفير، قبل أن تبدأ أية جهود جدية بحثًا عن موقف مشترك أو نضال موحّد.

والحق أن الطبقة المتوسطة المصرية كانت تعيش مفارقة صارخة. فعلى الرغم من أن غالبية أفراد هذه الطبقة لا يكفّون عن الشكوى من مظاهر الإستبداد السلطوى، ويرددون - دون ملل - مطلب الحرية والديموقراطية، إلا أن العقلية الاستبدادية، والممارسات الاستبدادية أيضًا، هى السائدة بين طلائعها السياسية، الماركسية والدينية خاصة. كل فريق أو حزب أو جماعة لا تحسن، وغالبًا هى لا ترغب، أن تشترك مع الجماعات الأخرى فى نضال مشترك من أجل هدف يجمعها ضد خصم مشترك... ناهينا عن تصور إشتراكها فى إدارة شئون الدولة من خلال مؤسسات برلمانية ديموقراطية حقة !!

صحيح أن بعض هذه الطلائع اليوم - بعد أكثر من ثلاثين عامًا من التجارب المريرة - حققت تقدمًا فى هذا الصدد عما كانت فى أوائل الخمسينات، ولكنه تقدم ضئيل بالقياس إلى ما تستوجبه الضرورة. ولكى تكون أحزاب وتشكيلات الطبقة المتوسطة مؤهلة للتعبير عن الطموح الديموقراطى، فإنه يتعين عليها أن تحسن تدريب أعضائها وقياداتها على الممارسة الديموقراطية فى مجال الاجتهاد الفكرى، وفى حياتها الحزبية الداخلية، وفى نظرتها وتفاعلها مع التيارات اللايديولوجية التى تختلف معها، وفى علاقاتها النضالية مع الأحزاب والجماعات الأخرى، وفى الإصرار على الممارسة للديموقراطية فى المؤسسات النيابية والنقابية والتعاونية على كافة الأصعدة المحلية والوطنية، وحتى فى المؤسسات العلمية والتعليمية التى أصبحت غالبية أمورها بيد كوادر الطبقة المتوسطة.

بأختصار، على الطلائع المستنيرة للطبقة المتوسطة، أن هى أرادت أن تجعل لمطلب الحرية والديموقراطية معنى وتحقق فيه تقدمًا، أن تغيّر نظرتها لهذا المطلب.. عليها أن تنبذ المنهج السائد حتى الآن، منهج إعتبار الحرية والديموقراطية مطلبًا تكتيكيًا فرصويًا، لا يرمى - فى التطبيق العملى - لأكثر من توسيع فرص الهجوم على الخصوم والقفز إلى مواقع النفوذ.. عليها أن تعتبر الحرية والديموقراطية منهجًا وأسلوبًا فى الحياة، قيمة حضارية ومثلاً إنسانيًا أعلى، تدرب الطلائع نفسها على الالتزام به فى ممارساتها اليومية والشخصية، وتجذب إليه جمهورها الطبيعى.

فإن فشلت الطلائع فى ذلك، وما نظنها حتى الآن إلا كذلك، فهى تتحمل نصيبها، وهو النصيب الأوفى، فى إستمرار مظاهر الاستبداد فى السلطة والمجتمع

والحياة الشخصية، وتداعيات الاستبداد وأمراضه المزمنة، ومنها : العقم الفكرى، والتخلف الحضارى، وهمجية العلاقات بين البشر، والاستنزاف المعنوى والروحى... إلى آخر القاموس المألوف.

... ...

إذا عدنا إلى الحديث عن أوائل الخمسينات نقول أن الحزب الاشتراكى، بالقياس إلى الأحزاب والتشكيلات الماركسية والدينية، كان متخففًا من القيود والمحاذير والمحرمات العقائدية، وأكثر تفتحًا على مختلف التيارات والاتجاهات.. كان تمسك قيادته بالدين أمرًا لا يرقى إليه الشك، ومع ذلك فقد رفع لافتة الاشتراكية، وأقبل على التعاون مع اليسار الماركسى، ودافع مثقفوه البارزون عن فكرة علمانية الدولة.

ولكن النقطة التى لا تقل أهمية هى إنفتاح الحزب الاشتراكى، حينذاك، على قطاعات وشرائح اجتماعية أوسع، تتجاوز الحدود التى فصّلناها للطبقة المتوسطة، وإن تكن فى درجات أعلى فى السلم الاجتماعى.

كان عدد من الشباب، الذين أسسوا الحزب قبل نحو عشرين عامًا، قد صعدوا فى التراتب الاجتماعى ليصبحوا ـ فى أوائل الخمسينات ـ من كبار المهنيين أو كبار التجار، والبعض الآخر، مثل إبراهيم شكرى، ورث عن أهله أراضى وعقارات، ولم يفقد صلاته بأصوله العائلية فى الأرياف والأقاليم... ولكن هؤلاء وأولئك ظلوا متمسكين بالحزب وقيادته، وروحه الوطنية المتميزة، وشعاراته عن العدالة الاجتماعية. ذلك نوع جديد من الأعيان... أعيان لا يتعالون على الطبقة المتوسطة التى صعد غالبيتهم من صفوفها، ولا يعتبرونها مجرد أداة يستخدمونها... وإنما على العكس. هم أعيان ينجذبون نحو الطبقة المتوسطة، يتبنون مطالبها، ويرفعون شعاراتها، ويتمسكون بأساليبها المستحدثة فى العمل السياسى، "ويذيبون الفوارق" بينهم وبينها... وإذا كان لابد من وجود فوارق وفواصل اجتماعية تفصلهم عن آخرين، فلينفصلوا عن الفئات والشرائح التقليدية لطبقة الأعيان، لينفصلوا ويختصموا مع كبار الملاك المرتبطين بالقصر والانجليز.. وليزدادوا ارتباطًا بالطبقة المتوسطة، هذه الطبقة التى اشتهرت (فى اللغة المموهة للسياسة العملية) بأسم "الشعب".

هكـذا كان الحـزب الاشـتراكى يتطـور فى اتجـاه تمثيـل ائتـلاف اجتماعـى مـن نـوع جديـد، يتشـكل مـن طبقـة متوسـطة صاعـدة، متعاظمـة العـدد، محمومـة النشـاط، تسـتولى عـلى الشـارع السـياسى.. وأعيـان عصريـين محدثـين، ينبـذون الهيمنـة البريطانية نهائيًـا، ويتطلعـون إلى مجـالات جديـدة، غـير العمـل فى الزراعـة والعقـارات، للنشـاط الاقتصـادى والبنـاء الوطنـى... هـذا الائتـلاف هـو الـذى كان كل مـن الحـزب الوطنـى الجديـد والطليعـة الوفديـة بسـبيلها إلى الإسـهام فى التعبـير عنـه لـو أمتـد بهـما العمـر... وهـو الائتـلاف الـذى شـاءت الأقـدرا أن تكـون الناصريـة هـى التـى عـبّرت عنـه، وأنفـردت بتمثيلـه ووضعـه فى السـلطة فيـما بعـد.

... ...

كان صيـف 1951، كـما قلنـا، صيفـًـا ساخنـًـا. وكان المجتمـع السـياسى فى إنتظـار مبـادرة مـا.. مبـادرة إنقلابيـة مـن جانـب القـصر والانجليـز، أو مبـادرة وطنيـة مـن جانـب حكومـة الوفـد.. للخـروج مـن المـأزق.

وأخـيراً، جـاء المخـرج فى مسـتهل العـام الـدراسى، فى 8 أكتوبـر، حـين أعلـن النحـاس باشـا فى البرلمـان إلغـاء معاهـدة 36.

غير أن المخـرج كان مؤقتـًـا، لم يُفْـض إلاّ إلى رفـع درجـة حـرارة الجـو السـياسى مـن السـخونة إلى الغليـان.. وسريعًـا إلى حافـة الإنفجـار.

إنضمـت حكومـة الوفـد إلى الـرأى العـام الشـعبى فى إعتبـار وجـود قـوات الاحتلال عـلى أرض مـصر وجـودًا غـير شرعـى، وكسـبت بذلـك ـ فى مواجهـة الضغـوط المتعاظمـة مـن يمينهـا ويسـارها ـ لحظـة لالتقـاط الأنفـاس. ولكنهـا لم تكـن سـوى لحظـة.. لحظـة حـلاوة روح.. فقـد أثبتـت الأسـابيع القليلـة التاليـة أن لم يكـن لـدى الوفـد أيـة خطـة
حـلاوة روح.. فقـد أثبتـت الأسـابيع القليلـة التاليـة أن لم يكـن لـدى الوفـد أيـة خطـة
لإحتـواء الطاقـات الكبـيرة التـى سـتفجرها الوضعيـة الجديـدة... وكان الزمـان قـد تغـير، فلـم يعـد الوفـد ـ كـما كان فى ثـورة 1919 ـ هـو القيـادة الشـاملة والقـوة المالكـة لزمـام الشـارع السـياسى، ممثـلاً لطبقـة أعيـان وطنيـين موحديـن، فى لحظـة مـن أحسـن لحظاتهـم التاريخيـة.. لا.. فأعيـان 1919 الوطنيـون أصبحـوا فى 1951 أعيانـًـا تقليديـين تجاوزهـم التاريـخ، متهمـين فى صلاحياتهـم وولائهـم الوطنـى، متخاصمـين متنابذيـن

ممزقـين، شـأنهم شـأن أيـة قـوة سياسـية اجتماعيـة فى طـور الاضمحـلال والأفـول... بينـما الشـارع يكتـظ بعـدد غـير قليـل مـن أحـزاب وتنظيـمات وتشـكيلات الطبقـة المتوسـطة، تزاحـم الوفـد وتـكاد أن تعزلـه تمامًـا عـن حركـة الجماهـير الصاخبـة.

وفى المقابـل، لم يكـن لـدى طلائـع الطبقـة المتوسـطة خطـة لإحتـواء السـلطة، حيـث هـى موزعـة بـين هـذا العـدد مـن الأحـزاب والتنظيـمات والجماعـات التـى تفرقهـا الخلافـات العقائديـة والمنافسـات الحزبيـة الصغـيرة. وإذا كانـت تفتقـر إلى أيـة تقاليـد ديموقراطيـة أصيلـة، سـواء فى حياتهـا الداخليـة أو فى علاقاتهـا مـع نظائرهـا، فإنهـا عجـزت عـن صياغـة برنامـج سياسى وإطـار تنظيمـى جبهـوى يوجـد نضالهـا الوطنـى والاجتماعـى، مـع إحتفـاظ كل منهـا بحريـة العمـل مـن أجـل تحقيـق برنامجه ومبادئـه المتميـزة عـلى المـدى البعيـد. كان كل واحـد منهـا علـى حـده، وأن أعلـن خـلاف ذلـك، يتصـور أن الهيـاج الشـعبى يمكـن أن يتيـح لـه وحـده الفرصـة لأن يركـب الموجـة الصاعـدة ويملـك زمامهـا، لينفـرد بالقيـادة فى مسـتقبل منظـور !!... بإختصـار، عجـزت طلائـع الطبقـة المتوسـطة عـن أن تتوحـد، فتوحّـد بذلـك حركـة الجماهـير، وتشـكل قـوة ثوريـة ـ أو انقلابيـة ـ تسـتطيع الإطاحـة بالسـلطة القائمـة والحلـول محلهـا... وإذ كانـت عاجـزة عـن أن تتجـاوز خلافاتهـا وتـرى مـا يوحدهـا، فقـد كانـت أشـد عجـزًا عـن أن تتحـلى بالمرونـة والحكمـة والـروح الديموقراطيـة التـى تجعلهـا تغـير موقفهـا مـن الوفـد بعـد أن ألغـى النحـاس باشـا المعاهـدة، والوفـد فى لحظـات صحوتـه ـ أكتوبـر ـ نوفمبر 1951 ـ وتفـرض بذلـك إئتلافـًا وطنيًـا عريضًـا، قـادرًا عـلى مواجهة رد الفعـل المتوقـع مـن جانـب الإنجليـز والـسراى، وشـل يـد الإنقـلاب الرجعـى، وتحويـل المخـرج الوطنـى المؤقـت الـذى أهتـدت إليـه حكومـة الوفـد بإلغـاء المعاهـدة إلى إنفراجـة وطنيـة ديموقراطيـة أكـثر دوامًـا، فتعطـى نفسـها ـ وللأمـة فى مجموعهـا ـ فسـحة أوسـع، تسـتطيع خلالهـا أن تتبـين طريقهـا وتعبـئ قواهـا.

... وهكذا أكتمل السيناريو :

الإمبراطوريـة المهيمنـة، البريطانيـة، عجـوز فانيـة، تتعـثر فـلا تسـتطيع فـرض صيغـة جديـدة للإبقـاء عـلى شرعيـة الاحتـلال ورعايـة مصالـح التحالـف الغـربى.. بينـما الإمبراطوريـة الصاعـدة الزاحفـة، الحليفـة الكـبرى، أمريـكا، تسـتحثها دون أن تغيثهـا، ترقـب عثراتهـا وتسـتعجل نهايتهـا، بينـما هـى تستشـكف طريقهـا وتسـتكمل صلاحياتهـا لوضـع اليـد عـلى المنطقـة كلهـا.

وجيـش إحتـلال أصبحـت تكاليفـه باهظـة عـلى أصحابـه، بـل هـا هـو قـد فقـد شرعيـة وجـوده عـلى أرض مـصر حتـى فى نظـر أولئـك الذيـن وقعـوا عـلى المعاهـدة التـى كانـت تقّـر شرعيتـه.. وتتصاعـد ضـده مقاومـة مسـلحة.. صحيـح أنهـا مقاومـة صغـيرة وليـدة، ولكنهـا نشـيطة متصاعـدة، يغذيهـا حـماس شـعبى كاسـح، وإسـتعداد للتضحيـة بغـير حـدود.

وحكومـة مرهقـة موزعـة الإرادة.. لم تكـد تلتقـط بعـض أنفاسـها بإلغـاء المعاهـدة حتـى عـادت فتقطعـت مـرة أخـرى، وأخـيرة. فالخصومـة بينهـا وبـين الإنجليـز والقـصر أصبحـت معلنـة ولا رجعـة فيهـا، بينـما هـى عاجـزة عجـزًا بيّنـا عـن مواجهـة الـرد الإنتقامـى المتوقـع.

وأعيـان تقليديـون تجاوزهـم التاريـخ، فهـم متهمـون فى وطنيتهـم، يسـتندون إلى دعـم إمبراطوريـة محتـضرة وقـصر متـداع، وهـم موزعـون بـين أحـزاب متنافسـة متكالبـة عـلى أمجـاد سـلطة زائلـة.

وطبقـة متوسـطة نشـيطة محمومـة، تمـلأ الأرض والسـماء حركـة وشـعارات، ومضربـين وعصـاة ومتظاهريـن ومتطوعـين لحمـل السـلاح.. ولكـن طلائعهـا موزعـة بـين أحـزاب وتشـكيلات ومنظـمات وجماعـات مازالـت غـير قـادرة إلا عـلى اللعـب فى الهوامـش، متهيبـة مـن أقتحـام لعبـة السـلطة، عاجـزة عـن توحيـد نضالهـا فى جبهـة، وأشـد عجـزًا عـن أن تفـرض عـلى الوفد ائتلافـًا وطنيًـا عريضًا.. فهـى ممعنـة فى خلافاتها العقائديـة، متنافسـة عـلى أمجـاد ثـورة مقبلـة يتصـور كل فريـق أنـه صاحبهـا.

جميع أطراف الصراع دون مستوى الموقف.

ولكن.. بقى الجيش المصرى.

وكانـت ظواهـر الأمـور تـدل عـلى أن الجيـش بعيـد عـن كل هـذا. فقـد كان مجـرد الـكلام ـ أى كلام ـ عـن الجيـش يعـد مـن المحظـورات، والحديـث ـ ولـو همسًـا ـ عـن حركـة وطنيـة فى صفوفـه، ولـو بهـدف تحذيـر أصحـاب النظـام، يعـد مـن الكبائـر.

صحيـح أن الصحافـة الوطنيـة، خاصـة روز اليوسـف، أثـارت قضيـة الأسـلحة الفاسـدة، وأن صحيفـة للحـزب الاشـتراكى نـشرت خـبرًا عـن منشـورات وطنيـة تـوزع فى الجيـش، وأن أجهـزة الأمـن كان عندهـا شـكوك فى وجـود بعـض الضبـاط الوطنيـين الشـبان ينشـطون فى صفـوف القـوات المسـلحة.. ولكـن مجمـوع كل ذلـك ـ وفـق

حسـابات الإنجليـز والقـصر ـ كان هامشـيًا جـدًا، لا يرقـى إلى درجـة الشـك فى ولاء الجيـش فى جملتـه، خاصـة وأن القيـادات العليـا كانـت كلهـا مضمونـة الـولاء.

وعـلى كل حـال، سـواء كان الإنجليـز ورجـال القـصر مطمئنين إلى سـلامة حسـاباتهم أم لم يكونـوا، فلـم يكـن ثمـة خيـار آخـر.. كان الجيـش هـو القـوة الوحيـدة القـادرة عـلى حسـم الموقـف. ولابـد مـما ليـس منـه بـدّ !!

وإذن.. فليكن الانقلاب.

لتحـرق القاهـرة، عـلى أيـدى فـرق خاصـة، دربتهـا ـ ثـم أطلقتهـا ـ المخابـرات البريطانيـة. وليكـن ذلـك تبريـرًا لإقالـة حكومـة الوفـد وإعـلان الأحـكام العرفيـة.. وليسـتدع الجيـش المـصرى لإحتـلال مدينـة القاهـرة ومنـع التجـول فى شـوراعها، وإعادة الأمـن للبـلاد والاسـتقرار للنظـام.

وقـد حـدث كل هـذا فى يـوم واحـد. يـوم قـلّ أن يكـون لـه مثيـل إلا فى تاريـخ أمـة كتـب عليهـا أن تمتحـن مـن الأهـوال بأشـدها. يـوم فتحـت فيـه عـلى الملايـين مـن سـكان القاهـرة أبـواب الجحيـم، ودخـل فى روع النـاس أن تلـك هـى نهايـة الكـون. يـوم مهـول مـروع، مرسـومة مشـاهده لتغـرس فى النفـوس بـذور الذعـر واليـأس أجيـالاً.. ولتدمـر معنويـات أمـة وهـى فى لحظـة صحـوة وإندفـاع.

ذلك هو يوم 26 يناير 1952.

حرقـت القاهـرة، وأعلنـت الأحـكام العرفيـة، ومنـع التجـول، وفتحـت السـجون والمعتقـلات. وأغلقـت الصحـف الوطنيـة، وأخمـدت حركـة المقاومـة المسـلحة فى منطقـة القنـال، وتركـزت حمـلات الإرهـاب الحكومـى خاصـة عـلى الحـزب الاشـتراكى، ثـم عـلى اليسـار الماركسى والحـزب الوطنـى الجديـد.. وعـلى كل مـن اشـتبه فى صلتـه بالمقاومـة المسـلحة للقـوات البريطانيـة.

ومع كل ذلك.. فشل الإنقلاب.

لم يعد الاستقرار للنظام، وإنما عجل المشهد الجحيمى بالنهاية.

بـين حريـق القاهـرة، 26 ينايـر، وحركـة الجيـش، 23 يوليـو 1952، نصـف عـام إلا بضعـة أيـام.

وأثناء هذا النصف من ذلك العام غيّر الملك الوزارة أربع مرات. فبعد إقالة النحاس باشا جاءت حكومة على ماهر باشا.. ثم حكومة نجيب الهلالى باشا.. وقيل : أن فاروق قبض رشوة من عبود باشا لتنحية الهلالى باشا وتنصيب حسين سرى باشا رئيسًا للوزراء.. ثم ـ ويا للعجب ـ ها هو يعيد نجيب باشا الهلالى مرة أخرى، فلا يبقى رئيسًا للوزراء إلا يومًا واحدًا.. لتأتى حركة الجيش فى 23 يوليو فتضع حدًا لذلك العبث.

وكم من مرة، أثناء هذا النصف من ذلك العام، إلتقى السفير البريطانى فى القاهرة برؤساء هذه الوزارات ووزراء خارجيتهم، وأعاد فتح ملفات المفاوضات المصرية البريطانية التى كانت قد طويت، ثم طواها مع ذهاب الوزارات، ثم أعاد فتحها، ثم طواها مرة أخرى.. ومرات.. إلى أن جاءت حركة الجيش فى 23 يوليو، لتضع حدًا لذلك الجانب من المشهد العبثى.

ولكن..

فى أثناء هذا النصف من ذلك العام، كانت فى الظلام أمور تدور.

جاء إلى القاهرة، ليقيم فيها معظم أيام هذا النصف عام، السيد كيرميت روزفلت، رجل المخابرات المركزية الذى رأس فريق العمل الأمريكى المكلف بإستكشاف كيف يمكن أن تضع أمريكا يدها على المنطقة كلها، وتسدل الستار على هذا العبث على طريقتها ؟ وكيرميت روزفلت هذا هو أهم أمريكى لعب دورًا شخصيًا فى إعادة رسم خريطة منطقة الشرق الأوسط فى الخمسينات، وهو دور ربما لا يقل عن الدور الذى لعبه هنرى كيسنجر فى السبعينات.

وقضى كيرميت روزفلت معظم وقته فى أحاديث ومشاورات شخصية مع الملك فاروق، يحاول إقناعه بإنتهاج سياسة "إصلاحية" جديدة، وفقًا للنموذج الأمريكى الذى طبق شاه إيران طبعة إيرانية منه بعد الإطاحة بحكومة مصدق.

وإذا صدقنا ما يمكن تصديقه من كتاب "لعبة الأمم" الذى كتبه مايلز كوبلاند أحد رجال مجموعة العمل التى كان يرأسها كيرميت روزفلت، فإن هذا الأخير وصل إلى إقتناع بإستحالة الاعتماد على فاروق للخروج من المأزق الذى تردّت فيه الأوضاع السياسة فى مصر، بل إستحالة إجراء أية إصلاحات مع وجود فاروق على رأس السلطة، وأيده فى هذا الرأى السفير الأمريكى العتيد جيفرسون كافرى.

كان فـاروق، وهـو بعـد فى الثانيـة والثلاثـين مـن عمـره، قـد أرهقتـه التغـيرات العنيفـة فى حظـوظ الإمبراطوريـات المتكالبـة عـلى المنطقـة. كان قـد ورث عـن أبيـه، عـام 1936، الـولاء لبريطانيـا، وجعـل مـن عـام المعاهـدة عـام أفـراح شـخصية لـه هـو وأسرتـه.. وبعـد ذلـك، فى المرحلـة الأولى للحـرب العالميـة الثانيـة، قامـر فـاروق بعرشـه توقعًـا لإنتصـار ألمانيـا، إلى أن أذلـه الإنجليـز فى 4 فبرايـر 1942... ثـم عـاد إلى الحظـيرة البريطانيـة، فى 1944، بعـد أن حسـمت تطـورات الحـرب مصـير ألمانيـا.. وهـا هـى الولايـات المتحـدة تـأتى برجالهـا ومشروعاتهـا.. داخ الملـك وهـو يقفـز مـن قطـار إلى قطـار، وفقـد كثـيراً مـن توازنـه وصلاحياتـه وهـو يهـرول مـن معسـكر عالمـى إلى معسـكر آخـر يتصـور أن لـه السـيطرة والاسـتقرار !! وبديهـى أن لم يكـن لديـه مانـع مـن القبـول بهيمنـة السـيد الأمريـكى الجديـد، عـلى مـا فى عمليـة نقـل الـولاء مـن مشـقة ومرمطـة ودوار للـرأس.. وهـذا مـا يشـهد بـه كيرميـت روفلـت نفسـه، وإنمـا الأمـر الـذى إسـتعصى عـلى قـدرات فـاروق ورجـال قـصره هـو نـوع التغـيرات و"الاصلاحـات" الداخليـة التـى كانـت الدبلوماسـية الأمريكيـة تشـير بهـا.. كان فـاروق قـد أنهـك واسـتُهلك.. وبـدت تصرفاتـه، فى آخـر أيامـه، أشـبه بتصرفـات مريـض يعـرف أن لا أمـل فى شـفائه.. نـوع مـن الاستسـلام لقـدر كان يحـس أنـه أقـوى منـه. ومـا كان هـذا الاستسـلام القـدرى إلا ليأخـذ ذلـك الشـكل الـذى أخـذه، شـكل الاسـتهتار والتبـذل الـذى شـاب حياتـه الخاصـة وسـلوكه الشـخصى فى آخـر أيامـه. ومـن أيـن تأتيـه الحكمـة ليكـون غـير ذلـك ؟!!.

لقـد إنتهـى فـاروق ـ طبعًـا ـ ومـات، وشـبعت ذكـراه تلطيخًـا، خاصـة مـن الكتـاب والصحفيـين الذيـن لا يجيـدون التطـاول عـلى الحـكام إلا بعـد زوال سـلطانهم أو إبتعـاد خطرهـم. ولكـن، مـن حقـه عـلى التاريـخ أن يذكـر لـه أنـه قبـل نهايـة مُلكـه هـو وأسرتـه بأقـل الآلام المتصـورة، خاصـة إذا قارنـا مـا حـدث فى مـصر، فى يوليـو 1952، بمـا حـدث فى الحبشـة أو فى إيـران أو حتـى فى بلـد أوروبى مثـل اليونـان، حـين حانـت سـاعة الملـوك والعـروش، وهـذا معنـى نتصـور أنـه لم يفـت جـمال عبـد النـاصر. فقـد تجـاوب الرئيـس مـع مـا جـاء فى وصيـة الملـك الـذى مـات فى إيطاليـا، وسـمح بإعـادة رفاتـه ليحتويهـا تـراب مـصر الحنـون.

... وإذ لم ينجـح فـاروق فى الإختبـار الشـخصى الـذى أجـراه كيرميـت روفلـت وجيفرسـون كافـرى، فـإن رجـل المخابـرات الأمريكيـة أولى عنايـة خاصـة لاستكشـاف

القـوى الأخـرى التـى يمكـن أن تكـون بديـلاً لفـاروق ونظامـه، تلـك القـوى التـى يسـمونها "القـوى الوطنيـة المعتدلـة"، ولم يسـتبعد الإتصـال حتـى بتلـك التـى كانـت تعمـل فى الظـل.. حيـث كان المـسرح مزدحـمًا بذلـك العـدد الكبـير مـن الأحـزاب والجماعـات غـير المقنعـة، وغـير المؤهلـة.. ومـن بـين مـن أتصـل بهـم، وأن يكـن عـلى نحـو غـير مبـاشر، جماعـة مـن الضبـاط الوطنيـين كانـت تنشـط فى صفـوف القـوات المسلحــة، وتلـك هــى جماعــة "الضبــاط الأحــرار".

وأخـيرًا وليـس آخـرًا، فى معظـم أيـام هـذا النصـف مـن ذلـك العـام، (ينايـر ـ يوليـو 1952)، كانـت قـوات مـن الجيـش المـصرى تنـزل مـن مراكـز تجمعهـا وثكناتهـا عنـد الغـروب، لتنتـشر فى شـوارع العاصمـة المصريـة، لتحتـل القاهـرة، تطبيقـًا لقـرار منـع التجـول.. وهكـذا تلقـى الضبـاط الشـبان تدريبهـم العمـلى الأخـير، وكـسروا حاجـز التهيـب مـن الإقـدام عـلى عمليـة عسـكرية داخليـة لصالحهـم، لصالـح مـصر، لا لصالـح الإنجليـز والملـك.

... ...

ها نحن قد وصلنا إلى عشية 23 يوليو 1952.

هـا نحـن نقـترب مـن الفيـل فى قصـة العميـان، الذيـن تحسسـوا ذلـك الكائـن ـ كل فى موضـع محـدود ـ فمنهـم مـن قـال : إنـه حائـط، ومنهـم مـن قـال : إنـه جـذع شـجرة.. بـل أن مـن تحسـس قطعـة مـن ذيلـه قـال : إنـه ليـس إلا حبـلاً !!

والحـق أن ليـس مـما كتـب حتـى الآن عـن ثـورة 23 يوليـو، عـلى كـثرة مـا كتـب، عمـل واحـد يحيـط بـكل جوانبهـا الأساسـية فى بنـاء فكـرى متسـق ومتكامـل، ولا نـكاد نعـثر عـلى تعريـف شـامل ومتـوازن للناصريـة.

وعجـز الشـخص عـن الرؤيـة الشـاملة، وضعـف البصـيرة عنـد النظـر إلى الأحـداث التاريخيـة، يرجـع لأسـباب، أهمهـا :

الأول: أن يكون الشخص طرفـًا عيانيًا مباشرًا فى الحدث..

والشـخص هنـا إمـا أن يكـون شـخصًا ماديًـا : مؤرخـًا أو كاتبـًا أو مفكـرًا أو شـخصًا إعتباريًـا، حزبـًا أو جماعـة سياسـية أو طبقـة أو فئـة اجتماعيـة..

ومعـروف أن الحـدث لا يكـون تاريخيًـا إلا إذا كان ملحمـة هائلـة الأبعـاد، متعـددة الأوجـه، متنوعـة الملامـح.. تتداخـل فى تركيبهـا أرادات شـديدة الإختـلاف ـ حصيلتهـا

النهائيـة مختلفـة إختلافـًا نوعيًـا عـن الإرادات المنفـردة للأطـراف التـى إشـتركت فى الحـدث. وهـذه الحصيلـة هـى مـا نسـميه "إرادة التاريـخ".

ومـن ثـم، فـإن نظـرة الأشـخاص المختلفـين للحـدث الـذى عـاصروه، وكانـوا أطرافـًا مباشريـن أو غـير مباشريـن فى تشـكيله، ووصفهـم لمـا رأوا ـ حتـى لـو كانـوا صادقـين تمامًـا ـ لا يسـتطيع إلا أن يقـدم صـورًا مجتـزأة (مـن زوايـا رؤيـة مختلفـة) لبانوراما الحـدث التاريخـى الملحمـى المهـول الأبعـاد. أن شـهادة شـهود العيـان، وحتـى شـهادة الأبطـال الذيـن لعبـوا الأدوار الرئيسـية، لا تعـدو أن تكـون وثائـق تاريخيـة، ولا ترقـى لتكـون هـى كلمـة التاريـخ وحكمـه.

السـبب الثـانى : هـو أن يكـون للشـخص المعنـى مصلحـة تكيّـف نظرتـه للتاريـخ، وتقييمـه لأحـداث المـاضى، عـلى نحـو يتـماشى مـع هـذه المصلحـة أو يخدمهـا. فالتاريـخ ـ أو التأريـخ ـ مـن وجهـة النظـر هـذه، هـو إسـقاط للحـاضر عـلى المـاضى.

غنـى عـن الذكـر ـ طبعًـا ـ أن التاريـخ ليـس سردًا تسـجيليًا تفصيليًـا لأحـداث مضـت. فالـسرد التسـجيلى التفصيـلى للأحـداث عمليـة مسـتحيلة، فضـلاً عـن كونهـا قليلـة الجـدوى. فباللـه ـ أيـة قـوة بشريـة، أو حتـى إليكترونيـة، تسـتطيع أن تسـجل كل مـا يحـدث فى لحظـة واحـدة مـن لحظـات الزمـان، ناهينـا عـن تسـجيل كل مـا حـدث فى سـنوات وأجيـال.. إنمـا التاريـخ عمليـة إنقائيـة تركيبيـة. عمليـة تجريـد وتجـرد فكـرى، المرجـع الأخـير فيهـا هـو بصـيرة المـؤرخ وموقفـه.. فلسـفته التاريخيـة. وبقـدر مـا تكـون هـذه الفلسـفة معـبرة عـن الوعـى الجمعـى للنـاس فى زمـان بعينـه، يلقـى المـؤرخ اسـتجابة مـن هـؤلاء النـاس، ويكـون هـو مؤرخهـم.

... غـير أن النـاس ـ هنـا ـ ليسـوا هـم "كل النـاس". إنمـا النـاس طبقـات وشـعوب وأمـم، ومذاهـب وفـرق ونحـل. وجـل مـن يسـمو فـوق إختلافـات البـشر.

كذلـك، حـين نقـول "الوعـى الجمعـى"، فإننـا لا نقصـد عمليـة تأمـل معزولـة عـن الـضرورات الحياتيـة، إنمـا الوعـى بالتاريـخ يعنـى فهـم المـاضى عـلى ضـوء المعـارف والـضرورات الراهنـة، مـن جانـب، وعـلى نحـو يضئ مسـيرة النـاس على دروب مسـتقبل بقـدر مـا يسـاعد "النـاس" عـلى ربـط حاضرهـم بماضيهـم بمسـتقبلهم معًـا، فى رؤيـة متسـقة متماسـكة ومتكاملـة، تعبـئ إرادات النـاس ـ ناسـنا ـ وتضـم الصفـوف وتشـد العزائـم وتجلـو البصائـر.. فى مسـيرة التاريـخ التـى لا تتوقـف، ولا تتكـرر.

خــاتــمــة

وبعد،

لقـد بـدأت كتابـة هــذا المقـال مبـاشرة بعـد أحـداث سـبتمبر / أكتوبـر 1981، تؤرقنـى إحتـمالات المسـتقبل، أكـثر مـما يسـتغرقنى التأمـل فى أحـداث المـاضى.

غـير أنى كنـت عـلى وعـى بـأن اللغـة المُمَوّهـة للسياسـة العمليـة لا تسـاعد الكاتب عـلى التعبـير، كـما لا تسـاعد القـارئ عـلى الفهـم. فهـذه اللغـة تكتـظ بالمفهومـات القـاصرة والمدلـولات المغلوطـة والمعـانى الغامضـة.. والنـاس غارقـون فى طوفـان منهـا، مـما تنتجـه الصحـف السـيارة وخطـب المناسـبات والاجتهـادات شـبه الفكريـة المتداولـة..

وإذا كان الأمر يتعلق بالوضوح الفكرى، فإن أقصر الطرق هو أطولها، وأشقها.

لذلـك وجـدت لزامًـا عـلىّ، حتـى وأنـا فى عجلـة بـل ربمـا لأنى أصبحـت أكـثر إحترامًـا لعنـصر الوقـت ـ أن أخـوض فى هـذا الحديـث عـن الأصـول، تمهيـدًا لوصـول واثـق إلى الواقـع السـياسى المعـاش، وإستشرافـًـا لاحتـمالات المسـتقبل.

وهـذا هـو موضـوع الجـزء الثـانى مـن مقالنـا الـذى نتحـدث فيـه عـن الناصريـة، ثـم عـن العـصر البـترولى.

والله الموفق،،،

سعد زهران

الجزائر ـ 19 مايو 1983

لقد بدأت كتابة هذا البحث مباشرة بعد أحداث سبتمبر/أكتوبر 1981، تؤرقنى إحتمالات المستقبل، أكثر مما يستغرقنى التأمل فى أحداث الماضى.

غير أنى كنت على وعى بأن اللغة المُمَوّهة للسياسة العملية لا تساعد الكاتب على التعبير، كما لا تساعد القارئ على الفهم. فهذه اللغة تكتظ بالمفهومات القاصرة والمدلولات المغلوطة والمعانى الغامضة.. والناس غارقون فى طوفان منها، مما تنتجه الصحف السيارة وخطب المناسبات والاجتهادات شبه الفكرية المتداولة..

وإذا كان الأمر يتعلق بالوضوح الفكرى، فإن أقصر الطرق هو أطولها، وأشقها.

لذلك وجدت لزامًا علىّ، حتى وأنا فى عجلة بل ربما لأنى أصبحت أكثر إحترامًا لعنصر الوقت . أن أخوض فى هذا الحديث عن الأصول، تمهيدًا لوصول واثق إلى الواقع السياسى المعاش، وإستشرافًا لاحتمالات المستقبل.

"انتهى المؤلف إلى أن إشكالية المجتمع المصرى وأزمته هى ظهور الطبقة الوسطى، التى تحاول أن تدخل إلى قلب معادلة السلطة، وهكذا انتهى زهران إلى ثورية الطبقة الوسطى باعتبارها صاحبة مصلحة فى التغيير، وقادرة عليه، مثلما اعتبر ماركس فى سياق تاريخى وجغرافى مغاير أن الطبقة العاملة صاحبة مصلحة فى التغيير وقادرة عليه"

فريد زهران

ISBN 978-977-313-735-9





المحروسة

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية و المعلومات

تصميم الغلاف: